علماء ومفكرون معاصرون

لمحات من حياتهم، وتعريف بمؤلفاتهم





خير الدين الزركلي

المُؤَرِّخُ الأَدِيبُ الشَّاعِرُ

صَاحِبُ كِتَابِ الأَعْلَامِ

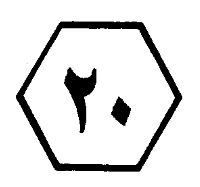
تأليف

أحمد العلاونة

دار القلم

دمشق

عُلماء ومُفكّرون مُعاصِرون
لمحات من حياتهم، وتعريف بمؤلفاتهم





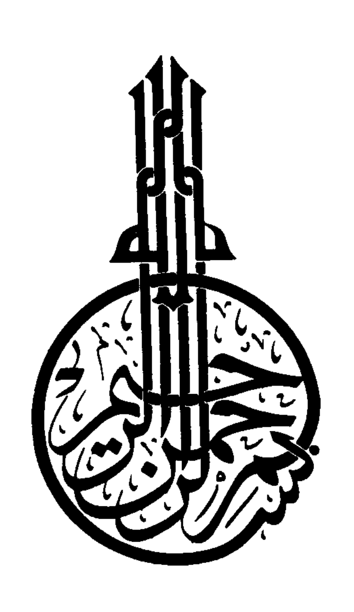
خير الدين الزركلي

١٣٠٩ - ١٣٩٦ هـ
١٨٩٣ - ١٩٧٦ م

المُؤرِّخُ الأَدِيبُ الشَّاعِرُ
صَاحِبُ كِتَابِ الأَعْلَامِ

تأليف
أحمد العلاونة

دار القلم
دمشق



الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

المقدّمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد: فقد قمت بجولة في (أعلام) الزركلي وكتبه، ففيها تناثرت أخباره وآراؤه، وأضفى عليها من شخصيته الكثير، ومن علمه وفرائده ما لا يخفى على القارئ البصير. فكان محصِّلة ذلك هذا الكتاب: (خير الدين الزركلي، المؤرخ الأديب الشاعر) وهو في فصلين:

الفصل الأول: لمحاتٌ من حياة خير الدين الزركلي رحمه الله، تحدثت عن أصله وولادته ونشأته وتعلّمه وشيوخه، ثم تحدثت عن مراحل حياته منذ خروجه من دمشق بعد وقعة ميسلون سنة (١٩٢٠م) حتى وفاته بالقاهرة سنة (١٩٧٦م).

وأتبعت ذلك بالحديث عن ذريّته، وحليته وشمائله ورحلاته وخزانة كتبه، وتحدثت عنه شاعراً وناثراً ومؤرخاً، ومجاهداً ثائراً، وأظهرت ولَعه بالبحث والمطالعة، وتقبُّله للنقد.

ثم شرعتُ في الفصل الآخر في التعريف بمؤلفاته، فعرَّفت بها واحداً واحداً، وقد رتَّبتُها على حروف المعجم.

وقد آلمني أنّي لم أجدْ أحداً أَفردَ كتاباً للحديث عن سيرته ومؤلفاته ـ خصوصاً كتابيه: (الأعلام) و(الديوان) ـ مع أن كثيراً من الشعراء المحدثين الذين لا قيمة لشعرهم، كُتبت فيهم وفي شعرهم كتب كثيرة.

أوليس عجيباً أن يستقصي الزركليُّ أعلام أُمَّتهِ، وينتشل الكثير منهم من بحر النسيان، ثم لا يتناوله أحدٌ في كتاب؟ وتوفي ولم تُكتب عنه إلا أسطرٌ قليلة مأجورة في صفحة نعيٍ في (الأهرام)، ولم تنعه في بيروت صحيفة ولم تَرْثِه إذاعة، وفي بيروت تعلَّم وعلَّم، وفيها ظهرتْ الطبعة الأخيرة من (الأعلام) في حياته.

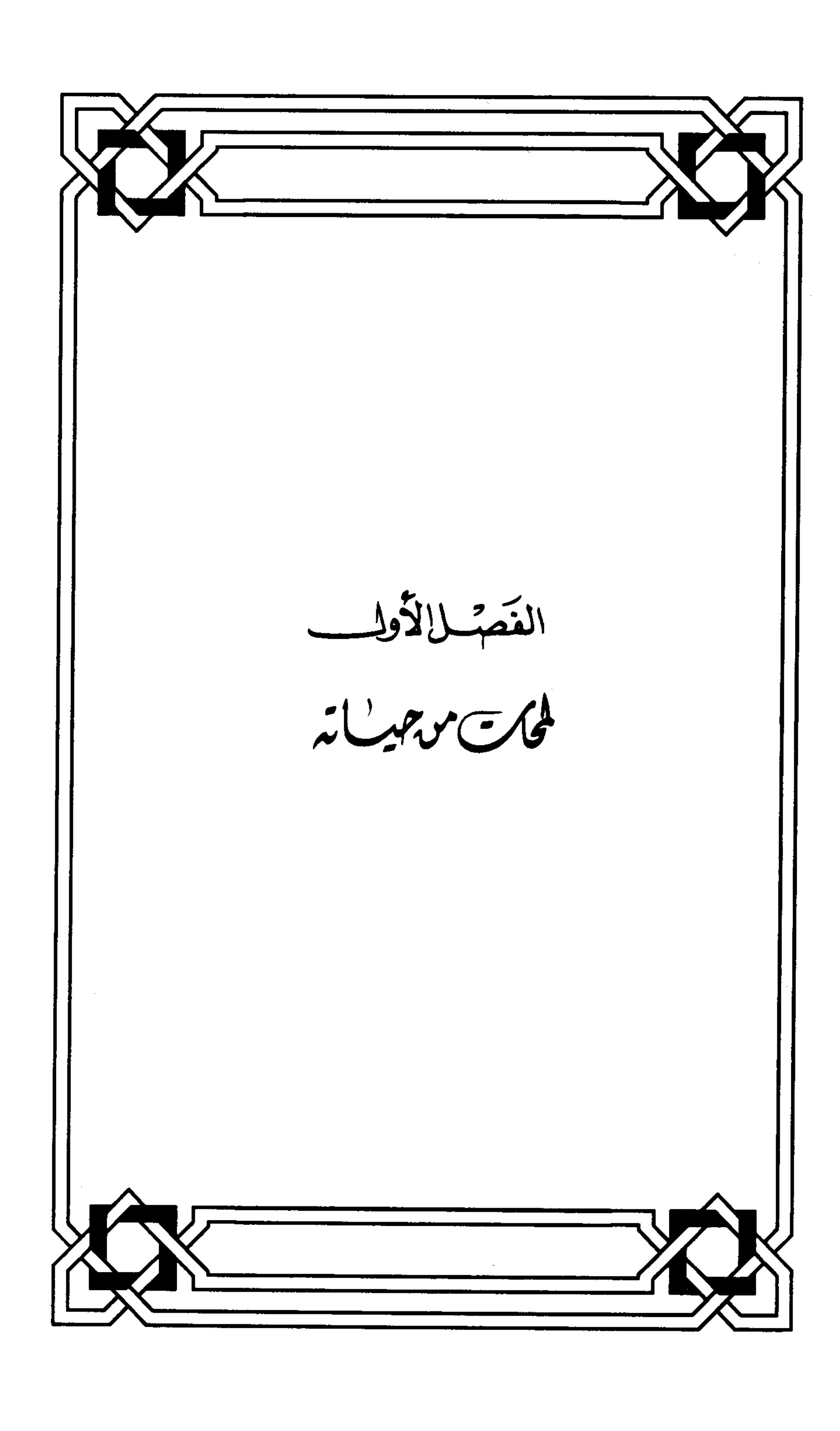
وأودُّ أن أقوم بواجب الشكر إلى علماء كرام استفدت من ملحوظاتهم، وهم: صبحي البصام، وإبراهيم شَبُّوح، وإبراهيم باجس، فإنّه لا يشكر الله من لا يشكر الناس.

كما أزجي الشكر الجزيل للسيدة طريفة خير الدين الزركلي التي أمدتني ببعض المعلومات، وأرسلت إلي ببعض الصور والوثائق.

وأنا أبرأ إلى الله سبحانه من دعوى العصمة، وأستغفره مما طغى به القلم. ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

الاثنين ٢٣ من شوال ١٤٢٢هـ
٧ من كانون الثاني ٢٠٠٢م

أحمد العلاونة



الفصل الأول

لمحات من حياته



الفصل الأول

لمحات من حياته

١ ـ أصله ونسبه:

هو خير الدين بن محمود بن محمد علي بن فارس الزِّرِكْلي الدمشقي، ثم السعودي الجنسية، المصري الوفاة.

وهو كردي الأصل، وقد كشف أستاذنا المفضال أكرم زعيتر ـ رحمه الله ـ عن أصله، ولِمَ كان يوقّع الزركليُّ بعضَ مقالاته بتوقيع (الأزرقيّ) فقال: «وحدث أن وقَّع الزركليُّ بعض مقالاته بتوقيع (الأزرقي) فرحت أتساءل عن سرّ هذا التوقيع، فيرجئ التعليل، ثم استوضحته أخيراً سبب هذا التوقيع النامٌّ على عربية أصيلة، وأنا العليم بأنه كرديُّ الأصل، فأجابني:

«أمي عربية، وأبي كردي، ولكن من أصل عربي، أصل أبي يرجع إلى قبائل من الخوارج (الأزارقة) الذين طاردهم المهلّب بن أبي صُفرة، فنزح بقيةٌ منهم إلى كردستان، واندمجوا في أهلها، ولا عبرة فيما رواه بعض المؤرخين من أنَّ المهلَّب قد أفناهم».

وقال خير الدين أيضاً: «وفي أيام صلاح الدين وبعده، أقبل فريق منهم على دمشق، ونزل بعضهم بالصالحية (حي الأكراد) وعُرف الحي (بالزرقية) والنسبة عند الأتراك هي: (لي) فصار يعرف هؤلاء بالزرقلية أو (الزركلية) والواحد منهم زركلي».

وقصَّ عليَّ خير الدين قصة اكتشافه هذا في بيت وجيه كرديِّ الأصل في حماة، وكيف علم من كرديٍّ ضَيْفٍ أنَّ في كردستان آلافاً من عشائر الأزرقية قد تكرَّدوا. ومن هنا جاء توقيعه (الأزرقي)»[1].

ومما يتصل بهذا قولُ الزركلي في ترجمته بقلمه التي أطلعتني عليها ابنته السيدة طريفة: «أصلي: عربيُّ الأرومة، يتصل نسبي بإسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن السبط الحسين بن علي بن أبي طالب. رحل جدي السيد حسن الأزرقي إلى ماردين، ونادى به أهلُها حاكماً عليهم لشرفه وفضله، ثم انتشر أبناؤه في أنحاء ماردين، وديار بكر وما يليهما، وعُدُّوا من أشراف الأكراد، يؤيد هذا كتاب (نسب العشيرة الزركية (الزركلية)» المطبوع في بطرسبورغ، وطبع أيضاً بالفارسية والتركية في بيروت، وكتاب (الكواكب الدرية) المطبوع في دمشق.

وقوله في موضع آخر: «... من عائلةٍ معروفة في قبائل الأكراد وفي عدادِهم مَنْ يصلها بالنسب النبوي، مؤيداً حُجَّته بأنّ أبا هذه الأسرة كان من منسوبي العرب، قَدِم بلاد الكردِ، فتزوَّجَ منهم وامتزجَ بهم، وهذا أمر لا تُعلمُ حقيقته».

٢ ـ مولده ونشأته:

ولد في بيروت لأبوين دمشقيين ليلة عرفة التاسع من ذي الحجة ١٣٠٩هـ (٧/ ٧/ ١٨٩٣م) وكان لوالده تجارة فيها، ثم انتقلا به عائدَين إلى دمشق وعمره سبع سنين، وتوفي والده سنة ١٣٢٠هـ، ورُبِّـيَ بما أبقاه له والده من ثروة متوسطة، وكان يتنقل بين بيروت ودمشق، إلى أن نشبت الحرب العالمية الأولى فاستقر في دمشق، وافتتح متجراً، وعكف على طلب العلم ليلاً، فقرأ ـ على الطريقة القديمة ـ على بعض مشايخ دمشق، ودرس بها في المدرسة العثمانية،

---

(١) المجلة العربية، العدد الرابع جمادى الأولى ـ جمادى الآخرة ١٣٩٧هـ ـ ٧أيار ١٩٧٧م.

ثم في الكلية العباسية، والكلية العلمانية (لاييك) ببيروت.

٣ـشيوخه:

عرفتُ ستة من شيوخه الذين أخذ عنهم على الطريقة القديمة من خلال ترجمته التي كتبها بخطه، وتفضّلت بها عليَّ ابنته السيدة طريفة، ومن خلال التراجم التي عقدها لهم في (الأعلام)، وذكرتُ منهم محمد كرد علي، وكان الزركلي تأثر به، ولازمه وأفاد منه، ونوّه بفضله عليه وعلى الشام. وهم بحسب وفياتهم:

١ ـ **جمال الدين أو محمد جمال الدين القاسمي**: (١٢٨٣ ـ ١٣٣٢هـ = ١٨٦٦ ـ ١٩١٤م) إمام الشام في عصره علماً بالدين، وتضلّعاً من فنون الأدب، مولده ووفاته بدمشق، كان سلفيَّ العقيدة، لا يقول بالتقليد، انتدبته الحكومة للرحلة وإلقاء الدروس العامة في القرى والبلاد السورية، فأقام في عمله هذا أربع سنوات (١٣٠٨ ـ ١٣٢٢هـ) ثم رحل إلى مصر، وزار المدينة، ولما عاد اتهمه حَسَدَتُه بتأسيس مذهب جديد في الدين، سمّوه (المذهب الجمالي) فقبضت عليه الحكومة (سنة ١٣١٣هـ) وسألته، فرد التهمة، فأُخلي سبيله، واعتذر إليه والي دمشق، فانقطع في منزله للتصنيف وإلقاء الدروس الخاصة والعامة في التفسير وعلوم الشريعة الإسلامية والأدب، له (٨٧) مصنفاً؛ منها عشرة مفقودة كما ذكر ابنه ظافر في كتابه (جمال الدين القاسمي وعصره).

من مؤلفاته: (محاسن التأويل) في تفسير القرآن الكريم ١٧ مجلداً (قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث) و(موعظة المؤمنين) اختصر به إحياء علوم الدين للغزالي و(تعطير الشام في مآثر دمشق الشام) ـ مخطوط، و(إصلاح المساجد من البدع والعوائد)[1].

٢ ـ **طاهر بن صالح الجزائري** (١٢٦٨ ـ ١٣٣٨هـ =١٨٥٢ ـ ١٩٢٠م):

---

(١) الأعلام: ٢/ ١٣٥ بتصرف.

بحّاثة من أكابر العلماء باللغة والأدب في عصره. أصله من الجزائر، ومولده ووفاته في دمشق، كان كَلِفاً باقتناء المخطوطات والبحث عنها، فساعد على إنشاء (دار الكتب الظاهرية) في دمشق، وجمع فيها ما تفرق في الخزائن العامة، وساعد على إنشاء (المكتبة الخالدية) في القدس، وانتقل إلى القاهرة سنة ١٣٢٥هـ، ثم عاد إلى دمشق سنة ١٣٣٨هـ، فكان من أعضاء المجمع العلمي العربي، وعُيِّن مديراً لدار الكتب الظاهرية، وتوفي بعد ثلاثة أشهر.

كان يحسن أكثر اللغات الشرقية كالعبرية والسريانية والحبشية والزواوية والتركية والفارسية، له نحو عشرين مصنفاً منها (الجواهر الكلامية في العقائد الإسلامية) و(بديع التلخيص) في البديع و(تسهيل المجاز إلى فن المعمى والألغاز) و(توجيه النظر إلى علم الأثر) و(التذكرة الظاهرية) مخطوط، وهو من أجل كتبه، وهي مجموعة كبيرة في موضوعات مختلفة[1].

٣ـ **عبد القادر بدران**(١٢٨٠ـ١٣٤٦هـ=١٨٦٣ـ١٩٢٧م): فقيه أُصولي حنبلي، عارف بالأدب والتاريخ، له شعر. ولد في دومة بقرب دمشق، وعاش بدمشق وتوفي فيها، كان سلفيَّ العقيدة، فيه نزعة فلسفية، حسن المحاضرة، كارهاً للمظاهر، قانعاً بالكفاف، لا يُعنى بملبس أو بمأكل، يصبغ لحيته بالحناء، وربما ظهر أثر الصبغ على أطراف عمامته. ضعف بصرُه قبل الكهولة، وفُلِج في أعوامه الأخيرة. وانصرف مدة إلى البحث عما بقي من الآثار في مباني دمشق القديمة، فكان أحياناً يستعير سلماً خشبياً، وينقله بيديه ليقرأ كتابة على جدار، أو اسماً فوق باب، وزار المغرب، فنظم قصيدة همزية يفضل بها مناظر المشرق:

مَنْ قالَ إنَّ الغربَ أحسنُ مَنْظَراً ... فَلَقَدْ رآهُ بِمُقْلَةٍ عَمْيَاءِ

له تصانيف منها (المدخل إلى مذهب الإمام أحمد) و(جنة المناظر في شرح روضة الناظر) لابن قدامة في الأصول و(تهذيب تاريخ ابن عساكر)

---

(١) الأعلام: ٣/ ٢٢١ـ٢٢٢ بتصرف يسير

و(منادمة الأطلال ومسامرة الخيال) و(تسلية الكئيب عن ذكرى حبيب) ديوان شعره[1].

٤ ـ محمد بن عبد الرزاق كردعلي (١٢٩٣ ـ ١٣٧٢هـ=١٨٧٦ ـ ١٩٥٣م)

رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق (مجمع اللغة العربية الآن) ومؤسسه، وصاحب مجلة (المقتبَس) والمؤلفات الكثيرة، وأحد كبار الكتاب، أصله من أكراد السليمانية من أعمال الموصل. مولده في دمشق ووفاته فيها، توفي والده وهو في الثانية عشرة من عمره، فابتدأ حياته الاستقلالية صغيراً، وأقبل على المطالعة والدروس الخاصة، وحفظ أكثر شعر المتنبي ومقامات الحريري، واشتغل بالصحافة، وهاجر إلى القاهرة فأنشأ مجلة (المقتبس) سنة (١٩٠٦م).

وعاد بعد الدستور العثماني سنة (١٩٠٨م) إلى دمشق، فتابع إصدار مجلة (المقتبس) وأضاف إليها باسمها جريدة يومية، كانت قبل الحرب العامة الأولى مسرحاً لأقلام كبار الكتاب، وناوأت دعاة الرجعية، وحاربت جمعية (الاتحاد والترقي) التي كان يستتر وراءها حزب (تركية الفتاة) العامل على تريك العناصر العثمانية، واتهمه أحد ولاة الترك بالتعرض للعائلة السلطانية في إحدى مقالاته، ففر إلى مصر فأوروبة، وعاد مبرَّأً، ثم انقطع إلى المجمع العلمي العربي بعد إنشائه بدمشق سنة (١٩١٩م) فكان عمله فيه بعد ذلك أبرز ما قام به في حياته، وولي وزارة المعارف مرتين في عهد الاحتلال الفرنسي.

من مؤلفاته (خطط الشام)(٦) مجلدات، استخرجه من نحو (٤٠٠) كتاب و(غرائب الغرب) و(دمشق مدينة السحر والشعر) و(غابر الأندلس وحاضرها) و(أمراء البيان) و(كنوز الأجداد) و(الحضارة العربية) و(المعاصرون)[2].

---

(١) الأعلام: ٤/ ٣٧ـ٣٨ بتصرف يسير.

(٢) الأعلام: ٦/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣ بتصرف.

٥ ـ محمد كامل القصاب (١٢٩٠ ـ ١٣٧٣هـ = ١٨٧٣ ـ ١٩٥٤م): عالم من زعماء الحركة الاستقلالية في سورية، سيرته فصل كامل من تاريخ الشام الحديث: العلمي والسياسي، أصله من حمص. انتقل أبوه إلى دمشق، فولد بها، ونشأ منصرِفاً إلى الفُتُوَّة، وعجب أهل حي (العُقيبة) بدمشق، إذ رأوه يدخل مسجدها فجأة، ويحتل غرفة فيه، وينقطع إلى العلم، وأمضى في اعتكافه أعواماً تفقه فيها، وبرع في علوم العربية والقراءات، وخرج إنساناً آخر، وأنشأ (المدرسة الكاملية) وكانت تسمى حيناً بالمدرسة العثمانية.

وعمل في الأعمال الوطنية. ولما احتل الفرنسيون سورية سنة (١٩٢٠م) غادرها، فافتتحوا قائمة أحكام الإعدام باسمه، وولاّه الملك عبد العزيز آل سعود إدارة المعارف في الحجاز، فأقام قليلاً، واستَعْفَى، ثم استقر في حيفا من فلسطين، وأنشأ مدرسة، وألف بالاشتراك مع الشهيد عز الدين القسام كتاب (النقد والبيان)[١] في البدع المنهي عنها والرد على أحد القائلين بها.

ومُحيت أحكامُ الإعدام بدمشق، فعاد إليها، وفترت عزيمته في أعوامه الأخيرة، فعُيِّن رئيساً لجمعية العلماء مدة واستقال، وانزوى في بيته إلى أن توفي[٢].

٦ ـ أبو الخير الميداني: محمد بن محمد بن حسين بن بكري الميداني (١٢٩٢ ـ ١٣٨١هـ = ١٨٧٥ ـ ١٩٦١م): عالم عامل. من أرباب القلوب المتصلة بالله، ولد في حيِّ الميدان بدمشق، وتعلَّم فيها، وتتلمذ للشيخ سليم المسوتي، وعيسى الكردي، ومحمد القطب، وأمين سويد، وعبد الحكيم الأفغاني. . . وغيرهم، وولي تدريس العلوم الإسلامية والعربية سنوات طويلة، وتخرَّج به كثيرون، وكانت أيام تلامذته من أمتع أيام حياتهم لما لمسوه من عظيم خلقه،

---

(١) أُعيد طبعه أخيراً بتحقيق شيخنا الجليل زهير الشاويش.
(٢) الأعلام: ٧/ ١٣؛ رجال من التاريخ، ص٤٠٩

فقد كان صوفياً نقياً، ليِّن العريكة، حلو الشخصية، رضياً، لا يغضب من أحد ولا يغضب أحداً، وكان تأثيره في الناس كبيراً. توفي بدمشق[1].

٤ ـ مرحلة سورية:

عمل الزركلي بعد تعلُّمه مدرِّساً في المدرسة الهاشمية بدمشق (وهي المدرسة الكاملية التي أنشأها الشيخ محمد كامل القصاب)، ودُعي إلى الجندية سنة (١٩١٦م)، فدخلها جندياً نحو ستة أشهر، ثم توارى، واشتد عليه الطلب، وهُدِّد مع مَن توارى بالقتل، فلجأ إلى إرضاء جمال باشا بمدحه بأربع قصائد، فأعفاه من الجندية، وفي ذلك يقول: «فأسأتُ إلى الشعر في مدحي له بأربع قصائد» وانتدب جمالُ باشا الزركليَّ لتأليف كتاب في تراجم الشعراء الذين مدحوه، فعكف على الاشتغال بما سبق له البدء به من جمع التراجم لكتاب (الأعلام) ومطلَ جمال باشا في الكتاب الذي أراده متظاهراً بالعمل على إنجازه[2].

وفي دمشق أصدر صحيفة (الأصمعي) أسبوعية سنة (١٣٣٠هـ = ١٩١٢م) فصادرتها الحكومة العثمانية لنشرها صورة المأمون، وتحت الصورة جملة (الخليفة العربي العباسي).

ثم أنشأ فيها بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى سنة (١٩١٨م) صحيفة (لسان العرب) وذلك لمّا دخل العرب بقيادة الأمير فيصل بن الحسين والبريطانيون دمشق، فصدرت الصحيفة ثلاثة أشهر، وتنازل عنها لشريكه فيها إبراهيم حلمي العمر.

ثم أصدر صحيفة (المفيد) مع يوسف حيدر، استمرَّت حتى دخول الفرنسيين دمشق سنة (١٩٢٠م) وجاهر بعدائه للفرنسيين بشعره وقلمه، ونَعَتَهم

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي، عبقريات، ص١٦٩.

(٢) من ترجمته بقلمه التي أطلعتني عليها ابنته السيدة طريفة، ولم يُثبِتْ القصائد في ديوانه.

بالغدر والخيانة، ودعا إلى مقاومتهم، فحُكِم عليه بالإعدام غيابياً(بتهمة التواطؤ مع العدو بقصد تسهيل مشاريعه).

وترك الشام بعد وقعة ميسلون في (٢٤/ ٧/ ١٩٢٠م)، وغادرها هارباً خائفاً يترقب في القطار إلى حيفا في (٢٦/ ٧/ ١٩٢٠م)، فأقام فيها أسبوعين، لقي فيها الشاعر معروفاً الرصافي، ثم قصد القاهرة بالقطار، فوصلها في (١٠/ ٨/ ١٩٢٠م)، ومما قاله في هروبه:

نذروا دمي حَنَقاً عليَّ وفاتَهُمْ أنَّ الشَّقيَّ بما لقيتُ سعيدُ
اللهُ شاءَ ليَ الحياةَ وحاولوا ما لَمْ يَشَأْ وَلِحُكْمِهِ التَّأْيِيْدُ

٥ ـ مرحلة الحجاز (١٩٢٠ ـ ١٩٢١م):

زار الزركلي الحجاز بدعوة من ملكها يومئذ الشريف الحسين بن علي، وأقام فيها أربعة أشهر، فقد غادر القاهرة إلى الحجاز في (٢٠/ ٩/ ١٩٢٠م) وعاد إليها في (٢٦/ ١/ ١٩٢١م) بعد ضيافة في حضرة الشريف، مجالساً وآملاً منه إنقاذ بلاد الشام من استعمار الفرنسيين والإنكليز، وقد أنشده وناشده بقوله[١]:

يا ابنَ بنتِ النبيِّ أَرْهَقَنا العَسْفُ فجرِّد له الحُسامَ الرَّقِيْقَا
بالّذي شادَ (كَبْكَباً) و(ثَبِيْراً) وأحاطَ الهُداةَ (بيتاً) عتيقا
بالصَّفا بالحَجون، بالرُّكنِ بالكعبةِ لبِّ الصريخَ واقضِ الحقوقا[٢]
فَرَّقُونا قبائلاً وشعوباً وأرى الموتَ ذلك التفريقا
إنَّ في (الشامِ) أمةً لا تُطيقُ الضَّيْمَ تَأْبَى لها العُلا أنْ تُطيقا
أوسَعوها تَعِلَّةً ووعُوْداً وسَقَوْها من الخِداع رَحِيقا
أنذرونا بالموتِ ما أعذبَ الموتَ إذا كان للحياة طَرِيقا
مكروا جُهدَهم بنا وَليَأْبَى المكرُ إلا بِأَهْلِهِ أَنْ يَحِيْقَا
نحنُ في حِنْدِسٍ من الظُّلْمِ داجٍ والظُّبَى تَفْضَحُ الظَّلامَ شُرُوْقَا

---

(١) ديوان الزركلي، ص١٧٣.
(٢) لا يُسأل إلا الله عزَّ وجلّ، وهذا من تجاوزات الشعراء غفر الله لهم. (الناشر)

أَوْرِ فــي (جِلَّــقَ) الكئيبـــةِ زَنْــداً وأقـمْ للطعـان فـي (الشَّـام) سُـوْقـا
أَمْطِـرِ القــومَ بــالصَّــوَاعِــقِ حَتَّــى لا تــرى أَعْيُــنُ العُــداةِ البُــرُوقَــا
إنَّ للبـاطِـلِ اضطـرابـاً علـى الحَـقِّ وعُقْبــاهُ أن يكــونَ زَهُــوْقَــا

وكان الزركلي يرى الملك حسين بن علي أكثر من ساعتين كلَّ ليلة ـ عدا المدة التي ذهب فيها إلى الطائف ـ فعرفه في سروره ورضاه، وعرفه في انقباضه وغضبه، وعرف حياته الخاصة، وكان يراه جامعاً بين المتناقضات، فيقول من قصيدة (جبار زمزم) الديوان ص٧٧[١]:

مَــنْ كــالحسيــنِ إذا نَظَــرْ تَ إلــى الجبــابــرة القُــرُوْمِ
الجــامــعِ المُتَنَــاقضــا تِ مِــنَ الغَــرَائِــزِ والفُهــومِ
الغــافِــلِ اليَقِــظِ، الحَــرِيْـ ـصِ البـاذِلِ، العـاتِـي الـرَّحِيْـمِ
المِــدْرَهِ العَــيِّ، العَصِـ ـيِّ الطَّيِّــعِ، الشَّــرِسِ الحَلِيْـمِ
الصَّــادِقِ الظَّــنِّ الصَّحيـ ـحِ، الفـاسِـدِ الـرأيِ السَّقِيْـمِ
الطَّيِّــبِ النَّفــسِ الأنيـ ـسِ، السيِّـئِ الخُلُـقِ السَّـؤومِ

والملك حسين بن علي في رأي الزركلي مؤمنٌ بمجد العروبة والإسلام، ذو مبادئ صارمة لم يستطع إلا نـتَها ليتمكَّنَ من الحفاظ على عرشه، غيرُ عليم بمداخل السياسة الدولية ومخارجها، صلبٌ معتدٌّ بنفسه، مستقلٌّ في آرائه، عنيدٌ شديدٌ، لا ينقاد بالعنف، ويصعب أن ينقاد باللين.

ورأى الزركلي أن ثورة الشريف حسين على الترك سنة (١٩١٦م) التي كانت بعد خلع الاتحاديين السلطان عبد الحميد الثاني ـ الذي كان الشريف يثني عليه ـ هي شرعية لأسباب قومية ودينية، ولم يكن للحسين مندوحة عن مفاوضة خصوم الترك، وعقد المواثيق معهم لإنقاذ بلاد العرب، وإقامة الدولة العربية

---

(١) وقد نظم هذه القصيدة على أثر خروج الملك حسين من الحجاز ودخول السعوديين فيها، وتاريخ نظم القصيدة ١٢/ ١٠/ ١٩٢٤م.

الكبرى، لتحلَّ محل الدولة العثمانية المضمحلة، وشارك العرب في الحرب العالمية الأولى مع الحلفاء لنيل حرياتهم واستقلالهم، ولكنه مع الأسف لما انتهت الحرب، وجاء وقت الحساب، كانوا في جملة الأسلاب.

فالحسين صدَّق وعود الإنكليز الذين أعلنوا الحرب على ألمانية باسم الحرية والديمقراطية، وظنَّ أن ممثلهم (ماكماهون) لا يمكن أن يخون العهود التي قطعها باسم حكومته[1]، ولم يكن إلى جانبه مشاركة فعَّالة من الجماهير العربية تسديه النصح والمشورة، وقد أتى الزركلي على صفات الحسين[2]:

طـــالَ انقيـــادُك للخُصُــوم	وأنــتَ أدرى بــالخصــومِ
الإنكليـــزُ ومـــا أُرا	كَ بِــأَمْــرِهِــمْ غيــرَ العليــمِ
مـــا فـــي جُمُـــوعِهِـــمُ وإنْ	حَــدَبــوا عليـك سِــوَى غَــريـمِ
ذُؤْبَـــانُ وَادِيْـــكَ الفسيـ	ـــحِ وآفــةُ المُلــكِ العَقِيْــمِ
قــد يستنيــمُ أذاهــمُ	حينــاً، وليــس بمُسْتَنِيــمِ
كــالنَّــار تُــذكيهــا الــريــا	حُ فكيــفَ تُطفــأُ بــالنسيــم

ويقول فيه:

مـــا كـــانَ واللهِ (الحسيـ	ـنُ) الشيـخُ بـالشيـخِ النّـؤومِ
لكــنَّ مَــنْ خــافَ الهــزيـ	ـمَ رَمَتْــهُ صــاعقــةُ الهــزيــمِ
مَــنْ حــادَ عــن شَــرَكِ الغُمــو	مِ اصطـــادَه شَـــرَكُ الغُمـــومِ
طلــبَ الســلامــةَ بــالــوَنَــى	فــإذا بـــهِ غَيْــرُ السليــمِ

ولما أعلن الملك حسين نفسَه خليفةً للمسلمين في الشونة على الحدود بين فلسطين والأردن سنة (١٩٢٤م) ولم يعترف به العالم الإسلامي، قال:

---

(١) ويبدو أن الحسين بن علي اتعظ بما جرى له مع الإنكليز فرفض إعطاء وطن قومي لليهود في فلسطين، فكان نفيه إلى قبرص ثم نهايته المحزنة.

(٢) ديوان الزركلي، ص٧٧.

عجبــاً لمــن طلــب الخِــلا فــةَ، والخــلافــةُ فــي النجــومِ
أيــنَ الخــلافــةُ لا خــلا فــةَ فــي الحــديــثِ ولا القــديــمِ
تلــكَ التــي ذهبــتْ مــع الأ يــامِ قبــلَ ذوي سليــمِ

ومرحلةُ الحجاز التي تحدثت عنها، أفرد لها الزركلي ـ مع قِصَرها كتاباً مستقلاً ـ أسماه: (ما رأيت وما سمعت) سيأتي الحديث عنه في الفصل الثاني.

٦ ـ مرحلة الأردن (١٩٢١ ـ ١٩٢٣م):

أقام الزركليُّ في عمّان عامين ١٩٢١ ـ ١٩٢٣م، وعمل في حكومة شرقي الأردن آنذاك مفتشاً، فرئيساً لديوان رئاسة الحكومة، وفي إبّان عمله هذا، أبلغت السلطات الفرنسية أهله بدمشق أنها قررت إلغاء حكمها عليه بالإعدام، فهبط دمشق، وعاد بعائلته إلى عمان. التي قضى فيها عامين تحولا عنواناً لكتاب في نحو مئتي صفحة، وفيهما يقول:

عــامــانِ فــي عمَّــانَ أيســرُ مِنْهُمَــا حَمْــلُ القيــودِ ومنتفَــى متفظَّــعُ

وكــان شــرقــي الأردن فــي عــام (١٩٢٢م) مــركــزاً لتجمــع الــوطنييــن والاستقلاليين من مختلف بلاد الشام أمثال محمد الشريقي، نبيه العظمة، فؤاد الخطيب، فؤاد بك سليم، رشيد طليع، عادل أرسلان، جودة الركابي.

وكان الزركلي يتّقد وطنية، وعلّق الآمال على الأمير عبد الله بن الحسين، ونظم له قصيدة (في عمان) سنة (١٩٢١م) ومطلعها الديوان ص١٥٣:

تــذكّرتُ والذِّكْــرَى تَفِيْضُ جِرَاحُهــا دمــاً فَجَّــرَتْــهُ مكــةٌ وبِطَــاحُهــا

وفيها يخاطبه شاكياً قلقه وبأسه:

إلامَ أُجِيْــلُ الــرَّأْيَ ألتمــسُ امْــرَءاً تطيــبُ بــهِ نَفْــسٌ إليــه ارتيَــاحُهَــا(١)

---

(١) علم الأعلام، ص١٠٩، وهذا البيت غير موجود في الديوان.

رَبَـأْتُ بنَفْسِـي أَنْ تـذِلَّ ومـا نَبَـتْ	بِيَ الأرضُ، أو ضاقَتْ عليَّ فِساحُها
ولكنَّنِـي أحسنـتُ ظَنِّـي بـأمـةٍ	تعاصَىٰ على أهلِ الصَّلاحِ صَلاحُها

ويقول:

وَلَمْ أرَ قبلَ العُرْبِ في النَّاس أمـةً	سَـوَاءٌ عليهـا خُسْـرُهـا ورَبَـاحُهـا
تُـرَجِّـي فَـلاحـاً والشِّقـاقُ حَلِيْفُهَـا	وكيـفَ يُرجَّـى في الشِّقَاقِ فلاحُهَا
ومـا بَـرَزَتْ فـي عَـالَـمِ الله أُمَّـةٌ	ولا كـانَ إلا بـالـوِفَـاقِ نَجَـاحُهَـا
لَقَـدْ أَوْجَسَ القَلْـبُ المُعَـذَّب خِيْفَـةً	وأَقْلَقَـهُ مَكْنُـونُهـا وصُـرَاحُهـا
وبَـاتَتْ تُنَـاجيني وَسَـاوِسَ أَطلقتْ	أَعِنَّتَهَـا الأيَّـامُ صَعْـبٌ جِمَـاحُهـا

ويخاطبُ الأميرَ عبد الله يستنفر فيه الحمية ليحقق آمال الأمة:

أبـا نـائـفٍ جـازَ الـرُّصـافـةَ فَيْصَـلٌ	وسـوريـةٌ يعلـو لَـدَيْـكَ نُـواحُهـا
فَهَـلْ أنـتَ مُذْكِيْ نَارِهـا فَمُجِيْرُهـا	عَشِـيَّةَ إِذْ رِيْعَتْ وَخِيْـفَ افْتِضَاحُها
وَهَلْ أنتَ مـاحِي عَارِهَـا فَمُثِيْرهـا	وَغَـى كانَ حِـلاً إثمُهَا وجُنـاحُها

وتغيَّرت صورةُ الأمير عند الزركلي فقد تغيَّر قلبه عليه، ولم يترك فرصة للنيل منـه إلا اهتبلها. نجد ذلك في كتابـه (الأعلام) و(عامان في عمان) و(ما رأيت وما سمعت).

وقد واطأه الرأي في الأمير أيضاً جلُّ مَن عمل معه من الاستقلاليين فقد رأوا أنَّ الأمير عبد الله لاين الإنكليز، ولم يستجب للثوار. ولعل مردّ ذلك أن الأمير اتعظ بما جرى لأخيه فيصل في سورية، وإن علق هؤلاء آمالهم عليه في الحرية والاستقلال، فماذا يفعل الأمير وليس عنده إلا بضع مئات من الجنود وقليل من مالٍ يتلقاه من الإنكليز؟.

غير أنَّ هناك سبباً خاصاً في الزركلي حداه إلى النَّيل من الأمير، وهـو اعتقاله في خيمة بعمان، ذلك أن الزركلي هجا رئيس الوزراء مظهر رسلان بقصيدة، وكانت صلة التفاهم بينهما منقطعة، وبلغ أمرها الأمير، وخشي الزركلي

أن يُعاقَب بعد أن حُجز في خيمة ، فاستعان بالأمير عادل أرسلان ، وتدخّل هو والدكتور رضا توفيق في الأمر لدى الأمير ، وتم الاكتفاء بأن يُغادر عمان[١] .

بيد أنّ للزركلي رأياً حسناً في الملك طلال[٢] وابنه الملك حسين ، فيقول في كتابه (شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز) : ١٢/ ١٣٧٤ : «وليت عبد العزيز أدرك حسين بن طلال ملك الأردن اليوم إذاً لقرَّت عينه» .

ونقل المؤرّخ الأردني سليمان الموسى في كتابه (مشاهد وذكريات) ص٢٣ عن الزركلي الذي اجتمع به في بيروت عام ١٩٧٤م أنه تمنى لو أنه لم يكتب كتابه (عامان في عمّان) على الأقل من أجل خاطر الملك الحسين بن طلال .

٧ ـ مرحلة مصر الأولى (١٩٢٣ ـ ١٩٣٠م):

بعد خروج الزركلي من عمّان التجأ إلى القاهرة سنة (١٩٢٣م) ، ولعله أدرك اليأس من العمل السياسي ، فانصرف فيها إلى العمل الثقافي ، وأنشأ في حي الموسكي بالقاهرة (المطبعة العربية) وطبع فيها كتبه : (ما رأيت وما سمعت) و(عامان في عمان) و(ديوان الزركلي) وكلها طبعت سنة ١٩٢٥م ، و(الأعلام) في طبعته الأولى سنة ١٩٢٧م .

ونشر كتباً كثيرة تراثية وحديثة منها كتاب (الورع) للمروزي ، و(ذم الموسوسين والتحذير من الوسوسة) لابن قدامة و(رسائل إخوان الصفا) و(ديوان الزهاوي) .

وثارت سورية على الاحتلال الفرنسي سنة(١٩٢٥) فأذاع الفرنسيون حكماً غيابياً آخر بإعدامه ، وساءت صحته في عمله بالمطبعة ، فباعها سنة (١٩٢٧م) واستجمَّ ثلاث سنوات زار خلالها الحجاز مدعوّاً من الملك عبد العزيز بعد أن تم تسلم مقاليد الحكم فيها .

---

(١) مشافهة مع أستاذنا المؤرخ أكرم زعيتر رحمه الله ، مشاهد وذكريات ، ص٢٣ ـ ٢٤ ؛ أوراق من دفتر الأيام ، ص١٥٣ .

(٢) انظر الأعلام : ٣/ ٢٢٨ .

٨ ـ مرحلة فلسطين (١٩٣٠ ـ ١٩٣٤م):

في عام (١٩٣٠م) ذهب إلى القدس، وأصدر مع زميلين له جريدة (الحياة) يومية سنة (١٩٣١م)، ونقل عائلته إلى القدس، وعَطَّلت السلطاتُ الإنكليزية الصحيفةَ، فشارك في تحرير جريدة (الدفاع) في يافا سنة (١٩٣٤م) مع إبراهيم طوقان. وعبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) وسامي السراج، وكان قد أصدرها من قبل إبراهيم الشَّنْطي.

٩ ـ مرحلة مصر الثانية (١٩٣٤ ـ ١٩٥٧م):

صرف الزركلي ثمانية عشر عاماً من سنة (١٣٥٣ ـ ١٣٧١هـ/ ١٩٣٤ ـ ١٩٥٢م) منقطعاً إلى تمثيل الملك عبد العزيز، وقضاء مصالحه الإدارية والسياسية والخاصة والعامة في مصر. فعين سنة (١٩٣٤م) مستشاراً في (الوكالة العربية السعودية) بالقاهرة التي أصبحت مفوضية، والدولتان ـ السعودية المصرية ـ على غير وفاق، لا تمثيل دبلوماسي ولا اعتراف، وحديث (المحمل) سنة (١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م) على كل لسان، وقبله (مؤتمر النظر في إصلاح الحجاز) سنة (١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م) الذي دعا إليه الملك عبد العزيز، ورفض ملك مصر حضوره، وقبلهما (من يحكم الحجاز؟) عندما بعث الملك عبد العزيز بكتاب إلى ملوك المسلمين والجمعيات الإسلامية لإرسال مندوبين عنهم للنظر في أمر الحجاز، وكان ذلك بعد أن استقر الملك عبد العزيز في مكة سنة (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م) وحاصر جدة (١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م)، وتحسنت العلاقات بينهما سنة (١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م)[١].

وكان الزركلي ويوسف ياسين[٢] المندوبَين السعوديين فيما سبق إنشاء (جامعة الدول العربية) من مداولات، ثم في التوقيع على ميثاقها، ومثّل

---

(١) انظر: شبه الجزيرة: ١/ ٦٦١ ـ ٦٦٩؛ وص١٥٨ من هذا الكتاب.

(٢) انظر ترجمته في الأعلام: ٨/ ٢٥٣؛ وهو الذي استقدم الزركليَّ للعمل مع الملك عبد العزيز آل سعود، وهو سوري من اللاذقية.

السعودية في عدة مؤتمرات دولية، ثم نُدِبَ لإدارة وزارة الخارجية في جدة بالتناوب مع صديقه يوسف ياسين سنة (١٩٤٦م) والعمل في جامعة الدول العربية معاً.

وفي سنة (١٩٥١م) عين وزيراً مفوضاً ومندوباً دائماً للسعودية في جامعة الدول العربية، وبقي مندوباً فيها حتى سنة (١٩٥٧م).

ومما يحسن ذكره هنا، أنَّ الزركلي عُين ـ إضافة إلى عمله في الجامعة العربية ـ مندوباً فوق العادة لدى ملك اليونان. وكتبت إليَّ ابنته السيدة طريفة تقول: «وما زلتُ أذكر ما حدثنا به الوالد عن فتح مكتبة ملك اليونان للوالد، واطلاعه على ما فيها من نفائس الكتب والسماح له بتصوير ما يشاء منها».

وفي هذه المرحلة شعر بالاستقرار، واتجه إلى إغناء كتابه (الأعلام) فصدرت طبعته الثانية في عشرة مجلدات، وأنشأ في دارته بشارع الإخشيد بالروضة من القاهرة خزانة كتب تعدّ من أنفس خزائن الكتب الخاصة وأحفلها بالنوادر، وقد انتقى قسماً منها فنقله إلى بيروت حيث كان يقيم في سنواته الأخيرة. وفي هذه المرحلة تعرف إلى علماء ساعدوه في كتابه الأعلام مادة وخطوطاً منهم: فؤاد سيد، ومحمد رشاد عبد المطلب، وأحمد خيري، وإبراهيم شبُّوح القيرواني، والعلامة عبد العزيز الميمني عندما كان يأتي مصر.

ويلاحَظ أن الزركلي في هذه المرحلة ترك العمل السياسي، وأصبح يميل إلى التروّي والحكمة، ولا يعادي الأنظمة العربية، وأعلمني أستاذنا العلاّمة إبراهيم شبُّوح ـ وكان شاباً يتقد وقتها وطنية وحماسة والثورة التحررية التونسية والجزائرية في أوجهما ـ أن الزركلي نصحه بالتعقل وعدم معاداة الأنظمة العربية، لأنه كلما مرّ زمن زاد الأنظمة مكانة وتثبيتاً، وهذا يجعلنا نؤاخذ بما أسلفنا.

١٠ ـ مرحلة المغرب (١٩٥٧ ـ ١٩٦٣م):

عُيِّن الزركليُّ سفيراً للسعودية بالمغرب، وسبَقَته شهرته إليها، وقويت

علاقته بالملك محمد الخامس، وتعرّف إلى كبار علماء المغرب، مثل: محمد المختار السُّوسي، ومحمد إبراهيم الكَتّاني، ومحمد المنوني، وأبو بكر التطواني.

وفي إبَّان إقامته بالمغرب، جمع فيها مادة محرَّرة لتراجم المغاربة والأندلسيين، وقد فتح له أهل المغرب قلوبهم وخزائن كتبهم معاً.

وشارك في الاحتفال بذكرى جامع القرويين سنة (١٩٦٠م) وألقى فيها قصيدته (من سفح أجياد)[1] مطلعها:

مِنْ سَفْحِ (أَجْيَادَ) وَمِنْ يَثْرِبِ ... تَحِيَّةُ المَشْرِقِ لِلْمَغْرِبِ
عُلْوِيَّةُ النَّفْحَةِ قُدْسِيَّةٌ ... مِنْ طيِّبٍ تُهدَي إلى طَيِّبِ

ويقول:

تحيةُ النَّائي على وَجْدِهِ ... ومَنْ يُقرِّبْهُ الهَوَى يَقْرُبِ
ما مَشْرِقُ الضَّادِ ما غَرْبُهَا ... كلاهُمَا شَرْقٌ على الأَجْنَبِ
مِنْ دَوْحَةٍ أَغْصَانُهَا ظلَّلتْ ... شَعْباً على الأيَّامِ لَمْ يُشْعَبِ

ويقول فيها:

قُلْ لِفَتَى (الجِلباب) في شَرْقِهِ ... أخاكَ في (سِلْهامِه) فَاصْحَبِ[2]
لا تأمَنِ الأَقْرَبَ في بَحْرِهِ ... واسْتَوصِ بالأبْعَدِ في السَّبْسَبِ[3]

١١ ـ مرحلة بيروت (١٩٦٣ ـ ١٩٧٦م):

في عام (١٩٦٣م) دُعي إلى الرياض، فطلب من الملك فيصل بن عبد العزيز إحالته إلى التقاعد، وقال له مازحاً: «أنا أكبر منك يا فيصل، أحيلوني

---

(١) ديوان الزركلي، ص٢٩٥.
(٢) السلهام في المغرب: هو ما يسمى (الجلباب) في المشرق.
(٣) السبسب: المَفازة أو الصحراء.

إلى التقاعد حتى أستريح»، فأجابه الملك فيصل: «سأعتصرك لآخر قطرة فيك» فطلب منه الزركلي الاعتكاف لإنجاز كتاب (شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز) فمُنح إجازة غير محددة، واختار الإقامة في بيروت، وأُعطي شقة مطلّة على البحر، وسيارة وسائق، وطابعة وخادمة لأن أولاده في القاهرة.

وفي هذه المرحلة أنجز كتابه (شبه الجزيرة) ومختصره (الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز) و(الأعلام) الطبعة الثالثة في (١٢) مجلداً، أتبعها بالمستدرك الثاني في مجلد واحد، وهي آخر طبعة له في حياة مؤلفه.

وفي بيروت تعرَّف إلى علماء أفادوه في كتبه مثل: حمد الجاسر الذي قرأ عليه كتابه (شبه الجزيرة)، وظافر القاسمي، وزهير الشاويش الذي أفاده في كتاب الأعلام تراجم وخطوطاً.

وكان خلال إقامته ببيروت يقوم برحلات بين حين وآخر إلى السعودية ودمشق والقاهرة وتركية وإيطالية وسويسرة، وكان يتردد في ربيع كل عام إلى (بيرن) قاعدة البلاد السويسرية لمراجعة الطبيب (شتوكي) لأن عدد ضربات قلبه أصبحت منخفضة (٣٢ دقة في الدقيقة).

وسهر ليلة مرضه أوائل عام (١٩٧٦م) يجمع أوراق ديوانه ويُرتب قصائده، إلى أن أُرهق، فراح في إغماءة، نُقل على أثرها إلى مستشفى الجامعة الأميركية ببيروت، وعُولج بتقوية حركة القلب بآلة كهربائية (بطارية)، وأخذ يستردّ بعد ذلك عافيته شيئاً فشيئاً، وقدم دمشق في شهر آب (١٩٧٦م) فمكث فيها أياماً بضيافة ابن عمه الشاعر سليم الزركلي.

١٢ ـ اشتداد مرضه ووفاته:

في أواخر آب (١٩٧٦م) سافر إلى القاهرة حيث يقيم ابنه الدكتور غيث وأخواته، وأُدخل مستشفى المعادي، ثم نقل بعد ذلك إلى مستشفى الشُّوربجي بالدُّقي حيث توفي يوم الخميس الثالث من ذي الحجة (١٣٩٦هـ/ ٢٥ تشرين الآخر ١٩٧٦م) وصُلِّي عليه يوم الجمعة في مسجد عمر مكرم، وهناك كانت التعزية، ودفن بالقاهرة.

وهكذا طوى الموت أبا غيث خير الدين الزركلي، العلم الذي خلّد الأعلام، وهيهات أن تجود بمثله الأيام.

١٣ ـ ذُرِّيَّتـه:

أعقَبَ الزركلي رحمه الله ابناً وثلاث بنات، أما الابن فهو (غيث) ولد في عمان سنة (١٩٢٢م) وتخرج في كلية الطب بالقصر العيني بجامعة القاهرة سنة (١٩٥٠م)، ومارس الطب بعيادته، ثم التحق بإدارة الشؤون الصحية بجامعة الدول العربية (١٩٦٠ ـ ١٩٨٠م)، وهو مقيم في القاهرة، ومتزوج بابنة الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين.

أما بناته فهُنَّ (لميس) المولودة في دمشق والمتوفاة نحو سنة ١٩٩٢ و(طريفة) المولودة في القاهرة والمتزوجة والمقيمة فيها، وهي من أعلم أبناء الزركلي بحياته وآثاره، و(حياة) المولودة في القدس، والمتزوجة والمقيمة بالقاهرة، وكلّهنَّ ربَّات بيوت، وكلهن تخرَّجْنَ في الكلية الأميركية للبنات بالقاهرة[١].

١٤ ـ حليته وشمائله:

كان رحمه الله أسمر، طوالاً بين الرجال، أميل إلى النحافة، حلو القسمات

أما شمائله، فقد كان دمث الخلق، خفيف الروح، حلو الحديث، بارع النكتة، سريع البديهة، عصبيَّ المزاج، يتبسّط مع أصدقائه ويتفقدهم. وكان كظيم غيظ، ورحيب صدر، لطيفاً شفافاً إلا إذا مست كرامته، فهو عندئذٍ الرعد الهدَّار.

١٥ ـ مكانته:

تقديراً للزركلي اللغوي والأديب الشاعر والمؤرخ، ضمّه المجمع العلمي

---

(١) وكان الزركلي ـ كما ذكرت لي ابنته السيدة طريفة ـ لا يميل إلى اختلاط الذكور مع الإناث في التدريس.

العربي بدمشق (مجمع اللغة العربية الآن) إلى أعضائه سنة (١٩٣٠م)، وكذلك (مجمع اللغة العربية) بالقاهرة سنة (١٩٤٦م)، والمجمع العلمي العراقي سنة (١٩٦٠م). وكان يُحتفَى به في كلّ بلد عربي ينزله.

١٦ ـ رحلاته:

قام الزركلي برحلات إلى إنكلترة والولايات المتحدة الأميركية واليونان وإيطالية وتركية وسويسـرة وتونس، فتيسّـر له في أغلب هذه الرحلات الطواف على أهم خزائن الكتب فيها. ولا شـكَّ أن بعض رحلاتـه هذه وتطوافه سـفيراً ومفوضاً للسعودية، أتاحت له زاداً وافراً من المخطوطات والمطبوعات النادرة، جمعها في خزانـة كتبه. وظهرت فوائدها في (الأعلام) وقد تجشّـم الزركلي المشقة في ذلك، وأسوق مثالاً واحداً للدلالة على ذلك:

قال الزركلي للدكتور بكري شيخ أمين: «وحين أزور تركية وأكون في استانبول أزور (السُّلَيمانية) وأقصد مكتبتها النفيسة العامرة بالمخطوطات، وفي غالب الأحيان أنتقل من السليمانية إلى الجبال، وإلى مناطق لا تزال مجهولة إلى يومنا هذا، وفيها مخطوطات عربية نادرة، لا أظن أن لها نظيراً في العالم، وكثير منها بخط مؤلفيها أنفسهم، وموضوعاتها في التاريخ والأدب والفلسفة والدين.

حدث مرة أن كنت في استانبول أفتّش عن كتاب خاص، فلم أعثر عليه، وفجأة رأيت صديقاً، وسألته عن الكتاب، فقال: إنه موجود في بلدة (مغنيسة) فركبت السيارة إلى مغنيسة، وقضيت إحدى عشرة ساعة في الطريق إليها، ولما زرت مكتبتها رأيتها من أغنى المكتبات، لكنها دون فهارس حديثة، وإنما لها جُذاذات موضوعة في تصرف الباحثين، وهي تملأ اثني عشر درجاً، ورحت استعرض الدرج الأول خلال صيف كامل، وعدت في الصيف التالي لأستعرض مخطوطات الدرج الثاني، وظللت أعاود الزيارة سنة بعد سنة إلى أن اطلعت عليها جميعاً»[١].

---

(١) علم الأعلام، ص١٥٦ ـ ١٥٧.

١٧ ـ خزانة كتبه:

كان الزركلي كَلِفاً بجمع المخطوطات والمطبوعات عارفاً بها، وكان يعتز ويفتخر بمخطوطة (الإعلام بتاريخ الإسلام) لابن قاضي شهبة وهي بخط مؤلفها، وكان يرجع إليها كثيراً في (الأعلام) وخزانة كتبه[١] حافلة بالمخطوطات والمطبوعات[٢]، ولم يبخل على المشتغلين بتحقيق الكتب بإطلاعهم على نوادر مخطوطاته ومساعدتهم في تحقيقها؛ كإهدائه صورة مخطوطة كتاب (البرصان والعرجان والعميان والحولان) للجاحظ إلى الأستاذ عبد السلام هارون[٣]. وكإطلاعه الأستاذ محمود محمد شاكر على مخطوطة عتيقة من كتاب (الغرة)[٤] ومخطوطة كتاب(برنامج شيوخ الرعيني) الذي أحضره من المغرب وقدَّمه للأستاذ إبراهيم شبّوح، وكان اشتراه من سلا من الفقيه أبي بكر التطواني، وقال له: «إذا لم تفكّ رموزه أنت فسيبقى معمّى».

وكانت له خزانتا كتب؛ واحدة في القاهرة، وأخرى في بيروت، وأعلمتني السيدة طريفة أن خزانة كتبه كانت في مكتبه من الدور الثاني من بيتهم، ثم زحفت الكتب إلى بقية غرف الدور الثاني.

أما غرفة مكتبته التي في بيروت فيصفها الدكتور بكري شيخ أمين قائلاً: «لم أرَ للغرفة جدراناً، لأن رفوف الكتب كانت تحجز رؤيتها حتى السقف».

---

(١) علم الأعلام، ص١٤٨.

(٢) انظر فهارس مصادره ومراجعه في الأعلام.

(٣) انظر حديث الأستاذ عبد السلام هارون في ذلك (الصفحة الأولى)، ووصفه المخطوطة، وقد طبع في ٦٨٦ صفحة مع الفهارس عدا المقدمة، ونشرته وزارة الثقافة والإعلام العراقية عام ١٩٨٢م.

(٤) انظر طبقات فحول الشعراء: ١/ ٩٨؛ ومما جاء فيه: (تفضل عليَّ أخونا وأستاذنا خير الدين الزركلي، فأطلعني على مخطوطة عتيقة من كتاب (الغرة) ولم أتيقن من يكون مؤلفه، ولكنه نقل نصوصاً مهمة عن ابن سلام في تراجم الشعراء تطابق كل المطابقة ما في طبقات فحول الشعراء..).

ومن شـدة خوفه على خزانـة كتبـه النادرة هذه، التي صـرف عمره في تجميعها، لم يغادر لبنان إبّان الحرب الأهلية اللبنانية.

وأعلمتني السيدة الفاضلة طريفة الزركلي أن أخاها الدكتور غيث اضطر إلى بيع خزانة كتب أبيه في بيروت بثمن بخس (١٤ألف دولار) إبّان الحرب الأهلية اللبنانية خوفاً من احتراقها أو سرقتها، وفيها جُلُّ مخطوطات الزركلي، وأوراق خاصة بأولاده.

وقبيل وفاته أهدى قسماً كبيراً من خزانة كتبه إلى جامعة الرياض (الملك سعود الآن)، اعترافاً بجميل الدولـة السعودية عليه، وخدمة لطلاب العلم، وأملاً في ثواب الله وأجره[1].

وقد أصدرت عمادة شؤون المكتبات بجامعة الملك سعود (الرياض سابقاً) فهرساً خاصاً طبعته بعنوان (فهرس مكتبة خير الدين الزركلي) فجاء في ٥٤٦ص للقسم العربي المطبوع و١٢٤ص للأجنبي (وكثير منه بالفرنسية) وتتألف كما جاء في المقدمة من ٣٢٠٠ عنوان عربي وإفرنجي، ٥٩ مجلة عربية وإنكليزية، ٣٤٢مخطوطة أصلية، ٣١مخطوطة مصورة، واستثنى الفهرس المخطوطات التي ضُمّت إلى قسم المخطوطات بعمادة شؤون المكتبات.

أما القسم الآخر من خزانة كتبه فقد اشترته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض من السيد أمين دَمَج الكتبي[2].

١٨ ـ الزركلي شاعراً وناثراً ومجاهداً ثائراً:

الزركلي شاعر أصيل، تعلّق بعمود الشعر العربي، والتزم به، وصاغ من الموشحات على منوال الشعراء الأندلسيين، ونحا في شعره منحى المتقدمين من حيث الجزالة والمتانة والأسلوب، وجمع إليه النمط المرغوب عند المتأخرين

---

(١) انظر علم الأعلام، ص١٥٤، ومعجم المطبوعات.

(٢) انظر: علم الأعلام، ص١٥٤؛ ومعجم المطبوعات العربية السعودية طبعة دار اليمامة: ٢/ ٥٦٠ ـ ٥٦١.

من حيث الوزن والوضع، فجاء شعره آيةً في الإجادة، وغاية في الإبداع والبراعة.

ويتحيّر المرء حين يقرأ الزركلي شاعراً، وحين يقرأه ناثراً، فقد كان نتاجه هذا الدينار المجلوّ المصقول الواضح، كتب على أحد وجهيه شعراً، وكتب على وجهه الآخر نثراً، فجاء هذه القطعة الواحدة التي لا يملك القارئ أن يفصل بين وجهيها، كلاهما يتعاون على صياغتها، وكلاهما يهبانها قيمتها.

وللزركلي بيـان آسِـرٌ خَلاّب، يتمثل ذلك في كتبه، سواء أوافقته على أحكامه فيها أم لا، وحسب الزركلي في أعلامه - كما يقول الدكتور شـكري فيصل رحمه الله[1] - إن أسطراً معدودات يكتبها عن صاحبه الذي يترجم له، تأتي مُلمَّة بحياته، محيطة بها، جامعة لأحداثها، مضيئة لجوانبها، من خلال فكر نيّر ناضر، وأسلوب قوي سمحٍ، وعرض منطقي متماسك، وعبارة هي إلى روح الشعر أقرب.

حمل الزركلي هموم أُمته منذ شـبَّ عن الطوق، فنافح بقلمـه وفكره ومشـاعره في سبيل حريتها واسـتقلالها وتغنّى بأمجادها، فملأ عيون الناس، وقلوبهم وعقولهم[2].

وما عرفت سورية شاعراً بَرّاً بوطنه، متعلقاً به على توالي المحن مثل خير الدين الزركلي، الشاعر الذي حمل قيثارة العزاء في ليالي الوطن السود، وغنّاه أبقى الغناء وأنقاه، فما ناب سورية خَطْب ولا ألمَّتْ بالسوريين مُلمّة، إلا مسح بأطراف قلبه مواجعُ المنكوبين، ومدامع المعذَّبين، فهو شاعر الوطن في جهاده ومآسيه، وشعرُه البلسم الشافي لآلام الصابرين وجراحات المجاهدين[3].

والزركلي لم يقتصر في عمله وفي شعره على الجهاد في سبيل حرية بلاده سـورية وحدها، وإنما امتدت آفاق جهاده بعد خروجه منها. وتنقُّله في بـلاد

---

(١) علم الأعلام، ص٨٥.
(٢) سليم الزركلي في علم الأعلام، ص١٧٩.
(٣) أنور العطار في المصدر السابق، ص٢٥٩.

العرب بين أمرائها وملوكها، ففي أي بلد استوثق من روح الوطنية في رجالها مال إليه.

والـزركلي الدفعة الشعرية التي غذَّت نهضة العرب بالقوافي في الربع الأول من القرن العشرين، وكان شعره شعر قضية، وكان يرجو أن يكون نَفْخَ (الصُّور) في اليقظة العربية، أن يكون ثورة، فلما طوّقه اليأس حتى الصمت القاتل صرخ[1]:

فـإنْ أَصْمُـتْ فمـا للعَـيِّ صَمْتِـي	وبعـضُ القـولِ يُحْبَـسُ كـالغمـامِ
فـودعـتُ المُحَبَّـبَ مِـنْ بيـانـي	وآثـرتُ السكـوتَ علـى الكـلامِ

قصائده الوطنية في دمشق أزعجت الانتداب الفرنسي، وأقضَّت مضجعه، لأنها كانت تلهب الجماهير، وتدفعهم إلى الثورة والتحرر، فأصدرت حكمها عليه ـ غيابياً ـ بالإعدام، وفرّ الزركلي إلى فلسطين ومصر فالحجاز، وأمضى سنتين في عمَّان، أوقفت بعدها السلطات الفرنسية تنفيذ حكم الإعدام بحقّه، فاصطحب أسرته إلى عمَّان مؤثراً حياة الاغتراب عن بلده الذي أحبه، على البقاء في جحيم الاحتلال.

ولما نشبت الثورة في سورية على الاحتلال الفرنسي عام (١٩٢٥م) حكم عليه الفرنسيون مرة أخرى بالإعدام لنشاطه في تغذية الثورة ومؤازرة المجاهدين. فلم يرهبه الحكم عليه بالإعدام، ولم تفزعه مصادرة أملاكه، وما أكبر الزركلي وهو يتحدث في هذين البيتين عن الفرنسيين الذين نذروا دمه، وشاؤوا له الموت.

نَـذَرُوْا دَمِـي حَنَقـاً علـيَّ وفـاتَهُـمْ	أنَّ الشَّقِـيَّ بمَـا لقيـتُ سَعِيْـدُ
اللهُ شـاءَ لـي الحيـاةَ وحَـاولـوا	مـا لَـمْ يَشَـأْ وَلِحُكْمِـهِ التَّـأْيِيْـدُ

ومن قصيدته (الفاجعة) التي قالها على أثر وقعة ميسلون ديوانه ص١١٦ :

---

(١) الدكتور شاكر مصطفى في المصدر السابق، ص١٣٠، ولم أجد البيتين في الديوان.

لَهْفي على وَطَنٍ يَجُوسُ خلالَه شُذَّاذُ آفاقٍ، شَرَاذِمُ سُوْدُ
أَبَرَابِرُ السِّنِغَالِ تَسْلُبُ أُمَّتِي وَطَنِي، ولا يَتَصَدَّعُ الجُلْمُودُ
شَرُّ البليَّةِ والبلايا جَمَّةٌ أنْ تستبيحَ حِمَى الكِرَامِ عَبِيْدُ

وقال في قصيدة له (ياراقدين) على أثر زيارة اللجنة الأميركية (كرين ـ كينغ) التي قدمت الشام عام (١٩١٩م) وأخفت تقريرها ديوانه ص٢٤ :

يا راقدينَ على الهوانِ تَأَهَّبُوا وتَجَلْبَبُوا الأدْرَاعَ والأَكْفَانَا
هَذِي بلادُكُمُ تُبَاحُ ودُوْرُكُمْ تُجْتَاحُ فابْغُوْا غَيْرَهَا أَوْطَانَا
مَنْ خَالَ أنَّ المَجْدَ يُدْرَكُ هَيِّنًا فَلْيَنْتَظِرْ بَعْدَ الهَوَانِ هَوَانَا

وقال في قصيدة أخرى ديوانه ص١٢٥ :

فِيْمَ الوَنَىٰ ودِيَارُ الشَّامِ تُقْتَسَمُ أينَ العهودُ الَّتي لَمْ تُرْعَ والذِّمَمُ؟
هَلْ صحَّ مَا قِيْلَ مِنْ عَهْدٍ وَمِنْ عِدَةٍ وَقَدْ رَأَيْتُ حُقُوْقَ العُرْبِ تُهْتَضَمُ
ما بالَ بَغْدَادَ لم تَنْبِسْ بِهَا شَفَةٌ وَمَا لِبَيْرُوْتَ لَمْ يَخْفُقْ بها عَلَمُ

ويقول في كتابه (ما رأيت وما سمعت) ص٣٥ شاكياً من الزعامات العربية : «رحماك اللهم ربي ورأفتك بأمة أسلمت زمامها المقاديرُ إلى زعماء خبطوا بها خَبْطَ عشواء، وقادة كانوا حُطّاب ليل، ونُذُرَ وَيْل، تقحّموا بها مجاهل الأمور على غير هدًى، تسيّرهم الأهواء والنَّزَغات، وتلعب بهم الأغراض والنزعات، طالبُ منصبٍ، وعابدُ درهمٍ، وعاشقُ تاجٍ، لا يبالون من أية الطرق كان لهم ما يبتغون أو يكون».

وقد قدمت الزركلي شاعراً من خلال تعريفي بديوانه في الفصل الثاني من هذا الكتاب[1].

---

(١) ص١٠٤.

ومما يحسن ذكره هنا رأيه بالشعر المُطَلْسَم الموسوم بـ(الحداثة) وهو أنه مَحْضُ سخافة[1].

١٩ ـ الزركلي مؤرخاً:

استوعبت الحديث عن ذلك في تعريفي بكتبه، خاصة (الأعلام) في الفصل الثاني من هذا الكتاب، ومنهجه يختلف بين كتاب وآخر، فالرأي الشخصي هو الغالب على كتبه (عامان في عمان) و(ما رأيت وما سمعت) و(شبه الجزيرة) لذلك قال الدكتور محمد رجب البيومي: «وخير الدين لم يُخفِ ما عاناه أثناء هذه الأزمات الحوالك، فسطّر كتابين ذائعين عن جهاده في الحجاز وفي عمان هما (ما رأيت وما سمعت) و(عامان في عمان) وهذه الصفحات السياسية مذكرات خاصة تمثل وجهة نظر صاحبها فقط، دون أن تكون وحدها التاريخ الحقيقي للأحداث، إذ إن الذي يكتب التاريخ يجب أن يكون بمنأًى عن ملابساته الشخصية، فقد يضطر إلى تبرير أمرٍ بغير وجهته المنطقية، ومذكرات خير الدين ـ كمذكرات السياسيين ـ تمثّل وجهة ذاتية، وتصلح أن تكون شهادة لدى المؤرخ المحايد، يقابلها بشهادات أخرى في الموضوع ذاته، ليخرج من كل ما طالعه بنتائج صحيحة تدعمها الأسانيد، وقد بَعُد الأمد بهذه الحقبة، وظهر فيها من المؤلفات ما يجعل حقائقها من الوضوح، بحيث لا يحتاج إلى بحث جديد»[2].

٢٠ ـ وَلَعُه بالبحث والمطالعة:

لعلَّ أبلغَ وصفٍ في ذلك ما قاله الشيخ حمد الجاسر رحمه الله في مجلة العرب، س١١ ص٦٣١: «ولقد كنت أزوره أثناء إقامته في لبنان، فأعجب من جَلَده وصبره، وقوة تحمُّله لمواصلة البحث والتنقيب، وكثرة المطالعة، وكنت

---

(١) المجلة العربية شعبان ١٣٩٧هـ، ص٤٦.
(٢) النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين: ٣/ ١٣٩.

أراه يحسُّ برغبة وارتياح حينما يجري البحث في موضوع أدبي أو تاريخي، فيقوم مسرعاً، ويتناول أحد الكتب المتعلقة في الموضوع، ويكشف عن المسألة، ولا يـدع غيره يتولّى ذلك، وكان كثيراً ما يتصل بي بواسطة الهاتف ليخبرني عما توصَّل إليه في بحثه عن بعض المسائل التي جرى فيها البحث، وكان كثير الأنس بمن يزوره، وخاصة حينما يبادله المذاكرة في موضوع تاريخي، ويقابل برحابة صدر ما يوجّه إليه من نقد».

٢١ ـ تَقبُّله للنقد:

تقبُّل العالم للنقد دليل على كريم خُلُقه وعلمه وفضله، وبرهان على حبه للوصول إلى الحقيقة، والكتاب المنقود هو الكتاب المقروء، فكثير من الكتب لا يبلغ من الأصالة والقوة ما يجعلها عرضة للنقد، والنقد لا يقلل من الكتاب بل هو متمم له، والخطوات العلمية لا تُسدَّد إلا بالنقد.

وما أحسن قول العلاّمة محمود محمد شاكر رحمه الله وأبلغه: «فإن جودة العلم لا تتكون إلا بالنقد، ولولا النقد لبطل كثيرُ علمٍ، ولاختلط الجهل بالعلم اختلاطاً لا خلاص منه ولا حيلة فيه»[١].

وقول العلامة الشيخ جمال الدين القاسمي رحمه الله: «لَكَلمةُ حقٍّ في الانتقادِ على أخلاقنـا خيرٌ عند العقلاء من ألـف كلمة في إطرائنـا، إذ تلـك تعرّفنـا عيوبنا فنتجنَّبها، وهذه تنسيناها فندأبُ عليها»[٢].

ومن هذا المبدأ دعـا الزركلي إلى نقد كتابه قائلاً: «في تاريخ العرب، ولا سـيما كتب التراجم تحريف وتعارض، ليس من السهل تمييز صحيحه من عليله، يعرف هذا مَنْ طالع بعض ما كُتب فيه، أو مُني بتحقيق بحث من أبحاثه، فاختلاف المؤرخين، وتضارب رواياتهم، وتَعدُّد نَـزَعاتهم، واختلاف النُّسَخ

---

(١) المتنبي، ص٤٦٧.
(٢) كتاب (جمال الدين القاسمي) لابنه ظافر، ص٣٦٧.

من الكتاب الواحد. وكثرة الأغلاط في المطبوع والمخطوط، وتداخل أخبار القوم بعضها ببعض، وفقدان العدد الأوفر من مصنّفات الأقدمين، ومَنْع بعض الفرق كتبها أن يطلعَ عليها غير أبنائها ـ ذلك ـ وما هو باليسير ـ كافٍ لأن يجعل تأليف كتاب في (الأعلام) عملاً شاقاً، تكتنفه المصاعب، وتعترضه المزالق.

أما وقد مضيت في ما شرعت فيه، فما عليّ لتكون الخدمة خالصة للعلم إلا أن ألتمس ممن حذقوا التاريخ، ومازوا لُبابه من قشوره، وكان لهم من الغَيْرة عليه ما يحفزهم إلى الأخذ بيده، أن يتناولوا الكتاب منعمين مفضّلين بنقد خطأه، وعَدل عِوَجه، وبيان ما يبدو لهم من مواطن ضعفه، وقديماً قال إبراهيم الصولي: **المتصفِّح للكتاب أبصرُ بمواقع الخلل فيه من منشئه»**[1].

وقد طبّقَ الزركلي هذا عملياً على كتابه (الأعلام)[2]، وكتب في مقدمة الطبعة الثانية منه: «وكنت على نية أن أجعل مكان الشكر آخر الكتاب، ثم رأيت أن أتعجّل فأنوّه بمؤازرة أعلام من فضلاء المعاصرين، كان أسبقهم زمناً الأستاذ محمد كردعلي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق، رجعت إليه أيام اشتغالي بجمع مادة الكتاب ناشئاً، فأخذ بيدي يرشدني إلى صحاح المصادر، وفتح لي خزانة كتبه، آخذ عنها ومنها ما أنا في حاجة إليه، كما فعل من بعدُ بمصر الصديقان الجليلان رحمهما الله وإياه: أحمد تيمور (باشا) وأحمد زكي (باشا) وكان أولهما من أسرع مَن بادر بُعيد صدور الطبعة الأولى إلى كتابة ما عنّ له إصلاحه في الثانية.

وتلقيت من المستشرق المحقق (كرنكو) المتقدم ذكره ثلاث صفحات في نقد تلك الطبعة، استفدت من أكثرها.

وأهدى إلي الصديق الوفي السيد أحمد عبيد (أحد أصحاب المكتبة العربية في دمشق) وهو من أعلم الناس اليوم بمخطوط الكتب ومطبوعها،

---

(١) الأعلام: ١/ ٢١ـ ٢٢.
(٢) انظر تعريفي به في الفصل الثاني من هذا الكتاب ص(٤١).

نسختَه الخاصة من الطبعة الأولى، وكانت بين يديه نحو عشرين عاماً يعلّق عليها بما يقع له من مخطوط ومطبوع، وغريب وطريف، وأضاف إلى هذا أن أتاح لي مطالعة مجموعة مما ظفر به من قديم المخطوطات ونادرها، وحمل عني عبء استخراج (الخطوط) المكنوزة في خزائن دمشق ومكتباتها، وتولى قراءة هذه الطبعـة في فترة اشتغالي بإعداد المسـتدرك، فنبّه إلى ما وقف عليه من خطأ الطبع، وأضاف تعليقات مفيدة، أُثبتها في المستدرك منسوبة إليه.

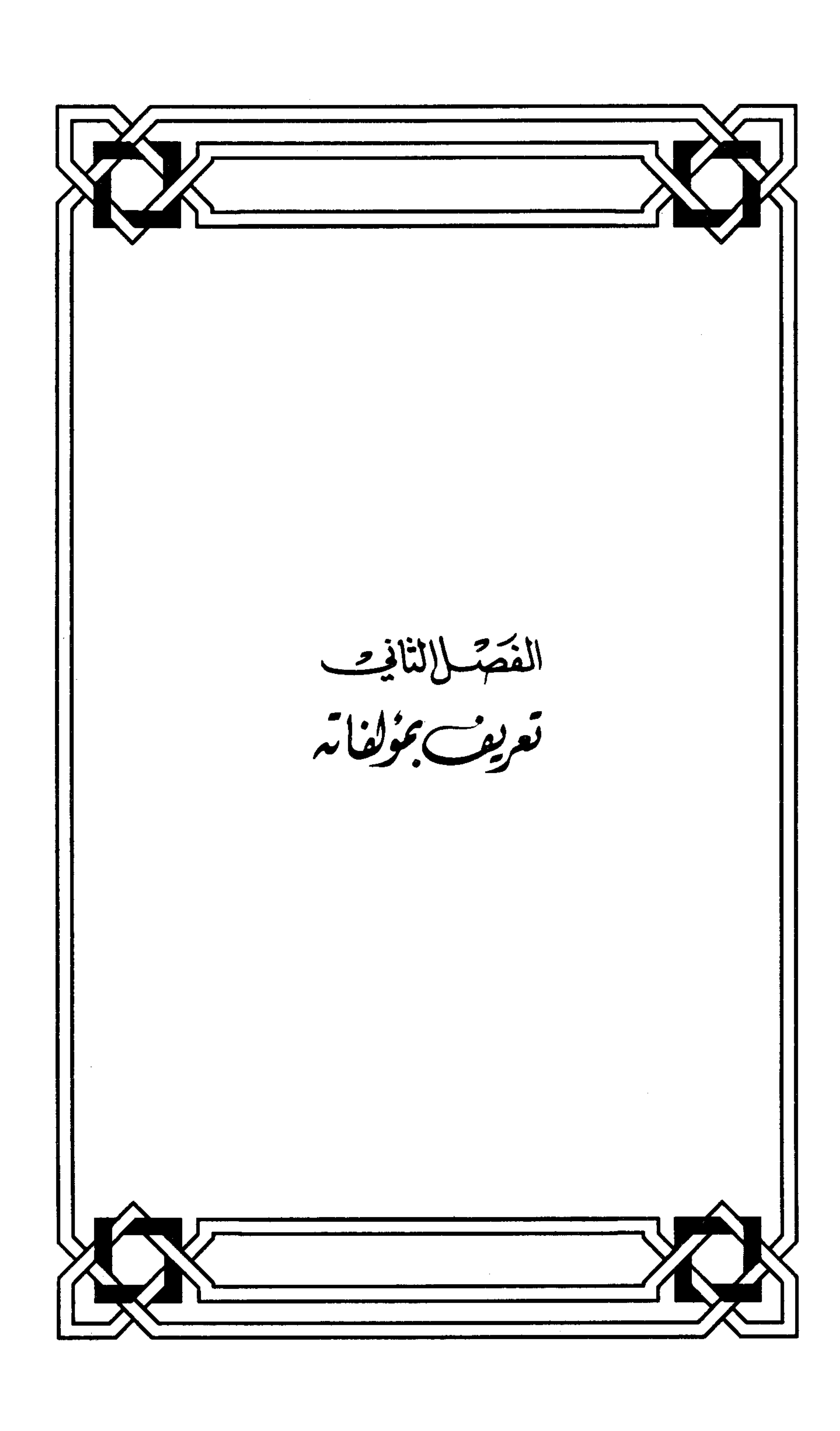
وتفضل السيد الوجيه أحمد خيري فأرسل إليّ من (روضته) في إقليم البحيرة بمصر تعليقات كان أثبتها على نسخته أيضاً من الطبعة الأولى جديرة بالنظر.

وكان لي من مكتبة عالم الحجاز المعاصر بجدة الشيخ محمد حسين نصيف، ومن علمه بالمتأخرين من رجال الحرمين معين لا ينضب. .

ونشر الباحث (محمد غسان) في المجلد الثاني عشر من مجلة (الرسالة) نقداً للطبعة الأولى أجاد فيه وأنصف)[1].

* * *

(١) المقدمة، ص١٧ـ١٨.



الفصل الثاني
تعريف بمؤلفاته



الفصل الثاني

تعريف بمؤلفاته

مسرد ألفبائي لمؤلفات الزركلي المطبوعة والمخطوطة

أ ـ مؤلفاته المطبوعة:

١ ـ الأعلام.

٢ ـ ديوان الزركلي.

٣ ـ شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز.

٤ ـ عامان في عمان (الجزء الأول).

٥ ـ ما رأيت وما سمعت.

٦ ـ الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز.

ب ـ مؤلفاته المخطوطة[1]:

١ ـ أدب البداة: شعرهم، ولغتهم، وشعراؤهم، وأبحاث تتعلق بمذاهبهم في اللغة والشعر. نحو (١٠٠) صفحة.

٢ ـ الأمثال.

٣ ـ حكمة الشعر وسحر البيان، مختارات من المنظوم والمنثور، مجلد في نحو (٢٠٠) صفحة.

٤ ـ دروس الإنشاء. ثلاثة أجزاء لتعليم الإنشاء في المدارس.

---

(١) يجهل مصيرها.

٥ ـ شعراء العرب في القرن الرابع عشر. نحو (٤٠٠) صفحة.

٦ ـ صفحة مجهولة من تاريخ سورية في العهد الفيصلي.

٧ ـ الصيِّب المنثال في ما جاء على وِزان أفعل من الأمثال، مجلد في نحو (٣٠٠) صفحة.

٨ ـ عامان في عمان (الجزء الثاني).

٩ ـ القواعد العربية. جزء صغير في تسهيل تعليم القواعد للشبان المتعلمين في المدارس الأجنبية ـ وتدخل فيها التركية ـ.

١٠ ـ معجم ما ليس في المعاجم.

١١ ـ الملك عبد العزيز في ذمة التاريخ.

١٢ ـ الملك حسين: نسبه، وترجمته، وأخلاقه، وعاداته، ومجمل تاريخ حياته. نحو (١٠٠) صفحة، اعتمد فيه على مشاهداته وتنقيبه.

* * *

١ ـ الأعلام

قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين

دار العلم للملايين ـ بيروت، ١٩٨٤م،
٨ مجلدات ٢٧٤١ صفحة ٢٢×٢٩سم

مقدّمة عن كتب التراجم:

إنَّ الأمم الواعية هي التي تعرف لرجالها حقّهم، ولأعلامها مَنزِلَتهم، فتسجّل آثارهم، وتخلّد تاريخهم اعترافاً بفضلهم أولاً، ولِتَنْسُجَ الأجيالُ القادمة على مِنْوَالهم ثانياً، ولقد بلغت أمتنا في هذا الجانب مبلغاً لم تُسْبَق إليه، ولم تُزحم عليه، فمنذ فجر تاريخنا وهي تسجل تاريخ أعلامها وأبطالها، تعي ذلك ذاكرتُها، ويتناقله الرواة مشافهةً حتى جاء عصر التدوين، فبرعت في تدوين السير والتراجم، وتفنّنت فيها تفنناً[١].

فمن المؤرخين من يذكر في أحداث كل سنة من توفي فيها من الأعلام، كابن الأثير (في الكامل).

ومنهم من يأتي بالوفيات والتراجم بعد أحداث كل سنة من غير ترتيب كما صنع ابن كثير في (البداية والنهاية).

ومنهم من يرتبها على حروف المعجم كما صنع ابن الجوزي في المنتظم، والذهبي في (تاريخ الإسلام) وابن قاضي شهبة في (الإعلام بتاريخ الإسلام) وتاريخه (تاريخ ابن قاضي شهبة) الذي ذيَّل به على كتب من تقدموه من مؤرخي الشام: كالذهبي، والبِرْزالي وابن كثير وغيرهم، وتُعدّ هذه الكتب من كتب التراجم العامة المرتبة على السنين.

---

(١) شيخنا العلاّمة الدكتور عبد العظيم الديب حفظه الله في مقدمته لكتابي (محمود الطناحي)، ص٥.

ومنهم من يؤرخ لزمن معين، كما صنع ابن حجر في (الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة) والسخاوي في (الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع).

ومنهم من يترجم لأهل بلد معين، كما صنع ابن عساكر في (تاريخ مدينة دمشق) والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد) والفاسي في (العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين) والحُميدي في (جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس).

ومنهم من يترجم لطبقة خاصة، أو يترجم للأئمة في فن من الفنون، كما فعل ابن حجر في (الإصابة في تمييز الصحابة)، وابن حبان في (الثقات) من التابعين وأتباع التابعين، والسُّبكي وابن قاضي شُهبَة في (طبقات الشافعية) وابن فرحون في (الديباج المُذهَب) والذهبي في (طبقات القراء) ومحسن الأمين في (أعيان الشيعة) والسُّلَمي في (طبقات الصوفية) وأبو بكر الأنباري في (نزهة الألباء في طبقات الأدباء) والسيوطي في (بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة) وابن سلاّم الجمحي في (طبقات فحول الشعراء) وابن جُلْجُل الأندلسي في (طبقات الأطباء والحكماء) ووكيع في (أخبار القضاة) وابن العمراني في (الأنباء في تاريخ الخلفاء) والصابي في (تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء) وعمر رضا كحالة في (أعلام النساء)..

ومنهم من يترجم تراجم عامة مرتبة على الأسماء، كما فعل ابن خلكان في (وفيات الأعيان) والصفدي في (الوافي بالوفيات).

ومنهم من يفرد كتباً تُعنى بالعظماء والمصلحين، أو القادة الفاتحين أو العلماء النابهين، كما فعل ابن الجوزي في (سيرة عمر بن الخطاب) والمديني في (سيرة ابن طولون).

وأُلِّفت كتب قصد بها مؤلفوها إلى إحصاء واستقصاء المؤلفات الخاصة بعلم من العلوم أو فن من الفنون، أو استقصاء المؤلفات بشكل عام مع التعرُّض لتعريفٍ مقتضب لتلك المؤلفات، أو لتعريفٍ بها وبمؤلفيها في آن. كما فعل حاجي خليفة في (كشف الظنون).

وأُلِّفت موسوعات أو جمهرة قليلة أو نادرة نَهَدَتْ لمهمّة جريئة هي التصدي لتقديم جُماعٍ من كل ما ذكرتُ من اختصاصات، وفي طليعتها (الأعلام) الذي جمع فيه مؤلفه نحو خمسة عشر ألف ترجمة، لأشهر الرجال والنساء من العرب ومن المستعربين (الذين دخلوا بين العرب وانتموا إليهم، وإن لم يكونوا من أصل عربي صميم) والمستشرقين (وهم المتخصصون في الدراسات الشرقية: العربية والفارسية والتركية والهندية من الأوروبيين)، وقد ترجم لهم الزركلي لما قدَّمه بعضُهم من خدمة للعربية، وخلّفوا آثاراً فيها: تأليفاً بها كـ: دي ساسي (أنطون سلفستر) وفلوجل (جستاف ليبريخت) أو نشراً لبعض مخطوطاتها كـ: دي خويّه (ميخيل يوهنّا) وفستنفلد (هنري فردينند).

وتوسّع قليلاً فأضاف إلى هؤلاء طائفة ممن كتبوا في لغاتهم عن العرب وقد درسوا العربية، وإن لم يظهر لهم أثر فيها، كآرْنُلد (توماس) وجورج سيل، وكايتاني.

بدأ الزركلي العمل في (الأعلام) عام ١٩١٢م حتى وفاته، ولم ينفض يده منه طيلة ستين عاماً.

سبب تأليف الكتاب:

بيّن الزركلي ما حداه إلى تأليف الأعلام في مقدمة الطبعة الأولى، أنقله لوجازته وبلاغته، يقول: «.. في الخزانة العربية فراغ، وفي أنفُس قرّائها حاجة، وللعصر اقتضاء. يعوز الخزانة العربية كتاب يضم شتات ما فيها من كتب التراجم، مخطوطها ومطبوعها، قديمها وحديثها.

ويتطلّب قرّاؤها كتاباً يعرّفهم بمن اجتازوا مرحلة الحياة، وخلّفوا أثراً يذكرهم، أو خبراً يروى عنهم، من أصول الأمة العربية وفروعها.

ويقتضي العصر الذي نعيش فيه أن يكون لنا كتب يجتزئ بها المعجل منها

عن مطولات السير وضخام أسفارها، وقد حاولت بهذا الكتاب أن أملأ جانباً صغيراً من ذلك الفراغ، وأمضي بعض تلك الحاجة، وأقوم بشيء مما يقتضيه العصر، وعساي أن أُوَفَّق».

منهاج الكتاب:

المنهاج الذي انتهجه الزركلي في كَتْب التراجم، حاولت إجماله بما يلي:

عنوان الترجمة، وتاريخ الولادة والوفاة:

كان الزركلي يبتدئ الترجمة بذكر شهرة المترجم، ويضعها عنواناً للترجمة باللون الأسود مثل: الطبري، الزمخشري، ابن سيده، أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، ابن سينا.. وإزاء العنوان يذكر بين قوسين تاريخ الولادة والوفاة بالتاريخ الهجري، وما يقابلهما بالتاريخ الميلادي[1]. وهو القسم الأول من الترجمة، وهو مَزِيَّة لم تتوفر في كتاب قبله[2] وقد لقي الزركلي عناءً في التوفيق بين التأريخين الهجري والميلادي، لإغفال أكثر المؤرخين ذكر الشهر الذي ولد فيه صاحب الترجمة أو توفي.

فيقول الزركلي في المقدمة ١/ ٢١: «كنت أقف أمام المولود أو المتوفى سنة ٤٣٥هـ (مثلاً) فأرى سنة ١٠٤٣هـ الميلادية تنتهي في جمادى الأولى، وهو الشهر الخامس من السنة، فلا أدري أكانت الولادة أو الوفاة في أول السنة فتطابقها سنة ١٠٤٣م، أم في آخرها فتوافقها سنة ١٠٤٤؟، ولم يكن أمامي بعد إطالة البحث عن الشهر غير الترجيح مع فقد المرجِّح، ولم أغنَ عن الإشارة إلى ذلك هنا مخافة أن أُتَّهم بارتجال التاريخ في عصر كثر مرتجلوه».

---

(١) كان هذا في الطبعات التي طبعت زمن المؤلف، أما في طبعة دار العلم للملايين فقد وضع تاريخ الولادة والوفاة تحت العنوان.

(٢) إلا ما رأيته عند ابن حيّان القرطبي. انظر مقدمة الدكتور محمود علي مكي لكتاب (المقتبس) لابن حيان القرطبي، ص٨٦.

ذكر اسم المترجَم كاملاً ونسبه، ولقبه وكنيته:

ثم يذكر اسم المترجم كاملاً، ويذكر لقبه وكنيته (خاصة في تراجم القدماء)، وهو يذكر نسبة المترجم إلى القبيلة وفروعها، ويسلسل ذلك من الأعم إلى الأخص نحو قوله: (الخزرجي الأنصاري)[1] أو(الأوسي الأنصاري)[2] أو (السعدي التميمي)[3] أو (العَتَكي الأزْدي)[4].

ثم يذكر المدينة أو البلد الذي ينتسب إليه المترجم نحو قوله: (الصَّفُّوري البُوريني)[5] أو (البَلْخي) نسبة إلى بلخ، أو (الكرمي) نسبة إلى طولكرم بفلسطين، أو (البعْلي) و(البَعْلَبَكِّي) نسبة إلى بعلبك بلبنان.

ويذكر النسبة إلى المذهب نحو (الحنفي) أو (المالكي) أو (الشافعي) أو (الحنبلي) أو الفرقة نحو (الإباضي، الشيعي، المعتزلي..).

ثم ينسب بعد ذلك إلى الحرفة مثل قوله: (الخياط) (الزيات) و(السراج).

ويُتْبعُ نسبة المترجم بما عُرف به من شهرة، ويسبق ذلك في الأعم بكلمة (المعروف) أو (يعرف) أو (المشهور) مثل (ابن قاضي شُهبَة) أو (ابن اللَّبُّودي) أو (الكردودي).

ذكر مكان الولادة والوفاة، والنشأة والتعلم، وأعمال المترجَم:

ثم يمضي فيذكر مكان الولادة والوفاة، ونشأة المترجم، وتعلُّمه والمجال الذي اختص به وأبدع فيه، وأهم أعماله التي تولاَّها، ويبيّن منزلته، ويذكر أهم

---

(١) من ذلك الكثير ممن هو صحابي من الأنصار، مثل: البراء بن مَعْرور الخزرجي الأنصاري: ٢/ ٤٧؛ وسعد بن معاذ الأوسي الأنصاري: ٣/ ٨٨.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) السُلَيْك بن السُلَكَة السعدي التميمي، الفاتك العدّاء الشاعر: ٣/ ١١٥.

(٤) شعبة بن الحجاج، من أئمة رجال الحديث: ٣/ ١٦٤.

(٥) الحسن بن حمد، المؤرخ الأديب.. ولد في صفورية (من بلاد الأردن) نسبته إلى بورين (من بلاد نابلس): ٢/ ٢١٩.

الأحداث التي حدثت في عهد المترجم سواء أكان خليفة أم ملكاً أم أميراً . . ، ويذكر أهم مؤلفات المترجَم إن كان له مؤلفات، ويثبت الكتب التي ألفت في المترجم، ثم يُحيل على المراجع، ويضفي على الترجمة تعليقاته النفيسة، واستدراكاته البارعة، وإضافاته المكمِّلة، مع تصحيحات إذا وجد وهماً أو غلطاً، وهذا هو المنهج العام في الترجمة.

تفسيره معاني أسماء الأعلام الغريبة:

وهو يفسّر أو يبيّن معاني أسماء الأعلام الغريبة، فيقول في لفظ أطَّفَيِّش: محمد بن يوسف ٧/ ١٥٦: «أطفيش: لفظ بربري مركب تركيباً مزجياً من ثلاث كلمات؛ الأولى (أَطَّفْ) بفتح الهمزة وتشديد الطاء المفتوحة، وسكون الفاء، ومعناها ببعض لغات البربر (امسك) والثانية (أيَّا) بفتح الهمزة وتشديد الياء ومعناها (أقبل ـ تعال) والثالثة (أش) ومعناها (كل) فمجموع الجملة (أطف أيا أش) وترجمتها (امسك، تعال، كل) يقال: إن أحد أسلاف صاحب الترجمة لقّب به لمناداته صديقاً له يدعوه إلى الطعام».

ويفسّر البُنْدار: محمد بن جعفر ٦/ ٧١: (والبندار، التاجر الذي يبيع بالجملة).

ويبين معنى (الشَّمَقْمَق) مروان بن محمد أبو الشمقمق الشاعر الهجَّاء ٧/ ٢٠٩: «أقول الشمقمق في اللغة الطويل أو النشيط، وفي التركية (شمقمق) بكسر الشين وفتح الميمين: مدلّل».

ويقول معلّقاً على إحالة جَلَبي = شلبي ٢/ ١٣٣: «تلفظ بين الجيم والشين، أقرب إلى الشين، وهي كلمة تركية معناها: لطيف أو مهذب. وفي اصطلاح أهل العراق: السيد. وقد رأيت أن أكتبها بالشين، وهي كشركس ـ جركس، وشاويش ـ جاويش».

وينقل كلاماً مطولاً لبيان معنى متجنوش. المهدي مَتْجِنوش ٧/ ١١٤ ـ ١١٥ خلاصته: أن جدوده بقوا في غرناطة بعد سقوطها لعدم مقدرتهم على

الهجرة، فأُجبروا على اعتناق النصرانية، إلا أن الكنيسة لما رأتهم لم يخلصوا في مسيحيتهم صدر الأمر بطردهم، وأُمر أصحاب السفن التي تحملهم بتفريقهم في عدة جهات، فوقعت منهم طوائف ببلاد المغرب، وأنزلتهم الحكومة السعدية برباط الفتح، حيث كان إذ ذاك فارغاً خَرِباً، فبنوا به الديار والحمامات والفنادق والأسواق، وغرسوا خارجه الجنات والبساتين، وأظهروا دينهم الذي كانوا مكرهين على تركه، إلا أن أسماءهم بقيت إسبانية، وبوجود تلك الألقاب الإسبانية بقيت تلك البيوتات الأندلسية محفوظة ومنها بيت أولاد متجنوش رهط صاحب الترجمة، ولقبهم إسباني، ولعل معناه (المسكين).

ويفسر لفظة الكِلارجي: يوسف بن يوسف ٨/ ٢٦٠: «والكلارجي كلمة تركية معناه (حافظ مخزن التموين)».

منهجه في كتابة الأسماء الأجنبية بالعربية:

ومن منهج الزركلي أنه حرص على أن يكتب بالعربية الأسماء الأجنبية، كما ينطق بها أهلها على الأغلب، وذلّل بتعدُّد الإحالة إليها في مظان وجودها، عقبة اختلاف النطق بين أمة وأخرى في الاسم الواحد، فهناك مثلاً (Ignace) يلفظ بالفرنسية (إينْياس) وبالألمانية (إغناتس Ignaz) وكان المستشرق المجري (غولدتسيهر) يكتب اسمه بالعربية (إجناس كولدصهر) وكتبه غيره (إغناطيوس) و(إيغنار) وهو بالإيطالية (Ignazion) ويلفظه الإيطاليون (إينْياتْسْيُو).

وقد يكون المسمّى إنكليزياً: (Charles) فيلفظه الإنكليز (تشارْلِسْ) ويجعله من يأخذه عن الفرنسية (شارل) وعن الإسبانية (كارْلوس) وعن الإيطالية (كارْلو) وعن الألمانية (كارل) أو يكون ألمانياً (Wilhelm) فيلفظه بعض الألمان (ڤلهلْم) وكثير منهم (ڤيللم) ويكتبه السويديون (Vilhelm) بفاء واحدة وينطقون الهاء، ويحوّله الفرنسيون إلى غيُّوم (Guillaume) فينقل عنهم إلى العربية (غليوم) ويقابله عند الإنكليز (William) يكتبه النقلة إلى العربية وليم وويليام ووليام.

ومن كان على هذا النمط جعله في أشهر اسمَيْه أو لَقَبَيْه، وأحال إليه حيث

يقع اسـمه الآخر أو لقبـه إلى آخر ما هنالك، وهو غيـر قليل[١].

وضع عدة تراجم تحت رسم واحد:

وهو قد يضع عدة تراجم تحت رسم واحد، وأكثر ما يكون ذلك في تراجم الجدود الجاهليين كـ(أسلم) حيث ترجم لثلاثة جدود بهذا الرسم ١/ ٣٠٥: أسلم بن تَدْول، من بني عذرة، وأسلم بن الحاف من قضاعة، وأسلم بن عَبَابة، من بني عك، ومُرَّة ٧/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥ حيث ترجم لستة جدود جاهليين، وانظر تيم: ٢/ ٩٥؛ وسعد بن عوف: ٣/ ٨٦؛ وصُباح: ٣/ ١٩٩؛ وعبيد: ٤/ ١٨٩؛ وعرين: ٤/ ٢٢٨؛ وعُرينة: ٤/ ٢٢٨؛ ومازن: ٥/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦؛ حيث ترجم لاثني عشر جداً جاهلياً، ويربوع: ٨/ ١٧٨ ـ ١٧٩؛ ويريم: ٨/ ١٧٩.

وفي رسـم مدرار: جد الأمراء (بني مدرار) أصحاب (سجلماسة) وما والاها في المغرب الأقصى، المتوفى نحو سنة (٢٢٠هـ) ترجم الزركلي لمن تولى إمارتها وهم خمسة عشر أميراً، رتبهم على تسلسل توليهم الإمارة الأول فالثاني. . أولهم أبو القاسم بن سمكو، وثانيهم إلياس بن أبي القاسم بن سمكو.

ذكره الخلاف في اسم المترجم، وكنيته، وولادته، ووفاته، ونسبة الكتب، مع اتخاذ مواقف الحسم والترجيح:

والـزركلي قـد يذكـر مـا يكـون مـن خـلاف فـي اسـم المتـرجم[٢]، أو

---

(١) انظر الأعلام: ١/ ١١٤ـ١١٥.

(٢) من ذلك ما ذكره الزركلي في ترجمة الراضي بالله محمد بن المقتدر بالله جعفر: ٦/ ٧١: «المؤرخون مختلفون في اسمه (أحمد أو محمد) وكنت قد رجحت الأول (أحمد) تبعاً لابن الأثير وابن كثير وابن أنجب وآخرين، ثم صحّت عندي الرواية الثانية، وهي تسميته (محمداً) بعد ظهور (أخبار الراضي والمتقي) وهو جزء من كتاب (الأوراق) لابن الصُّولي، وكان ابن الصولي معاصراً له، صديقاً على اتصال به، وقد سمّاه (محمداً) وذكر أنه لما كان أميراً قبل أن يلقّب نفسه بالراضي، أمره أن يوجه إليه بالأسماء التي ينعت بها الخلفاء، فأرسل إليه رقعة فيها ثلاثون اسماً فجاء منه: قد اخترت (الراضي بالله) ومَن كانت هذه حاله معه=

أبيه[1]، أو جده[2] أو كنيته[3] والمولد[4] والوفاة[5]، ونسبة الكتب[6] مع اتخاذ مواقف الحسم والترجيح. وقد يذكر اختلاف المؤرخين في تاريخي الولادة والوفاة دون الحسم أو الترجيح[7].

= فهو من أعرف الناس باسمه، وزادني اطمئناناً إلى هذا أنه سمّاه في قصيدة له ضادية طويلة، هنأه بها وفيها: «حمدوا من محمد حسن مثلك. . . إلخ فانقطع الشك، وممن سمّاه (محمداً) أصحاب (تاريخ بغداد) و(فوات الوفيات) و(معجم الشعراء) و(تاريخ الخميس)».

(١) من ذلك ما ذكره في ترجمة الأُدفوي (جعفر بن تغلب): ٢/ ١٢٢ ـ ١٢٣، حين رجّح اسم أبيه (تغلب) على (ثعلب) اعتماداً على مخطوطة كتبت في أيام جعفر.

(٢) منه ما ذكره في ترجمة ابن اللَّبُّودي (يحيى بن محمد بن عبدان): ٨/ ١٦٥ ـ ١٦٦، حيث رجح أن اسم جده (عبدان) لا (عبد الله) معتمداً على خط ابن قاضي شهبة في (الإعلام) في ترجمة أبيه محمد بن عبدان.

(٣) منه ما أورده في ترجمة يعقوب بن أحمد (أبو سعد): ٨/ ١٩٤، حيث رجَّح هذه الكنية على كنية (أبو يوسف) الواردة في (بغية الوعاة) واستند في ذلك على خط ابن قاضي شهبة في (الإعلام) وغيره.

(٤) منه ـ وهو كثير ـ ما ذكره في ترجمة أبي القاسم الشابي: ٥/ ١٨٥، إذ أورد تاريخ ولادته (١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م)، وعقَّب على ذلك في الهامش: «قلت: تناقلت هذه المصادر تاريخ مولد صاحب الترجمة في (صفر ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م)، والتصحيح من تحقيق السيد حسن حسني عبد الوهاب الصمادي، وكان الشابي من تلاميذه».

(٥) من ذلك الكثير، ما ذكره في ترجمة الكِرْماستي: ٨/ ٢٢٧، إذ أرَّخ وفاته سنة (٩٠٦) وقال: «وأكثرهم على أنه توفي حول التسعمئة، واعتمدت على ما رجحه بروكلمان».

(٦) منه: كتاب (فريدة العجائب وفريدة الغرائب) لابن الوردي: ٥/ ٦٧ حيث رجح أنه ليس له.

(٧) كقوله في ترجمة أبي نواس: ٢/ ٢٢٥: «وفي تاريخي ولادته ووفاته خلاف، قيل في ولادته ١٣٠ و١٣٦ و١٤١ و١٤٥ و١٤٦، وقيل في وفاته ١٩٥ و١٩٦=

إشارته للشك إذا لم يستطع الحسم والترجيح:

والزركلي إذا شكّ في صحة معلومة وردت في الترجمة، ولم يستطع الحسم والترجيح أشار إلى ذلك، وكثيراً ما يذكر: (فليحقق). من ذلك قوله في ترجمة أبي حاتم الرازي: أحمد بن حمدان بن أحمد الورسامي: ١/ ١١٩ «وأعلام الإسماعيلية وهو فيه (الورسناني) مكان (الورسامي) فليحقق».

وقوله في ترجمة الفاطمي الصقلي ٥/ ١٣٢ ـ ١٣٣: «... توفي في المدينة المنورة حاجاً» وقال في الهامش: «.. وفي إحدى المخطوطات (محمد الفاطمي) وقرأت على هامش مخطوطة أنه (المتوفى بمكة)؟ فليحقق».

وقوله في ترجمة ابن خَلْفُون: محمد بن إسماعيل بعد أن ذكر وفاته سنة ٦٣٦هـ: «قلت: اعتمدت في تاريخ وفاته (سنة ٦٣٦هـ) على تكملة ابن الأبار، والتبيان، وتذكرة الحفاظ: ٤/ ١٨٦، والثلاثة من ثقات المصادر، ثم ظهرت له كتابة على مخطوطة من الجزء الثاني من كتابه (المعلم بأسامي شيوخ البخاري ومسلم) كتبها في جمادى الآخرة سنة (٦٥٥هـ) وتجد صورتها في لوحة خطه، فلعل الصواب (٦٥٦؟) وليحقق».

وقوله في ترجمة الدقّاق: محمد بن عبد الله بن الحسين، أبو الحسين ابن أخي ميمي الدقاق ٦/ ٢٢٦: «قلت: في نفسي شيء من (ميمي) وقد رجعت إلى مخطوطة الإعلام لابن قاضي شهبة، فإذا الكلمة عليها نقطتان فوق الميم الأولى، فهل هي (تيمي) وماذا طمس التاء حتى جعلها ميماً أو أكبر من ميم مستديرة؟»[1]

= و١٩٨» واختار هو سنة (١٤٦) لولادته، وسنة (١٩٨) لوفاته ولم يذكر سبب ذلك.

(١) قلت: وردت (ميمي) في سير أعلام النبلاء: ١٦/ ٥٦٤، وفي تاريخ الإسلام (٣٥١ ـ ٣٨٠)، ص٢٠٤، فلم يعد مجال للشك فيها، وذكرت هذا في كتابي (نظرات في كتاب الأعلام) الذي سيطبع قريباً.

وقوله في ترجمة الوَتَري ٦/ ٣٠١: «قلت: وليحقق ضبط الوتري: سمعت من يلفظها بكسر الواو وسكون التاء؟».

وقوله في ترجمة ابن صاحب الصلاة ٤/ ١٦٤ بعد أن أورد الاضطراب في ترجمته: «فلتحقق الترجمة».

وقوله في ترجمة ابن المحب الطبري ٦/ ٢٩٦: «ورأيت وفاته مقيدة عندي سنة ١١٦٣ ولا أذكر مصدرها».

وقوله في ترجمة المافَرُّوخي ٧/ ٢٧٩: «قلت: لم أجد مصدراً أطمئن إليه في تاريخ وفاته».

وقوله في ترجمة ابن الطقْطَقي ٦/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤: «لم أجد مصدراً يعوّل عليه في ترجمته أو ضبط نسبته».

وقوله في ترجمة إبراهيم الدباغ ١/ ٧٤: «. . . محاضرات في الشعر الحديث ٥٩ ـ ٦٦، وفيه وفاته في ٢٦/ ٢/ ١٩٤٦م[1] والمدون عندي هو ٢٦/ ٢/ ١٩٤٧م فليحقق على نصب قبره في القاهرة».

وجاء في ترجمة ابن ناصر: محمد المكي ٧/ ١٠٩: «. . (فتح الملك الناصر في إجازات بني ناصر ـ خ) بخطه في خزانة الرباط (٧٢٦ أو ٧٦٢) والشك مني».

وورد في هامش ترجمة ابن هُذَيل: علي بن عبد الرحمن الأديب الأندلسي ٤/ ٢٩٩: «قلت: عندي شكوك في بعض الكتب المنسوبة إليه ولاسيما (الفوائد المسطرة) فإنه في علم البيطرة، وأجدر بهذا أن يكون من تأليف يحيى بن أحمد (ابن هذيل) الطبيب؟».

---

(١) وهو الصحيح، وقد أوضحت هذا في كتابي (نظرات في كتاب الأعلام)، وهو قريب الطبع.

وجاء في هامش ترجمة المفضل بن سلمة المتوفي نحو سنة ٢٩٠هـ: ٧/ ٢٧٩: «قلت: لم أجد مصدراً أطمئن إليه في تاريخ وفاته، وفي (هامش) على ترجمته في مراتب النحويين ٩٧» ذكر ابن قاضي شهبة في طبقاته: ١/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥ أنه توفي سنة ٣٠٠» وهذا يطيل المدة بينه وبين الفتح بن خاقان ـ المتوفى سنة ٢٤٧ ـ وقد كان من عُشَرائه، ومن عادة ابن قاضي شهبة كما رأيت في كتابه الإعلام ـ خ. أنه إذا بلغ آخر العشر من السنين، يذكر من توفوا في خلال ذلك العشر إن لم يكن على يقين من تاريخ سنة الوفاة، وهذا يتفق مع قول ابن خلكان إن ابنه محمد بن المفضل «مات سنة ٣٠٨ وهو غض الشباب».

وكتب تحت خط شعيب الكيالي ٣/ ١٦٦: «عن مخطوطة فاتني قيدها، ويغلب على ظني أنها من مخطوطات الأوقاف في حلب».

وقال في هامش ترجمة مِقْيَس بن صُبابة ٧/ ٢٨٣: «قلت: اسم أبيه في أكثر هذه المصادر (صبابة) ووقع في القاموس والتاج: ٤/ ٢٢٨ (حبابة) إلا أنه في صحاح الجوهري: ١/ ٥١٤ (صبابة) ولم أجد نصاً لترجيح أحد الرسمين. ويلاحظ أيضاً أنهم جميعاً سموه (مقيساً) بالسين، وانفرد الجوهري بتسميته (مقيصاً) بالصاد».

وفي هامش ترجمة البيطار: «أبو بكر بن (بدر الدين) المنذر» المتوفى نحو سنة ٧٤١هـ: ٢/ ٧٠: «قلت: لم أجد له ترجمة يُعَوَّل عليها فاقتصرت على ما في المصادر القليلة، وقدرت وفاته بسنة وفاة الملك الناصر، كما صنع بروكلمان»

وقال في هامش ترجمة أبي سعيد الآبي: منصور بن الحسين الرازي الذي كتب الزركلي وفاته ٤٢١هـ: ٧/ ٢٩٨: «قلت في وفاته ثلاث روايات حديثات: سنة ٤٢١ و٤٢٢ و٤٣٢، ولم أجد في مصادر المتقدمين ما أطمئن إليه».

إطالته في تراجم الذين عرفهم:

ونجد الزركلي يطيل في تراجم الذين كانت لهم به صلة معروفة من صداقة أو عداوة، ومنه: ترجمة محمد كردعلي: ٦/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣؛ والمختار

السوسي: ٧/ ٩٢ـ٩٣؛ والبشير الإبراهيمي: ٦/ ٥٤؛ والحاج أمين الحسيني: ٢/ ٤٥ ـ ٤٦؛ ومحمد البزم: ٧/ ٩١؛ وعبد الله بن الحسين: ٤/ ٨٢؛ وبدر الدين الحسني: ٧/ ١٥٧ ـ ١٥٨؛ والملك محمد الخامس: ٧/١٥٨ ـ ١٥٩؛ والملك عبد العزيز: ٤/ ١٩ ـ ٢١؛ والحسين بن علي (الشريف الملك): ٢/ ٢٤٩ـ٢٥٠؛ ويوسف ياسين: ٨/ ٢٥٣.

جلاء الغموض في بعض التراجم:

والزركلي قد يجلو الغموض الذي يكتنف بعض الأعلام، ويطيل في الترجمة إذا لم يجد ترجمة مستوفاة فيما كتب فيه المتقدمون والمتأخرون، أو خَلَت المصادر من جلّ ما ذكره فيه.

ومن ذلك ترجمة ابن قلاقس: نصر بن عبد الله: ٨/ ٢٤ـ٢٦ وهي أطول ترجمة في الأعلام، وترجمة ليون الإفريقي: الحسن بن محمد الوزان: ٢/ ٢١٧ـ٢١٨، وترجمة عبد الله بن إباض: ٤/ ٦١ـ٦٢.

عدم إهماله المترجَم إذا لم يجد له ترجمة وافية:

وهو لا يهمل ترجمة العَلَم إذا لم يجد له ترجمة مستوفاة من ذلك: ترجمة ابن عذاري محمد (أو أحمد بن محمد): ٧/ ٩٥ كتب الزركلي فيها: «مؤرخ، أندلسي الأصل، من أهل مراكش، لم أظفر له بترجمة..» وترجمة بلسم بنت عبد الملك: ٢/ ٧٣ جاء فيها: «أديبة مصرية، من أصل قبطي، أصدرت في القاهرة (مجلة المرأة المصرية) وكتب في الهامش: «لم أجد لها ترجمة».

وكتب ترجمة أبي الخطاب: ٦/ ١١٤ على النحو التالي: «محمد بن أبي الخطاب القرشي، أبو زيد: راوية عالم بالشعر، صنف (جمهرة العرب) ولم أظفر بترجمته في كتب المتقدمين».

بل نجده يترجم لمحمد بُوْسِتَّة: ٦/ ٢٠٧ ومصدرها الوحيد: تعليق على مخطوطة تفسير غريب القرآن للمترجم.

ويقول في هامش ترجمة الحاجي: ١/ ٨٨: «ومازلت أبحث عن ترجمة له، وكتابه (شرح بديعية القازاني) في خزانة الشيخ زهير الشاويش ببيروت».

إشارته إلى تعامل ولاة المسلمين مع أهل الكفر والأعداء:

والزركلي يشير ـ بأسًى ومرارة ـ إلى تعامل ولاة المسلمين، مع أهل الكفر والأعداء الذين يتربّصون بالمسلمين الدوائر، وهذا من باب الوعي والتوعية ولعلّه فعل ذلك للعبرة، ولينبّه المسلمين على خطورة ذلك، وأكثر من التنبيه على ذلك في علاقة دول الطوائف بالأندلس مع الإسبان، فقال في ترجمة المأمون ابن ذي النون، يحيى بن إسماعيل ٨/ ١٣٨: «. . . ونشأ خلاف بينه وبين هود (سليمان بن محمد) صاحب سَرَقُسْطَة على مدينة وادي الحجارة، وهي على الحدود بين منطقتيهما، وفي أهلها من يرغب بسيادة هذا، وفيهم من يرغب بسيادة ذاك، وأرسل ابن هود جيشاً احتلها، فغضب ابن ذي النون، فجرت بينهما حروب رجَحتْ فيها كفّة ابن هود، فعمد ابن ذي النون إلى أخبث الوسائل، فاستنصر بالإسبان، وهم يتحيّنون الفرصة للتوغّل في بلاد الأندلس، فأرسلوا جيشاً أغار على سرقسطة وغيرها من بلاد ابن هود، وخرّب زرعها وضرعها، ولم يكن ابن هود أصحَّ رأياً من صاحبه، فلجأ إلى فريق آخر من الإسبان، وبعث إليهم بأموال وهدايا، فأرسلوا جيشاً إلى ثغر طليطلة، أفنى حماته، وعاث في البلاد، واستمرت هذه الحال من سنة (٤٣٥) إلى أن مات ابن هود سنة (٤٣٨) وطمع الإسبان ببلاد الفريقين» وكتب في الحاشية: «ولم يلبثوا أن أخذوا طليطلة بعد أيام المترجم له بقليل سنة (٤٧٨هـ)».

وقال في ترجمة المريني، عبد الحق بن عثمان. آخر ملوك بني مرين ٣/ ٢٨١: «. . . غير أنه ختم حياته شرّ ختام، فاستوزر من بعدهم (الوطاسيين) يهوديَّين اعتزَّ بهما يهود فاس، وتحكموا في الأشراف والفقهاء، وضرب أحدهما امرأة فاستغاثت، فثار الناس، وأعملوا القتل في اليهود، ونادوا بخلع السلطان، وولوا عليهم الشريف أبا عبد الله الحفيد، وكان السلطان غائباً عن المدينة، فأجبره من معه على العودة إليها، فانتزعوا منه خاتم الملك، وأركبوه

بغلاً وطافوا به، وأمر الحفيد بضرب عنقه، فقتل، وبمهلكه انقرضت دولة بني مرين في المغرب».

وقال في ترجمة القُعَيْطي، عبد الله بن محمد ٤/ ١٣٢: «.. وعبد الله هذا هو صاحب المعاهدة المخزية مع الحكومة الإنكليزية سنة ١٨٨١م (١٣٠٥هـ)، والمادة الثانية منها: «يرتضي ويتعهد عبد الله بن محمد القعيطي بالأصالة عن نفسه وبالوكالة عن أخيه عوض، وورثائهما وخلفائهما بأن يتجنب الدخول في مكاتبات أو اتفاقيات أو معاهدات مع أي شعب أو دولة أجنبية، إلا بعلم وموافقة الحكومة البريطانية، ويتعهد أيضاً بأن يقدم إعلاماً سريعاً لوالي عدن، أو لضابط بـريطاني آخر عند محاولة أية دولة أخرى التدخل في شؤون المُكَلاَّ والشـحر ومتعلقاتهما..».

وقال في ترجمة سعد الدولة الحمداني ٣/ ١٦٢: «... وعقد مع ملك الروم معاهدة هدنة خبيثة «تجد نصها في زبدة الحلب: ١/ ١٦٣ ـ ١٦٨..».

وقـال في ترجمـة ابن حَمْدين، أحمـد بن محمد (تـوفي ٥٤٦هـ): ١/ ٢١٥: «... وتحرك إليه ابن غانية (يحيى بن علي) من إشبيلية، فاقتتلا في جهات استجة، وانهزم ابن حمدين (٥٤٠) فاحتل ابن غانية قرطبة، وساءت خاتمة ابن حمدين، فاستنجد بالإفرنج، فأقبلوا، وحاصروا ابن غانية، ثم هادنوه على مالٍ أدَّاه إليهم، وبلادٍ تركها لهم، وعاد ابن حمدين خائباً، وتوفي بمالقة».

وقال في ترجمة ابن مَرْدَنيش، محمد بن سعد ٦/ ١٣٧: «... وتنقلت به الأحوال، وارتكب وِزر الاستعانة بالفرنج على حرب الموحّدين...».

اختياراته من شعر المُترجَم:

ولأن الزركلي شاعر مبدع وأديب، فهو يذكر في تراجم كثير من الشعراء بيتاً أو بيتين أو أبيات، هي أشهر شعر المترجم وأجملها ومختارها، ولو قرأ القارئ ديوانه أو شعره لما وجد أشهر منها، فيقول في ترجمة إبراهيم ناجي ١/ ٧٦: «وهو القائل من أبيات:

فِيْمَ انتقامُكِ مِنْ قلبٍ عَصَفْتِ بِهِ ... لَمْ يَبْقَ مِنْ مَوْضَعٍ فيهِ لِمُنْتَقِمِ

ويقول في ترجمة ابن خراسان، أحمد بن الحسين (توفي ٤٩٧هـ): «وهو صاحب البيت المَشهور ١/ ١١٦:

نَزَلْنَا عَلَى أنَّ المقامَ ثلاثةٌ ... فطابَتْ لنَا حتَّى أقمنَا بِهَا عَشْرَا»

وجاء في ترجمة الهلالي، أحمد بن عبد العزيز (توفي ١١٧٥هـ): «... تذكرةُ المحسنين -خ وفيها من شعر مطلع قصيدة له ١/ ١٥١:

إذا نابني أمرٌ ... وضاقَ به صدري

تلافاه لطفُ الله ... مِنْ حَيْثُ لا أدري»

وجاء في ترجمة أعشى أسد، خيثمة بن معروف الأسدي ٢/ ٣٢٦: «شاعر اشتُهرت له قصيدةٌ أولها:

هوّنْ عَلَيْكَ فَإنَّ الدَّهرَ مُنْجَذِبُ ... كلُّ امرىءٍ عَنْ أَخِيْهِ سَوْفَ يَنْشَعِبُ

ومنها:

إذا رجعتُ إلى نَفْسِي أُحَدِّثُهَا ... عمَّن تَضَمَّن مِنْ أصحابِيَ القَلْبُ

عاودتُ وَجْداً على وجدٍ أكابِدُه ... حتَّى تكادُ بَناتُ الصَّدْرِ تَلْتهِبُ»

وورد في ترجمة الراعي النميري، عبيد بن حصين: «ومن بديع ما أورده المبرد من شعره ٤/ ١٨٩:

قتلوا ابنَ عفَّانَ الخليفةَ مُحْرِماً ... وَدَعَا، فَلَمْ أرَ مِثْلَهُ مَخْذُوْلا

فَتَفَرَّقَتْ مِنْ بَعدِ ذَاكَ عَصاهُمُ ... شققاً وأصبحَ سَيْفُهُمْ مَفْلُولا»

وذكر في ترجمة عروة بن أُذينة ٤/ ٢٢٧: «شاعر غزل مقدّم، من أهل المدينة، وهو معدود من الفقهاء والمحدثين أيضاً، ولكنَّ الشعر أغلب عليه وهو القائل:

لَقَدْ عَلِمْتُ وَمَا الإِسْرَافُ مِنْ خُلُقي أنَّ الَّذي هُوَ رِزْقِي سَوْفَ يَأْتِيْني
أَسْعَى إِلَيْهِ فَيعيينِي تَطَلُّبُهُ وَلَوْ قَعَدْتُ أَتانِي لا يُعَنِّيني»

ويقول في ترجمة عمارة بن عقيل (توفي ٢٣٩هـ) ٥/ ٣٧: «وهو القائل:

بَدَأْتُم فَأَحْسَنْتُمْ فَأَثْنَيْتُ جَاهِداً وإنْ عُدْتُمُ أَثْنَيْتُ والعَوْدُ أَحْمَدُ

والقائل:

ومـا النَّفْسُ إلا نُطْفَةٌ بقرارةٍ إذا لم تكدَّرْ كَانَ صَفواً غَدِيْرُها»

وفي ترجمة الشَّنفَرى ٥/ ٨٥: «وهو صاحبُ لامية العرب، التي مطلعها:

أَقِيْمُوا بَنِي أُمِّي صُدُوْرَ مَطيِّكُمْ فإنِّي إلى قومٍ سِوَاكُمْ لأَمْيَلُ»

وفي ترجمة عمرو بن مَعْدي كَرب ٥/ ٨٦: «له شعرٌ جيّدٌ أشهرُه قصيدتُه التي يقولُ فيها:

إذا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئًا فَدَعْهُ وجَاوِزْهُ إلى مَا تَسْتَطِيعُ»

وفي ترجمة القُطامي ٥/ ٨٨ـ٨٩: «من شعره البيت المشهور:

قَدْ يُدْرِكُ المُتَأنِّي بعضَ حاجَتِهِ وَقَدْ يَكونُ مَعَ المُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ»

وجاء في ترجمة المتوكل الليثي ٥/ ٢٧٥: «من شعراء (الحماسة) اختار أبو تمام قطعتين من شعره، من إحداهما:

نَبْنِي كَمَا كانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِي، وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوْا

ويقال إنها لغيره، وذكر الآمديُّ أنه هو صاحب البيت المشهور:

لا تَنْهَ عَنْ خُلقٍ وتَأْتِيَ مِثْلَهُ عَارٌ عَلَيْكَ إذا فَعَلْتَ عَظِيْمُ»

وفي ترجمة لقيط بن يعمر الإيادي (شاعر جاهلي) ٥/ ٢٤٤: «وهو

صاحب القصيدة التي مطلعها:

يا دارُ عمرةُ[1] مِنْ مُحْتَلِّها الجَرَعا هاجَتْ لِيَ الهَمَّ والأَحْزَانَ والوَجَعا

وهي من غُرر الشعر، بعثَ بها إلى قومه (بني إياد) ينذرهم بأن كسرى وجَّه جيشاً لغزوهم، وسقطت القصيدة في يد أوصلتها إلى كسرى، فسخط عليه وقطع لسانه ثم قتله».

وفي ترجمة محمد إمام العبد (توفي ١٣٢٩هـ) ٦/ ٤٠ : «وهو القائل:

أنــا ليــلٌ وكُــلُّ حسنــاءَ شَمْــسٌ فَــاقْتِــرَانِــي بِهَــا مِــنَ المستحيــلِ»

وفي ترجمة أبي جعفر الباهلي، محمد بن حازم، (توفي نحو ٢١٥هـ) ٦/ ٧٥: «وهو صاحب البيتين المشهورين:

لَئِنْ كُنْتُ مُحْتَاجاً إلى الحِلْمِ إنَّني إلى الجَهْلِ في بَعْضِ الأحايين أحوجُ
وَلِـيْ فَـرَسٌ للحِلْـمِ بـالحِلْـمِ مُلْجَـمٌ وَلِي فَرَسٌ بالجَهْلِ للجَهْلِ مُسْرَجُ[2]»

ويقول في ترجمة أبي الحسن التهامي ٤/ ٣٢٧: «وهو صاحب القصيدة التي مطلعها:

حُكْـمُ المَنِيَّـةِ فِـي الْبَـرِيَّـةِ جَـارِي مَـا هَـذِهِ الـدُّنْيَـا بِـدَارِ قَـرَارِ»

وفي ترجمة عبد الله الطالبي ٤/ ١٣٩: «وهو صاحب البيت المشهور:

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيْلَةٌ وَلكنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي المَسَاوِيا»

---

(١) يا دارُ منادى، ترك خطابَها، وعمرةُ مبتدأٌ خبرُه هاجت. (الناشر)

(٢) قال في الهامش: «وأشار الأستاذ أحمد عبيد إلى أبيات في تهذيب تاريخ ابن عساكر: ٦/ ٣٦٧ منسوبة إلى صالح بن جناح، منها البيتان الواردان في هذه الترجمة، فلتحقق نسبتها إلى أحد الشاعرين».
قلت: لعل الصواب في رواية عجز البيت الثاني: ولي فرس للجهل بالجهل مسرج، وبه تقع مشاكلةٌ لصدر البيت.

وفي ترجمة ابن عبدون ٤/ ١٤٩ :

«الدَّهْرُ يَفجَعُ بعدَ العَيْنِ بالأثَرِ» [فَمَا البُكَاءُ على الأشْبَاحِ والصُّوَرِ]

وفي ترجمة الحفيد ابن زهر ٦/ ٢٥٠ : «..وشعر رقيق، وموشحات انفرد في عصره بإجادة نظمها، أشهرها موشحة مطلعها:

ما للمُولَّهِ مِنْ سُكرِه لا يفيقُ.

وثانيةٌ مطلعها:

أيُّهَا السَّاقِي إليكَ المُشْتكَى قَدْ دَعَوْنَاكَ وإنْ لَمْ تَسْمَعِ»

وفي ترجمة العزْرَمي ٦/ ٢٥٨ : «أكثر شعره آداب وأمثال، وهو القائل:

إنْ يَحْسِدُونِي فإنِّي غيرُ لائِمهمْ قَبْلِي مِنَ النَّاسِ أَهْلُ الفَضْلِ قَدْ حُسِدُوا»

وفي ترجمة أبي الشِّيص ٦/ ٢٧١ : «شاعر مطبوع، سريع الخاطر، رقيق الألفاظ.. وتنسب إليه الأبيات التي يغنّى بها، وأولها:

وَقَفَ الهَوَىٰ بِي حَيْث أنتِ فليسَ لِي مُتَأَخَّرٌ عَنْهُ وَلا مُتَقَدَّمُ»

وفي ترجمة ابن أحمر، هنئ بن أحمر. شاعر جاهلي ٨/ ١٠٠ : «تنسب إليه الأبيات التي اشتهر منها:

وإذا تكونُ كَرِيهَةٌ أُدْعَىٰ لها وإذا يُحَاسُ الحَيْسُ يُدعَىٰ جُنْدُبُ»

وفي ترجمة ابن شهاب ٢/ ١٩٣ : «وله شعر جيد، منه قصيدة مطلعها:

أَرَدْتُكُمُ حِصْناً حَصِيناً لِتَمْنَعُوا نِبَالَ العِدَىٰ عَنِّي فَكُنْتُمْ نِصَالَهَا»

وفي ترجمة حِطَّان بن المُعلَّى ٢/ ٢٦٣ : «اشتهر بقصيدة له منها:

وإنَّمَا أولادُنَا حَوْلَنَا أكبَادُنَا تَمْشي علىٰ الأرْضِ

إنْ هَبَّتِ الرِّيْحُ على بَعْضِهِمْ   تمتنعُ العَيْنُ عَنِ الغمْضِ»

وفي ترجمة مالك بن الريب ٥/ ٢٦١ : «فمرض في (مرو) وأحسّ بالموت فقال قصيدته المشهورة وهي من غرر الشعر ، وعدّتها (٥٨) بيتاً مطلعها :

ألا لَيْتَ شِعْري هَلْ أبيتَنَّ لَيْلَةً   بِجَنْبِ الغَضَى أُزْجي القِلاصَ النَّوَاجِيَا

ومنها يشير إلى غربته :

تَذَكَّرْتُ مَنْ يَبْكِي عَلَيَّ فَلَمْ أَجِدْ   سِوَى السَّيْفُ والرُّمْحُ الرُّدَينيّ باكيا»

وفي ترجمة هُدْبة بن خَشْرَم ٨/ ٧٨ : «وهو القائل :

عَسَى الكَرْبُ الذي أَمْسَيْتُ فِيْهِ   يَكُونُ وراءَهُ فَرَجٌ قَرِيْبُ»

وفي ترجمة ابن بقيّ ٨/ ١٥٢ : «من شعره ، وهو صورة للأدب الأندلسي في عصره :

وَمَشْمُولَةٌ في الكَأْسِ تَحْسَبُ أنَّهَا   سَمَاءُ عقيقٍ رُصِّعَتْ بالكَواكِبِ
بنَتْ كعبةَ اللَّذَّاتِ في حَرمِ الصَّفَا   فَحَجَّ إليها الحَظُّ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

وهو صاحب الموشح الذي أوله :

عَبَثَ الشَّوْقُ بِقَلْبِي فَاشْتَكَى   أَلَمَ الوَجْدِ فَلَبَّتْ أَدْمُعِي»

وفي ترجمة يزيد بن مفرِّغ ٨/ ١٨٣ : «ونظمه سائر ، وهو صاحب البيت الشائع من قصيدة أوردها المرصفي :

العَبْدُ يُقْرَعُ بِالعَصَا   والحُرُّ تَكْفِيْهِ المَلامَه»

وفي ترجمة يعقوب بن الربيع ٨/ ١٩٨ : «ومن أبدع ما سمعت في الرثاء قوله :

فَلَوْ أنَّني إذْ حَانَ وقْتُ حِمَامِهَا   أُحَكَّمُ في أَمْرِي لَشَاطَرْتُها عُمْرِي

فَحَلَّ بِنَا المِقْدَارُ فـي سـاعـةٍ معـاً فمـاتَـتْ ولا أدري ومِـتُّ ولا تَـدْرِي

وكان لا يزيد في شعره على البيتين أو الثلاثة».

وفي ترجمة أبي الحسن الجرجاني ٤/ ٣٠٠: «وهو صاحب الأبيات التي أولها:

يَقُـولُـونَ فِيْـكَ انْقِبَـاضٌ وإنَّمـا رَأَوْا رَجُلاً عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا»

وفي ترجمـة معن بن أوس ٧/ ٢٧٣: «وهو صاحب لاميـة العجم التي أولها:

لعَمْـرُكَ مَـا أَدْرِي وإنِّـي لأوْجَـلُ عَلَـى أيِّنَـا تَعْـدُو المَنِيَّـةُ أوَّلُ»

وفي ترجمة مُعقِّر بن أوس ٧/ ٢٧٠: «وهو صاحب البيت المشهور من قصيدة طويلة:

وَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْـتَقَرَّتْ بِهَا النّوى كَمَـا قَـرَّ عَيْنـاً بـالإيَـابِ المُسَـافِـرُ»

وفي ترجمة المعتصم بن صُمادح ٧/ ١٠٦: «وهو صاحب الأبيات التي أولها:

وَزَهَّـدَنِي فِـي النَّـاسِ مَعْـرِفَتِي بِهِـم وَطُوْلُ اخْتِبَارِي صَاحِباً بَعْدَ صَاحِبِ»

إيراده أشعاراً تخصُّ المترجم:

والزركلي لا يقتصر على ذلك، بل يورد أشعاراً تخص المترجم، فيقول في ترجمة فاتك الرومي ٥/ ١٢٦: «ومدحه المتنبي بقصيدته التي مطلعها:

لا خَيْـلَ عِنْـدَكَ تُهْـدِيْهـا وَلا مَـالُ [فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إنْ لَمْ تُسْعِدِ الحَالُ]»

ثم لما مات فاتك رثاه المتنبي بقصيدة أولها:

الحـزْنُ يُقلـقُ والتجمُّـلُ يـردعُ [والـدمـع بينهمـا عصـيٌّ طيِّـعُ]»

وهي من المراثي الفائقة، وله في رثائه قصيدة أخرى يقول فيها وهو بعيد عن مصر:

لا فَـاتَـك آخـر فـي مصـر نَقْصِـدُهُ وَلا لَـهُ خَلَـفٌ فـي النَّـاسِ كُلِّهِـمُ»

وفي ترجمة أبي رغال ٥/ ١٩٨: «. . . وكانت ثقيف تُعيَّر به. قال حسان ابن ثابت:

إذا الثَّقَفِـيُّ فَـاخَـرَكُـمْ فَقُـولُـوا: هَلُـمَّ نُعِـدْ شَـأنَ أبـي رِغَـالِ

قال جرير:

إذا مَـاتَ الفَـرَزْدَقُ فَـارْجُمُـوهُ كَمَـا تَـرْمُـونَ قَبْـرَ أبـي رِغَـالِ»

وفي ترجمة قيس بن عاصم ٥/ ٢٠٦: «. . . وهو الذي يقول عَبْدَةُ ابن الطبيب في رثائه:

ومَـا كَـان قَيْسٌ هُلكُـهُ هُلْـكُ واحـدٍ ولكنَّـهُ بُنْيَـانُ قَـوْمٍ تَهَـدَّمَـا»

وفي ترجمة الجَبُّلي ٦/ ١٧٥: «وفيه قال أبو العلاء في قصيدته التي أولها:

«غَيْـرُ مجـدٍ فـي مِلَّتِـي واعتقـادِي نَـوْحُ بَـاكٍ وَلا تَـرَنُّـمُ شَـادِي»

وفي ترجمة مُطْعِم بن عدي ٧/ ٢٥٢: «. . وفيه يقول حسان:

فَلَـوْ كَانَ مَجْدٌ يُخْلِـدُ الدَّهْرَ وَاحِـداً مِنَ النَّاسِ أبْقَى مَجْدُهُ الْيَوْمَ مُطْعِمَا»[1]

وفي ترجمة الهُذيل بن هُبَيْرة ٨/ ٨٠: «وهو صاحب يوم (إراب) أغار فيه على بني رياح بن يربوع. . فقتل وأسر كثيراً ممن وجد، قال الفرزدق:

---

(١) ورواية البيت في ديوانه بتحقيق عبد الرحمن البرقوقي، ص٤٥٤:

ولـو أنَّ مَجْداً أخلد الـدهر واحداً من النـاسِ أبقى مجده الدهـرُ مُطعما

غَـدَاةَ أَتَـتْ خَيْـلُ الهـذيـل وَرَاءكُـمْ   وَسُـدَّتْ عَلَيْكُمْ من إرابِ المَطَالِـعُ

وقال في سباياهم:

يَمشيْـنَ فـي أَثَـرِ الهـذيـلِ وتَـارةً   يَـرْدِفْـنَ خَلْـفَ أواخِـرِ الـرُّكْبَـانِ

ومن قصيدة له:

وَكَـانَ إذَا أنَـاخَ بِـدَارِ قَـوْمٍ   أبـو حسَّـانَ أوْرَثَهـا خَـرَابَـا

وقال الأخطل:

وَلَقَـدْ سَمَّـا لَكُـم الهـذيـل فَنَـالَكُـمْ   بِـإرَابِ حَيـثُ يُقَسِّـمُ الأنْفَـالا»

وأورد الزركلي قول عتيبة بن مرداس في مقتله:

«فَمَـنْ مُبلـغٌ فتيـانَ تغلـبَ أنَّـه   خَـلا للهـذيـلِ مِـنْ سفـار قليـبِ»

ويقول في ترجمة (ذو الخويصرة): حرقوص بن زهير السعدي. الصحابي ٢/ ١٧٣: «.. وإياه عنى أحد شعراء الخوارج بقوله من أبيات رواها المبرد:

وأسـألُ اللهَ بَيْـعَ النَّفْـسِ مُحْتَسِبـاً   حتّى ألاقيَ في الفِرْدَوسِ حُرْقُوصَا»

وفي ترجمة الأُسكوبي ٢/ ١٨٩: «... ونظم أحدهم (عبد الجليل برادة) رجزاً فيه، أوله:

مَـا قَـوْلُكُـمْ في شَيْخِنَـا الأُسْكُـوبـي   يَبِيْـتُ طـوالَ اللّيْـلِ فـي الـرَّاقُـوْبِ
يَـرْقُـبُ مِنْـهُ الفَلَـكَ الـدوَّارَا   مُشَـابِهـاً فِـي فِعْلِـهِ النَّصَـارَى»

وجاء في ترجمة مُقَلَّد بن كُليب ٧/ ٢٨٣: «.. جد جاهلي، من بنيه أبو الورقاء (عقبة بن مُليص المقلدي) شاعر، كان معاصراً لجرير، ولما قال جرير:

فَلَـوْ كَـانَ حِلْـمٌ نَـافِـعٌ فِـي مقلَّـدٍ   لَمَا وَغَرَتْ مِنْ غَيْرِ جرمٍ صُدُورُها

ردَّ عليه أبو الورقاء بأبيات منها:

وَمَا حَارَبَتْنَا مِنْ مَعِدٍّ قَبِيلَةٌ فَتَقْلَعُ إلاَّ وَهِيَ تُدْمَى صُدُورُها»

تفريقه بين الشاعر والناظم:

ومما له صلة بالشعر، تفريق الزركلي بين الشاعر الذي ينظم الشعر الذي فيه الصور البلاغية، وجزالة اللفظ، والتأثير في نفس سامعه، وبين الناظم الذي ينظم الشعر، وليس فيه من الشعر إلا الوزن، فلا بلاغة فيه ولا تأثير، كمنظومات النحو والفقه والقراءات وغيرها.

فيقول في الشاعر: شاعر عصره، شاعر مطبوع، شاعر مجيد، شاعر، شاعر دمشقي، شاعر مصري، شاعر عالي الطبقة، شاعر غزل مقدَّم.. ويقول في خاتمة الترجمة: وله شعر رقيق، له شعر جيد، له شعر حسن، شعره في غاية الجودة[1]..

ويقول في الناظم في فاتح ترجمته: ناظم، ويقول في خاتمتها: له نظم، له نظم وليس بشاعر[2]، وقد يجمع بينهما فيقول: له شعر ونظم[3].

---

(١) انظر على سبيل المثال: ٧/ ١٠٠، ١٠٣، ١٠٤، ١٢٥، ١٤٣، ١٥١، ١٥٤، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٤، ٢٠٨، ٢٤٧، ٣٣٤.

(٢) فيقول في ترجمة الصيرفي: ٤/ ٥٩: (ناظم) ويقول في ترجمة أسعد خليل داغر: ١/ ٣٠٠: «...ونَظْم كثير جَمَعَه في (ديوان ـ خ) لا يقل عن ١٥ ألف بيت وليس بشاعر، ويقول في ترجمة قانصوه الغوري: ٥/ ١٨٧: «...له (ديوان شعر) وليس بشاعر، وفي ترجمة ابن طولون: ٦/ ٢٩١: «له نظم وليس بشاعر» وفي ترجمة الفقيه النصري: ٧/ ٣٢: «يقرض الأبيات من النظم وليست من الشعر». وانظر على سبيل المثال: ٤/ ٥٩، ١٥١، ١٧٥، ٢٧٥؛ ٧/ ٤٥، ٦٧، ٧٤، ٨٥.

(٣) كما ذكر ذلك في ترجمة ابن المنير: ٤/ ١٧٧.

اهتمامه بوصف خط المترجم:

ويلاحظ أنه كان شديد الاهتمام بوصف خط المترجم وجودته إن كان قد تميز بخطه. فهو لا يفتأ أن ينبه على ذلك، نحو قوله في ترجمة إبراهيم اليازجي ١/ ٧٧: «ومما امتاز به جودة الخط وإجادة الرسم والنقش والحفر» وقوله في ترجمة جميل العظم ٢/ ١٣٨: «وكتب الخط الجميل على اختلاف أنواعه» وقوله في ترجمة البردعي ٧/ ٥٥: «يكتب الخط الحسن مع سرعة الكتابة» وقوله في ترجمة محمد غِرِّيط ٧/ ٨٣: «وكان حسن الخط، نسخ كثيراً من كتب الحديث».

اهتمامه بذكر اعتناء المترجم بجمع الكتب:

وهو شديد الاهتمام أيضاً بذكر اعتناء المترجَم بجمع الكتب، فيقول في ترجمة أحمد خيري ١/ ١٢٣: «وأنشأ في قريته (روضة خيري) مكتبة قدّرت بسبعة وعشرين ألف مجلد، بها مجموعة حسنة من المخطوطات».

ويقول في ترجمة أحمد زكي باشا ١/ ١٢٧: «وجمع مكتبة في نحو عشرة آلاف كتاب ووقفها».

وفي ترجمة جميل العظم ٢/ ١٣٨: «واقتنى كثيراً من نفائس المخطوطات، وتاجر بها».

وفي ترجمة عبد القادر البغدادي ٤/ ٤١: «وجمع مكتبة نفيسة» وفي ترجمة الشيخ محمد نصيف ٦/ ١٠٨: «... لا يكاد يصدر كتاب مما يروقه إلا اشترى منه نسخاً وأهداها إلى المكتبات العامة، وبعض معارفه، وخلف مكتبة حافلة بالمخطوطات والمطبوعات».

عنايته بذكر فقر المترجم أو غناه.

ويُعنَى أيضاً بذكر فقر المترجم وغناه، فيقول في ترجمة إبراهيم اليازجي ١/ ٧٧: «وكان رزقه من شق قلمه، فعاش فقيراً غني القلب أبي النفس».

وفي ترجمة عبد المحسن الكاظمي ٤/ ١٥٣ : «فلقي من مودة الشيخ محمد عبده ما حبب إليه المقام بمصر، فأقام. . . ومات محمد عبده سنة ١٣٢٣ ، فعاش في ضنك يستره إباء وشمم إلى أن توفي» .

وفي ترجمة ابن ناصر الدرعي ٧/ ٦٣ : «عني في أول أمره بجمع الكتب نسخاً بخطه وشراء وتصحيحاً ومقابلة، مع كتابة الفوائد على حواشيها وطررها على ضيق معيشته، وكان ينام مع أهله على التراب لضعف ماله عن شراء حصير أو فراش. . وأثرى بعد ذلك» .

وفي ترجمة الخياط ٧/ ١٥٣ : «. . . وقد أثرى من كثرة ما أخذ من الناس بسبب المديح والهجاء» .

وفي ترجمة مصطفى جواد ٧/ ٢٣٠ ، «ونشأ في فقر وحرمان» .

ذكره حليته:

ويذكر صفات المترجم الخلقية، كقوله في ترجمة النبي ﷺ ٦/ ٢١٩ : «ضخم الرأس واليدين والقدمين، ليس بالطويل ولا بالقصير، سبط الشعر، لونه أسمر، وخلقته تامة، وعيناه سوداوان، وفي خديه حمرة» .

وفي ترجمة عمر بن الخطاب ٥/ ٤٥ : «كان أبيض عاجي اللون، طوالاً مشرفاً على الناس، كثّ اللحية، أنزع (منحسر الشعر من جانبي الجبهة) يصبغ لحيته بالحناء والكتم» .

وفي ترجمة عبد اللطيف البغدادي ٦/ ٦١ : «وكان دميم الخِلقة قليل لحم الوجه» .

وفي ترجمة ابن جرير الطبري ٦/ ٦٩ : «وكان أسمر أعين، نحيف الجسم» .

إشارته إلى الحالة الصحية:

ويشير إلى الحالة الصحية للمترجم، فيقول في ترجمة أبان بن عثمان

١/ ٢٧ : «وأصيب بالفالج مع شيء من الصمم».

وفي ترجمة سامي الدهان ٣/ ٧٤ : «ومرض مدة وفقد ذاكرته، فانقطع في داره بدمشق إلى أن توفي».

وفي ترجمة العُكْبَري ٤/ ٨٠ : «أُصيب في صباه بالجدري فعمي».

وفي ترجمة قالون ٥/ ١١٠ : «وكان أصم يُقرأُ عليه القرآن» وفي ترجمة ابن ملكشاه ٧/ ٨٦ : «مرض بالسل وطال به إلى أن توفي» وفي ترجمة ابن حبناء ٧/ ٢٧٨ : «وكان أبرص».

تبيانه الحالة الاجتماعية:

ويبيّن الحالة الاجتماعية للمترجَم، كأن يذكر الموالاة، والعزوبة والعقم، فيقول في ترجمة الزيادي ٤/ ٧١ : «نحوي من الموالي»وفي ترجمة ابن أبي الدنيا ٤/ ١١٨ : «. . . ابن أبي الدنيا القرشي الأموي مولاهم» وفي ترجمة ابن الحجّام ٤/ ١٤٢ : «. . . التجيبي بالولاء. . .» ويقول في ترجمة عبد الكريم قاسم ٤/ ٥٥ : «وكان عزباً» وفي ترجمة محمد إمام العبد ٦/ ٤٠ : «ولم يتزوج» وترجمة ابن طولون ٦/ ٢٩١ : «لم يتزوج ولم يعقب» وترجمة العبدلي ٤/ ١٧٣ : «وتوفي عقيماً» ومعاذ بن جبل ٧/ ٢٥٨ : «توفي عقيماً» ومعاوية بن يزيد ٧/ ٢٦٣ : «توفي بدمشق ولا عقب له».

صلة القربى بين المترجم ومَنْ هو مشهور ومترجَم له في أعلامه:

ونلاحظ أن الزركلي شديد العناية بالمترجَم، يحاول أن يعرّف به بذكر قرابته من شخص آخر له المكانة المرموقة، وقد يشير إلى سَبْقه أو تأخّره عنه، كأن يقول: «المتقدمة ترجمته» أو «الآتية ترجمته»أو«السابقة ترجمته»أو «الآتي» أو «انظر ترجمته» فيقول في ترجمة محمد عارف المنيّر ٦/ ١٨٠ : «وهو أخو (محمد صالح) المتقدمة ترجمته: كانا توأمين وعاشا على غير وفاق». ويقول في ترجمة تاج الدين الحسني ٧/ ٨٢ : «. . . كان أبوه المحدث الشيخ بدر الدين (انظر ترجمته) منقطعاً إلى التدريس والعبادة، وانصرف هو إلى الاتصال بالحكام

الذين يريدون إرضاء أبيه». ويقول في ترجمة الشاعر أبي الشيص ٦/ ٢٧١ : «وهو ابن عم دعبل الخزاعي» وفي ترجمة عبد الرحمن بن محمد بن عساكر ٣/ ٣٢٩ : «وهو ابن أخي المؤرخ علي بن عساكر» وفي ترجمة ابن بُقيلة ٤/ ١٥٣ : «وهو ابن أخت سطيح الكاهن». وفي ترجمة محمود العظم ٧/ ١٦٩ : «وهو والد رفيق بك العظم» المتقدمة ترجمته. وفي ترجمة الملك المظفر ٧/ ١٨٢ : «وهو جد المظفر الآتي في ترجمة بعد التالية». وفي ترجمة ابن العطار ٤/ ٢٥١ : «وخرَّج له أخوه لأمه بالرضاع شمس الدين الذهبي (مشيخة)».

إثبات صور المعاصرين، وإثبات الصور الرمزية لمن لم يدركهم التصوير الفوتوغرافي:

ومن منهج المؤلف أنه يثبت صور المعاصرين ممن أدركهم فن التصوير الفوتوغرافي إذا توفرت لديه، وقد يثبت للمترجم أكثر من صورة كما في ترجمة جميل صدقي الزهاوي: ٢/ ١٣٧، ومحمد عبده: ٦/ ٢٥٢ حيث أثبت لهما صورتين، وكما في ترجمة الملك عبد العزيز آل سعود: ٤/ ١٩ ـ ٢٠ حيث أثبت له أربع صور.

بل بلغ الأمر بالزركلي أن يثبت صوراً رمزية لمن لم يدركهم التصوير الفوتوغرافي من صَناع رسّامين، لدخولها في عداد القطع الفنية، كما في ترجمة لين: ١/ ٢٨٤؛ وبالمر: ١/ ٢٨٤؛ وأديب إسحاق: ١/ ٢٨٥؛ والمولى إسماعيل: ١/ ٣٢٥؛ وأمين الجندي: ٢/ ١٦؛ ودي ساسي: ٢/ ٢٦؛ وبشير الشهابي: ٢/ ٥٧؛ وجبرائيل فرحات: ٢/ ١٠٩؛ والشوشتري: ٢/ ١٢٤؛ وابن سينا: ٢/ ٢٤١؛ وحسين باي: ٢/ ٢٤٧؛ وسعيد بن سلطان: ٣/ ٩٥؛ وسليمان الحلبي: ٣/ ١٣٣؛ وعبد الله الشرقاوي: ٤/ ٧٨؛ وعبد الله الزاخر: ٤/ ٨٧؛ وعبد الله بن سعود: ٤/ ٨٩؛ وعبد الله بن عون: ٤/ ١٣٢؛ وعبد الله التعايشي: ٤/ ١٣٢؛ وعثمان بن علي: ٤/ ٢١١؛ وزرياب: ٥/ ٢٨؛ وفخر الدين المعني: ٥/ ١٣٨؛ و(تمثال) فلب العربي: ٥/ ١٥٥؛ والكرباسي: ٥/ ٣٠٥؛ والمجلسي: ٦/ ٤٨؛ والحسن بن الهيثم: ٦/ ٨٤؛ ومحمد كريم: ٧/ ١٤؛ والمولى هشام: ٨/ ٨٨؛ والمولى يزيد: ٨/ ١٨٧؛ ويوسف

السمعاني: ٨/ ٢٣٣؛ وبركهارت: ٨/ ٢٦٤؛ ورايسكه: ٨/ ٢٦٥.

إثبات خطوط المترجمين:

ومن منهج الزركلي أيضاً، إثبات خطوط المترجَمين، والخطوط إلى جانب قيمتها الأثرية، فِلَذٌ من أرواح أصحابها أبدية الحياة، يكمن فيها من معاني النفوس ما لا تعرب عنه صور الأجسام ـ كما يقول الزركلي في مقدمته ـ، وإثبات الخطوط يفيد في توثيق المخطوطات التي يقال إنها بخطوط مؤلفيها، فعن طريق مضاهاة ما بيدك منها بما أثبته من تلك النماذج للخطوط، يظهر لك وجه الصواب أو الخطأ.

وغالباً ما يثبت الزركلي نموذجاً واحداً من خط المترجم، غير أنه كان يعمد أحياناً إلى إثبات نموذجين من خط المترجم كما في ترجمة السيرافي: ٢/ ١٩٥؛ وابن حبيب الحلبي: ٢/ ٢٠٨ـ٢٠٩؛ وذكر الزركلي أن ابن حبيب كتب اسمه في النموذج الأول الحسين، وفي الآخر الحسن، وكما في ترجمة ابن الطيب الفاسي: ٦/ ١٧٧؛ والعلقمي: ٦/ ١٩٥؛ والطرطوشي: ٧/ ١٣٤؛ والولاتي: ٧/ ١٤٢؛ والفيروزآبادي: ٧/ ١٤٦؛ وأبي حيان النحوي: ٧/ ١٥٢؛ والبهاء الباعوني: ٧/ ١٥٥؛ والقلعاوي: ٧/ ٢٤٢؛ ومصطفى البنّاني: ٧/ ٢٤٢؛ والمُبَلِّط: ٧/ ٢٤٢ـ٢٤٣.

ونراه يثبت ثلاثة نماذج من خط الشيخ محمد عبده: ٦/ ٢٥٢ـ٢٥٣.

وإذا شك الزركلي في خط المترجم كان يشير إلى ذلك، كما في خط ابن العديم: ٥/ ٤٠؛ حيث يقول تحته: «يلاحظ أن ليس هنا ما يدل على أن الخط خط ابن العديم غير الجملة المقحمة بين السطور الأخيرة من اللوحة بخط آخر، ونصُّها: «هذا مجلد من تذكرة ابن العديم بخطه» فلابدَّ من إعادة النظر فيه وتحقيقه». وكما في خط ابن الحنبلي: ٥/ ٣٠٢ «ويساورني شك في أن يكون هو الكاتب لملحوظات منها تكرار كلمة (تم) في آخرها، وليس من عادة العلماء مثل هذا العبث». وكما في خط البَرْزَنْجي: ٦/ ٢٠٣: «اقتبست هذه الجملة لما توحيه من أنها بخطه، ثم رأيت في سطور بعدها، خطأً يستبعد وقوعه فيه، ككلمة (سيد العباد) جاءت (سيد المعباد) و(جعلها) جاءت (جلعا) فترجّح أنه من خط أحد

النساخ، وأبقيت الجملة هنا، لهذا التنبيه، ولما جاء فيها مما يتعلق بترجمة البرزنجي، على أنه منقول عن خطه» وكما في خط ابن المحب الطبري: ٦/ ٢٩٦: «لست مطمئناً إلى أن هذا من خطه، وليحقق بمقابلته على خط آخر له متى وجد».

ويتجاوز الزركلي في إثبات الخطوط قليلاً، فيثبت خطاً كُتب في عهد المستعين بالله: ١/ ٢٠٤، ويقول: «في إيراد هذا النموذج من الخطوط خروج عن قاعدة الاقتصار على خطوط المترجم لهم، إلا أن نفاسة الأثر، واتصاله المباشر بالمستعين بالله في القرن الثالث للهجرة حملاني على تجاوز ما التزمته».

ويضع صورة الصفحة الأولى من الجزء الرابع من كتاب (أدب القاضي والقضاء) للمترجم الهيثم بن سليمان: ٨/ ١٠٤.

يثبت نقشاً على إسطوانة في مسجد الأمير زياد بن المغيرة بمصر، وهو أثر عنه، ولا علاقة له بخطه. انظر: ٣/ ٥٥.

ويثبت صورة المعاهدة التي عقدها الأمير المغربي ابن يوسف مع القبطان ليون بزمان البندقي. وهي بخط محمد بن أحمد الرزيني. انظر ترجمة ابن يوسف: ٧/ ٣٠٦_٣٠٧.

الاستعانة بالمراجع الحية من ذرية المترجم، ومن أهل بلده، والمنتسبين إلى مذهب المترجم:

والزركلي كان يستعين بالمراجع الحية من أهل العلم من ذرية المترجم:

من ذلك قوله في هامش ترجمة فؤاد سيد ٥ / ١٦١: «عرفت صاحب الترجمة مدة طويلة، وتفضل ابنه (أيمن) فأتحفني برسالة مفصلة عنه استفدت منها». ومصدر ترجمة عبد الرحمن السفرجلاني ٣/ ٣٣٦: «من ترجمة مطولة كتبها للأعلام أحد أبنائه مشكوراً». والمصدر الرئيسي لترجمة محمد بن أسعد العظم ٦/ ٣٣: «من ترجمة كتبها للأعلام حفيده السيد محمد إحسان العظم» واستعانة الزركلي بالشيخ محمد بهجة البيطار في ترجمة والده بهاء الدين: ٦/ ٢١١، واستعانته بالشيخ أحمد محمد شاكر في الحصول على خط والده: ٦/ ١٥٦.

أو استعان بالعلماء من أهل بلده:

من ذلك ـ وهو كثير ـ ما تراه في ترجمة ابن لعبون (النجدي): ٦/ ١٠٩ إذ قال: «واستفدت زيادات عليه [ديوان النبط] من الأستاذ حمد الجاسر».

وما تراه في ترجمة المِرِغْتي: ٦/ ١٣٩ ـ ١٤٠، وهو مغربي من أهل (مرغت) من قرى السوس، فقال بعد ورود اختلاف شهرته في المصادر: المريغتي، المرغتي، المرغيثي: «قلت: وضبط (المرغتي) رأيته في (كناش) له بخطه فيه نواقص وفيه كثير من نظمه، أطلعني عليه في الرباط الأستاذ محمد المختار السوسي مصنف (المعسول) واستوقفني في الكناش تعريفه ابن عم له بالمرغتي، فسألت السوسي وهو حجَّة، فقال: هذا هو الصحيح: منسوباً إلى (مرغت) وهي قرية تبعد عن (تزنيت) بنحو (٢٠) كيلومتراً، وتعدّ من قبيلة الأخصاص في السوس».

ومـا تراه في ترجمـة الرُّندة: محمد بن عبد السـلام الرندي الرباطي: ٦/ ٢٠٧ إذ رجع الزركلي في ترجمته إلى رسالة خاصة كتبها للأعلام الأستاذ عبد الله الجرجي الرباطي.

وقول الزركلي في ترجمة الوَرْتَتَاني (التونسي) ٦/ ١٠٧: «وأفادني السيد عثمان الكعاك التونسي بأكثر ما جاء في هذه الترجمة».

وقوله في ترجمة الشاذلي خَزْنَه دار ٦/ ١٥٥: «وأعلمني بنسبه الشيخ محمد بشير الإبراهيمي». وانظر: ترجمة حبوس الأرسلانية: ٢/ ١٦٤ حيث استعان بعادل أرسلان وشكيب أرسلان لتصحيح ما جاء في ترجمتها بالطبعة الأولى، وطعَّم ترجمتها بفوائد منهما، وانظر: ٧/ ٩، ٩٧، ١٣٩.

أو استعان بالمنتسبين إلى مذهبه: من ذلك ترجمة حمزة بن علي الدرزي ٢/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩، حيث استعان بفؤاد سليم وفؤاد حمزة في الكتابة عن مذهب الدروز، وهما درزيان، وإن كان الأخير قد انقطعت صلته بالدروز.

ذكره نفائس المخطوطات:

ويذكر نفائس المخطوطات ونوادرها التي رآها في إقامته ورحلاته وأسفاره، من ذلك، وهو كثير، قوله في ترجمة الجَرْبَاذَقَاني ٦/ ٨٢: «له كتب منها كتاب (حرف العين في الضاد والظاء من كتاب الروحة ـ خ) رأيته في السليمانية (الرقم ٥١٩٤) وفي نهايته: «هذا الكتاب بخط المصنف» ولم يتسع وقتي لتحقيق ذلك».

وقوله في تعداد مؤلفات ابن العديم (سوق الفاضل ـ خ) رأيت منه مجلدين في مكتبة عارف حكمت بالمدينة»: ٥/ ٤٠، وقوله في ترجمة ابن قاضي شهبة ٢/ ٦١: «من تصانيفه (الإعلام بتاريخ الإسلام..) ظفرت بخمسة منها، يأتي بيانها في (المصادر) وفيها ٨/ ٢٨٠: «.. مخطوط في ثمانية مجلدات ضخام. اقتنيت منها الثالث والرابع بخطه، والثاني ونصف السادس والسابع، مصورات كلها بخطه، يبدأ الثاني من سنة (٣٠١) وينتهي السابع بسنة (٨٠٨)، وطريقته فيه أن يذكر أخبار السنة، ثم يأتي بالوفيات والتراجم مرتبة على الحروف» ويقول أيضاً في ترجمة ابن قاضي شهبة: «و(تاريخ) الأول والثاني منه يشتملان على الحوادث من بدء سنة (٧٤١) إلى نهاية (٧٨٥هـ)، اقتنيت تصويرهما. و(طبقات النحاة واللغويين ـ خ) اقتنيت تصويره؛ وانظر: ١/ ١٨٤.

وقوله عند إثبات خط سبط المارديني ٧/ ٥٤: «إجازة له في نهاية شرحه للامية ابن الهائم المسماة بالمقنع في الجبر والمقابلة. عندي» و٧/ ١٧٥.

وكثيراً ما كان يقول: اطلعت عليه أو رأيته، رأيتها[١]، عندي[٢]، اقتنيته[٣]. وكذلك ما أطلعه عليه أصدقاؤه أو أعلموه بها من خلال المراسلة؛

---

(١) انظر: ٦/ ١٠، ٧٣؛ ٢٥٤؛ ٧/ ٥، ٦، ٢١، ٧٣، ٨٧، ١٠٥، ١٤٠.
(٢) انظر: ٣/ ٣١٧؛ ٤/ ١٥٠؛ ٦/ ٩١، ١٧١، ٢٠٠، ٢٠٦، ٢٣٣.
(٣) انظر: ٢/ ٦١؛ ٤/ ٢٥٩؛ ٥/ ١٧٨؛ ٦/ ٤٣، ١٣١؛ ٧/ ١٩٠.

وهم: أحمد عبيد[1]، وعبد العزيز الميمني[2]، وسعيد الأفغاني[3]، وحمدي

---

(١) كقوله: أطلعني عليه السيد أحمد عبيد: ١/ ٦٢؛ ٢/ ٣٢٢؛ ٦/ ٩٣، وقوله في إثبات الخطوط: اللوحة مستعارة من السيد أحمد عبيد: ٣/ ٦٣، ١٢٨؛ ٤/ ٢٧١؛ ٥/ ١٠؛ ٦/ ٥٩؛ ٧/ ٦٠.
وقوله: مما اقتبسه الأستاذ أحمد عبيد: ٣/ ١٢١، ١٢٤؛ ٦/ ٢١٠؛ ٨/ ٢٣٦.
وقوله: مما ظفر به السيد أحمد عبيد: ٣/ ١٧٨، ٣٤٢؛ ٥/ ٤٢؛ ٦/ ١٣٤، ٢٣٠؛ ٧/ ١٢١.
وقوله: عن نهاية مخطوطة... في المكتبة العربية، انظر: ٥/ ١٦، ٢٣، ١٦٤؛ ٦/ ١٤٨، ١٦٣، ٢١٤.
وقوله: «مما أتحفني به السيد أحمد عبيد»: ٦/ ٩٧، ٢٠٩ وقوله: «أتحفني أحمد عبيد بنموذجين من خطه»: ٥/ ٤٣.
أو (عند عبيد) انظر: ٦/ ٢٠٤؛ ٧/ ١٢٣، ١٥١.
أو (مما أعارنيه السيد أحمد عبيد): ٦/ ٢٣٧، ٢٦٥.
أو (استخرجه السيد أحمد عبيد): ٦/ ٣١٦، ٣١٧؛ ٨/ ٢٢٩.

(٢) للميمني (مذكرات) أثبت فيها أسماء ما اطلع عليه في رحلاته من نفائس المخطوطات، وأماكن وجودها، ورأيه فيها، وقال الزركلي في المصادر والمراجع: ٨/ ٣٣٦: «..وتفضل فأطلعني على جزء منها في الرباط، حين زار المغرب الأقصى»، قلتُ: طبعت مذكرات الميمني بتحقيق الدكتور شاكر الفحام في مجلة معهد المخطوطات العربية باسم (نوادر المخطوطات العربية)، الجزء الأول من المجلد ٢٩ ربيع الأول ١٤٠٥هـ، وينظر ذكر مذكراته في الأعلام: ١/ ٤٠، ٥١، ٥٦، ٧٩، ١٤٣، ١٥٧، ١٧٢، ١٧٨، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٧؛ ٢/ ٦٦، ١٨٠، ٢٧٢؛ ٣/ ٨٦، ١٠٣، ٣٢٠؛ ٤/ ١١، ٧٢، ٧٦، ١٧٠، ٢٢٢، ٢٦٦، ٣٢٥؛ ٥/ ٣٨، ٤١، ٤٦، ٦٣، ١٧٨، ١٨٢؛ ٦/ ٤٦، ٦٠، ٦١، ٨٢، ٨٣، ٢٣٤، ٢٨١، ٢٨٢؛ ٧/ ٤٤، ٤٨، ١٠٨، ١٧٨، ٢٢١، ٢٧٥، ٢٩٠؛ ٨/ ١٩٨، ٢١١، ٢٤٠، ٢٥٦.

(٣) قال الزركلي في المصادر والمراجع: ٨/ ٣٣٦: «مذكرة الأفغاني: مخطوطة، لسعيد الأفغاني الدمشقي، تشتمل على بعض ما رآه من نفائس المخطوطات في رحلته سنة ١٩٥٦ إلى المغرب والأندلس. تفضل بإطلاعي عليها» انظر ذكرها=

السفرجلاني[١]، وحسن حسني عبد الوهاب[٢]، والدكتور شكري فيصل[٣]، ومحمد المختار السوسي[٤]، ومحمد الطاهر بن عاشور[٥]، ومحمد المنوني[٦]، ومحمد الشاذلي النيفر[٧]، ومحمد داود[٨]، وعبد الله الجراري[٩]، وأحمد خيري[١٠]، وحمد الجاسر[١١]، وزهير الشاويش[١٢]،

= في الأعلام: المجلد الأول: ٥٩؛ المجلد الثاني: ١٧٩، ١٨٠، ١٩٤، ٢١٨؛ المجلد السادس: ٨٢؛ المجلد السابع: ٢٧٥.

(١) انظر (الأعلام): ١/ ١١١؛ ٧/ ١٥٥؛ ٨/ ٢٢٥.

(٢) انظر: ١/ ٢٥، ١٣٩، ٢٣٠؛ ٤/ ٤٢، ٥٦، ٩٧، ١٤٧، ١٥٤، ١٦٩؛ ٥/ ١٨٠؛ ٦/ ١١، ١٠٢، ١٣٤، ١٨٨، ٢٠٥؛ ٧/ ١٣٣؛ ٨/ ٢٤٤.

(٣) انظر الأعلام: ٤/ ٣٠٥.

(٤) انظر: ٦/ ١٤٠.

(٥) انظر: ١/ ٤٨، ٢٧٣، ٣٢٦؛ ٦/ ١٧٢، ١٧٣، ٢٦٨.

(٦) انظر: ٥/ ١٧٢؛ ٦/ ١٩٧.

(٧) انظر: ١/ ١٠٢، ٢٢٠، ٢٣٧.

(٨) انظر: ١/ ١٤٥؛ ٥/ ١٥.

(٩) انظر: ١/ ٢٥٠؛ ٣/ ١٦٧؛ ٦/ ٢٠٧، ٣٠٤، ٣٠٥.

(١٠) انظر: ٤/ ١٣٠؛ ٦/ ٧.

(١١) انظر: ٢/ ٢٠٤؛ ٥/ ١٧٤.

(١٢) للشيخ زهير الشاويش خزانة كتب ضخمة، فيها نحو مئة ألف كتاب، منها خمسة آلاف كتاب نادر، لأنها من أوائل ما طبعته المطابع العربية، وبعضها طبع منذ مئتي سنة، وفيها نحو عشرة آلاف مخطوط، وفيها ألوف الوثائق التاريخية والسياسية والعلمية، وفيها ما يخص بلاد الشام والسعودية، وهي أكبر خزانة كتب خاصة في بلاد الشام إن لم تكن في الوطن العربي. قال فيها الزركلي في المصادر والمراجع، آخر صفحة فيها: «مكتبة الشاويش: مكتبة زهير الشاويش. اطلعت على بعض مخطوطاتها في بيروت» وهو يقول عند ذكر مخطوطاتها: «في خزانة زهير الشاويش ببيروت، في مكتبة زهير الشاويش، عند السيد زهير الشاويش، عند الشاويش، في مكتبة زهير الشاويش، أطعلني عليه زهير الشاويش» انظر الأعلام: ١/ ٧٣، ٨٨، ٨٩، ٩٢، ٢٢٢، ٢٩٣، ٣٣٢؛ =

وإبراهيم شَبُّوح[١]، ومحمد إبـراهيم الكتاني[٢]، وعبد الحفيظ الفاسي[٣]، ومحمد العابد الفاسـي[٤]، وإدريـس الماحي الإدريسـي[٥]، وسـعد محمد حسن[٦]، وأبو اليسر عابدين[٧].

أما العالمان بالمخطوطات العصاميان الكبيران: فؤاد سيد ومحمد رشاد عبد المطلب، فقد ذكرهما في مقدمة الكتاب: ١/ ١٨ وشكرهما وقال: «كان كلاهما نعم العون على ما صُوِّر لي من خطوط الدار والمعهد».

إشارته إلى المطبوع والمخطوط من مؤلفات المترجم:

والـزركلي عند عدِّه أسماء مؤلفات المترجَم، يشير إلى المطبوع منها بـ(ط)، والمخطوط المحفوظ في بعض خزائن الكتب العامة أو الخاصة بـ(خ)، أما الكتاب المفقود، أو مجهول المصير إلى أن يظهر، فلا يلحقه بأحد هذين الحرفين، وقد يشـير إلى رقم المخطوط ومكان وجوده، كما ترى ذلـك في ترجمة ابن الجَلاَّب: ٤/ ١٩٣، حين ذكر كتابه (التفريع في الفقه مذهب مالك ـ خ) في خزانة الجلاوي (الـرقم ٢٧) في الرباط، نسـخة قديمـة. والذي تـراه في ترجمة باصَبْرين: ٤/ ٢٦٠، حين ذكر كتابه (قرة العين في دفع الشين بالزين ـ خ) وأشار إلى أنه في جامعة الرياض، (الرقم ١٩٢١)، وما تراه في ترجمـة

= ٤/ ١٧٣، ٢٤٩، ٣٠٩؛ ٥/ ٣٠١؛ ٦/ ٣٧، ١٢٥، ١٩٥، ٢٠١، ٢٩٥؛ ٧/ ٦٩؛ ٨/ ١٧١. والمستدرك الثاني اللوحة ١٥٧٦.

(١) كقوله: «استخرجها للأعلام، اقتبسه للأعلام، أطلعني السيد إبراهيم شبوح القيرواني» انظر: ٣/ ١٠٠؛ ٤/ ٣١٨؛ ٥/ ٣١٦؛ ٧/ ٨٢، ٨٣؛ ٨/ ١٣٤، ١٤٨.

(٢) انظر: ١/ ١٨٠؛ ٦/ ٧٣، ٢١٦؛ ٧/ ١٠٦.

(٣) انظر: ١/ ١٣٥، ١٦٨، ١٩٠؛ ٣/ ٢٦٧، ٢٧٥، ٢٨٠؛ ٤/ ٣٣، ١٧٤؛ ٦/ ٩٦.

(٤) انظر: ٥/ ١٢٧؛ ٦/ ١١٩، ٢٣٨.

(٥) انظر: ٧/ ٦، ٧٩.

(٦) انظر: ٢/ ١٧٨؛ ٧/ ٥١؛ ٨/ ٢٣٤.

(٧) انظر: ٨/ ١٥٠.

السمهودي: ٤/ ٣٠٧ حين ذكر كتابه (جواهر العقد ـ خ) وقال: «رأيت نسخة منه في مغنيسة (الرقم ٢٨٤)».

وقد يشير أيضاً إلى تاريخ الفراغ من نسخ المخطوط من قبل المؤلف، كما ترى ذلك في ترجمة السَّرْميني: ٤/ ٢٩٤ حين قال في كتابه (درر الأبكار في وصف الصفوة الأخيار ـ خ): «بخطه في دار الكتب (١٠١ تاريخ) فرغ منه في ذي الحجة ٧٤١»، وما تراه في ترجمة النابلسي: ٤/ ٢٠٢ حين ذكر كتابه (لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية ـ خ)، وقال: «بخطه في التيمورية (٣٧٢ مجاميع) في (١٧) لوحة، فرغ منه سنة ٦٥٦» أو يشير إلى تاريخ كتابته من قبل النُّسَّاخ، كما ذكر في كتاب (الرعاية الكبرى ـ خ) لابن حمدان: ١/ ١١٩: «منه نسخة كتبت سنة ٧٠٦هـ في شستربتي (٣٥٤١)». وقد يشير إلى عدد صفحات المخطوط، كما ذكر ذلك في كتاب (الفتوح) لابن أعثم: ١/ ٢٠٦: «في ٣٦١ ورقة في شستربتي (الرقم ٣٧٢٧) ونسخة في جامعة الكويت مصورة عن استانبول» وقد يذكر حال المخطوط، ونفاسته أو رداءته كقوله في مخطوط (نشأة السلافة) للطبري: ٤/ ٤٤: «.. والنسخة كثيرة التحريف» وقوله في مخطوط ديوان ابن الخيمي: ٦/ ٢٥٠: «منه نسخة نفيسة رأيتها في مكتبة فلورانس (الرقم ١٨٦)».

ولا يذكر أحياناً أي كتاب للمترجم، مع أن له مؤلفات كما فعل في ترجمة علي بن ثابت: ٤/ ٢٦٨، حيث ذكر أن له نحو (٢٨) كتاباً، ولم يذكر اسم واحد منها.

التمييز بين الكتب المتشابهة في الاسم:

وعند تشابه اسم الكتاب بين مؤلِّف وآخر، يشير ـ غالباً ـ إلى ذلك، مثل قوله في كتاب (الإرشادات إلى أماكن الزيارات) لابن الحوراني: ٤/ ٢٠٣: «وهو غير الكتاب المسمى بهذا الاسم، من تأليف محمود بن محمد الزوكاري المتوفى سنة ١٠٣٢».

وقوله في كتاب (صفة الصفوة) لابن مرزوق: ٤/ ٢١٤: «اختصر به (حلية الأولياء) وهو غير صفة الصفوة لابن الجوزي» وقوله في كتاب (الرحمة في الطب والحكمة) للصُّبُنْري: ٧/ ٣١٣ «وهو غير كتاب السيوطي المسمى بهذا الاسم»، وهذا يفيد العاملين في المخطوطات.

إشارته إلى مَن جمع شعر المترجم:

وفي ترجمة الشعراء، يذكر - في الأغلب - مَن جمع شعرهم، كقوله في ترجمة الشاعر عروة بن أُذينة ٤/ ٢٢٧: «وجمع الدكتور يحيى الجبوري ما وجد من شعره في (ديوان - ط)» وقوله في ترجمة القتَّال الكِلابي ٤/ ١٩٠: «فجمع معاصرنا الدكتور إحسان عباس ما ظفر به مفرّقاً من أخباره وشعره وسماه (ديوان القتال الكلابي)، وقوله في ترجمة عمرو بن معدي كرب ٥/ ٨٦: «جمع هاشم الطعان ما ظفر به من شعره في (ديوان عمرو بن معدي كرب - ط) ومثله صنع مطاع الطرابيشي».

ذكره محقق الكتاب:

وقلّ أن يذكر اسم محقق كتاب المترجم، نحو قوله في كتاب (حجّة القراءات) لابن زنجلة ٣/ ٣٢٥: «حققه الأستاذ سعيد الأفغاني». وقوله في كتاب (حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء) للزَّوزَني ٤/ ١٢١: «حققه محمد جبار المعيبد في بغداد».

تصحيح نسبة الكتب إلى مؤلفيها:

ويصحح نسبة الكتب، كقوله في ترجمة ابن عرضون ٦/ ٨٩: «ونسب إليه (اللائق في الوثائق) وهو لأخيه أحمد وترجمته في الأعلام».

وقوله في ترجمة الفاسي: محمد بن عبد القادر ٦/ ٢١٢: «ونسبت إليه الرسالة المسماة (ذكر بعض مشاهير أهل فاس في القديم) وهي من تصنيف أخيه عبد الرحمن».

الشك في اسم الكتاب:

وعندما يشك في اسم الكتاب يومئ إلى ذلك، فيقول في ترجمة الحرَّاق: محمد بن حمد العلمي ٧/ ٧٣: «له (ديوان العلمي)... و(ديوان رسائل ومنظومات ـ خ) في خزانة الرباط (٢٧٥د) لم أره ولعله الأول؟».

ويقول في ترجمة الشِّرواني ٧/ ٨٨: «له كتب منها (روضة العطر ـ خ) في الطب مجلد ضخم (رأيته في مكتبة الفاتيكان ٨٧٧ عربي) ومنه نسخة غير مسماة (أو لعلها كتاب آخر له، عربي في الطب أيضاً) رأيتها في اللورنزيانة، بفلورنس (رقم ٢٤١ شرقي) ولم تتيسر لي مقابلتها بالأولى».

تعداد مجلدات الكتاب:

وقد يذكر عدد مجلدات الكتاب، كقوله في ترجمة المامقاني ٦/ ٩٣: «ذرائع الأحلام في شرح شرائع الإسلام» في مجلدين ضخمين»، وقوله في ترجمة الشريف الرضي ٦/ ٩٩: «له (ديوان شعر) في مجلدين».

إظهار رأيه في بعض كتب المترجم:

ويسوق الزركلي ـ أحياناً ـ رأيه في بعض الكتب، فيقول في كتاب (وفيات الأعيان) لابن خلكان ١/ ٢٢٠: «وهو أشهر كتب التراجم ومن أحسنها ضبطاً وإحكاماً» وقال في الهامش: «انتقده ابن كثير في البداية والنهاية ١١/ ١١٣ في كلامه على ابن الراوندي بقوله: «وقد ذكره ابن خلكان في الوفيات وقلس عليه، ولم يخرجه ـ أو يجرحه ـ بشيء، ولا كأن الكلب أكل له عجيناً!، على عادته في العلماء والشعراء، فالشعراء يطيل تراجمهم، والعلماء يذكر لهم ترجمة يسيرة، والزنادقة يترك زندقتهم».

وقال في ترجمة اليزدي ٤/ ٨٠: «وتصانيفه سهلة العبارة تمتاز بحسن الإيجاز» وفي ترجمة عبد الله حسين ٤/ ٨١: «وألف كتباً كثيرة في المناسبات يعوزها العمق والتحقيق».

وكتب في كتاب البسّام (تحفة المشتاق من أخبار نجد والحجاز والعراق) ٤/ ١٣٣ : «نقل فيه كتاب ابن عيسى (تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد) نقلاً يكاد يكون حرفياً. وزاد فيه أخباراً بأسلوب أقرب إلى العامية».

وفي كتاب (الجواهر في تفسير القرآن الكريم لطنطاوي جوهري ٣/ ٢٣٠ : «نحا فيه منحى خاصاً، ابتعد في أكثره عن معنى التفسير، وأغرق في سرد أقاصيص وفنون عصرية وأساطير، وجعل لسائر كتبه عناوين ضخاماً وأكثرها رسائل».

وعلق على كتاب (الكامل) لابن الأثير ٤/ ٣٣١ : «اثنا عشر مجلداً، مرتب على السنين بلغ فيه عام ٦٢٩هـ، وأكثر مَن جاء بعده من المؤرخين عيال على كتابه هذا».

وجاء في هامش ترجمة الخَرَاشي محمد بن عبد الله ٦/ ٢٤٠ ـ ٢٤١ : «. . . وفي الزيتونة: ٤/ ٣١٦ ـ ٣١٩ (الخرشي بفتحتين كما هو بخطه) وفي مناقب الحضيكي ٢/ ٧٧ (الخرشي) بكسر الخاء نسبة إلى خرشة من قرى مصر، وسماه (محمد بن محمد) وعبارة التاج ٤/ ٣٠٥ : «وأبو خراش، كسحاب، قرية بالبحيرة من أعمال مصر، منها من المتأخرين شيخ مشايخنا أبو عبد الله الخراشي» قلت: التاج [تاج العروس] في هذا وأمثاله ثقة إلا عند تعارضه مع الخط. ولتراجع مخطوطة الزيتونة؟».

نثره الفوائد العلمية في التراجم:

ونثر الزركلي فوائد كثيرة من خلال التراجم، ومن ذلك:

١ ـ حديثه في (الإمامية) عند ترجمته للحسن بن علي رضي الله عنه ٢/ ١٩٩ : «. . . وثاني الأئمة الاثني عشر» قال في الهامش: «الإمامية: فرقة من المسلمين، تقول بإمامة علي رضي الله عنه، بعد النبي ﷺ، وأنها لأبناء علي يتوارثونها، وهم متفقون على أن الأئمة اثنا عشر. وأنهم ختموا بالمهدي المنتظر، وفي أسمائهم خلاف، والأشهر في تسميتهم أنهم ١ ـ الإمام علي،

٢ـ الحسن، ٣ـ الحسين ٤ ـ زين العابدين ٥ ـ الباقر، ٦ ـ الصادق، ٧ـ الكاظم، ٨ـ الرضا، ٩ـ الجواد، ١٠ ـ الهادي، ١١ ـ العسكري، ١٢ ـ المهدي».

٢ ـ تعريفه بالدروز من خلال تعليقين على ترجمة حمزة بن علي: ٢/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩ وهو من مؤسسي المذهب الدرزي، والتعليق الآخر خلاصة مركزة عنهم، وهي أطول حاشية في الكتاب، قال في بدايتها: «كنت قد جمعت طائفة من النصوص والمصادر للرجوع إليها عند كتابة هذه الترجمة، ومنها ما جاء في دائرة المعارف البريطانية: ٨/ ٦٠٣ ـ ٦٠٦ مادة (دروز) ودائرة البستاني (دروز) وعرضتها على صديقي الشهيد (فؤاد سليم) وهو من المثقفين المنسوبين إلى المذهب الدرزي فقال: إن في الدائرتين البريطانية والبستانية أغلاطاً، وصحّح ما أخذته عنهما منهما، وأضاف من عنده زيادات مما اشتملت عليه الحاشية، وأطلعت بعد ذلك صديقي أيضاً (فؤاد حمزة) وهو من أسرة درزية معروفة في لبنان، وكان يومئذ في الرياض ـ بنجد ـ وانقطعت صلته بالعقيدة التي نشأ عليها، كما ذكر لي مراراً، وسألته عن رأيه في الترجمة والحاشية فكتب لي: «هذا أصح ما كتب في الموضوع حتى الآن، وهو في الحقيقة ما يذهب إليه الجماعة».

٣ ـ تعريفه بالمعتزلة، في ترجمة واصل بن عطاء: ٨/ ١٠٨ ـ ١٠٩: «رأس المعتزلة، ومن أئمة البلغاء والمتكلمين، سُمّي أصحابه بالمعتزلة لاعتزاله حلقة درس الحسن البصري، ومنهم طائفة تنسب إليه، تسمى (الواصلية) وهو الذي نشر مذهب الاعتزال في الآفاق..» فقال الزركلي في الهامش: «كتب ابن حجة في (ثمرات الأوراق) ما موجزه: المعتزلة من فرق الإسلام، يرون أن أفعال الخير من الله، وأفعال الشر من الإنسان، وأن القرآن مُحْدَث ليس بقديم، وأن الله تعالى غير مرئي يوم القيامة، وأن المؤمن إذا ارتكب الذنب كشرب الخمر وغيره، يكون في منزلة بين منزلتين، لا مؤمناً ولا كافراً، ويرون أن إعجاز القرآن في (الصرفة) لا أنه في نفسه مُعْجِز، أي أن الله لو لم يصرف العرب عن معارضته لأتوا بما يعارضه، وأن من دخل النار لم يخرج منها. وسُمُّوا معتزلة لأن واصل بن عطاء كان ممن يحضر درس الحسن البصري، فلما

قالت الخوارج بكفر مرتكب الكبائر، وقالت الجماعة بأن مرتكب الكبائر مؤمن غير كافر وإن كان فاسقاً، خرج واصل عن الفرقتين، وقال: إن الفاسق ليس بمؤمن ولا كافر، واعتزل مجلس الحسن، وتبعته جماعة، فعُرفوا بالمعتزلة. ومازال مذهبهم ينمو إلى أيام الرشيد، فوضعه موضع البحث بين العلماء.

ولما ولي المأمون ناصر المعتزلة وعاقب مخالفيهم، وتابعه المعتصم ثم الواثق، ولما كانت أيام المتوكل كتب إلى الآفاق بمخالفة القائلين بالاعتزال. وضعف شأن المعتزلة حتى ذهبت بمذهبهم الأيام. واشتهر منهم فضلاء وأعيان؛ كالجاحظ والزمخشري، والماوردي، والصاحب بن عباد، والفراء، والسيرافي، وابن جني، وأبي علي الفارسي، وابن أبي الحديد... وآخرين كثيرين».

وعلّق على إحالة البكري ٢/ ٧١: «ليست هذه النسبة قاصرة على سلالة أبي بكر الصديق رضي الله عنه كما يتوهم بعض الناس، وإنما هي كما في أنساب السمعاني ولباب ابن الأثير وغيرهما، نسبة إلى أبي بكر الصديق أو (بكر بن وائل) أو (بكر بن عبد مناة) أو (بكر بن عوف) النخعي، أو (أبي بكر بن كلاب) واسمه عبيد، ولكل من هؤلاء نسل اشتهر بعض رجاله بالبكري».

وقال في هامش ترجمة زين الدين الآمدي المتوفى عام (٧١٤هـ) ٤/ ٢٥٧: «وفي المجلد السادس من مجلة المقتبس بحث لأحمد زكي (باشا) قال فيه: إن زين الدين الآمدي سبق (برايل) إلى اختراع طريقته في الكتابة بنحو ستمئة سنة، لأن برايل الفرنسي اخترع طريقته في نحو سنة ١٨٥٠م» وقد قال الزركلي في ترجمة الآمدي: «... عمي في صغره، وكان آية في قوة الفراسة وحدة الذهن وتعبير الرؤيا، عارفاً بلغات كثيرة.. احترف التجارة بالكتب وجمع كثيراً منها. وكان كلما اشترى كتاباً أخذ ورقة وفتلها فصنعها حرفاً أو أكثر، من حروف الهجاء لعدد ثمن الكتاب بحساب الجُمّل، ثم يلصقها على طرف جلد الكتاب، ويجعل فوقها ورقة تثبتها، فإذا غاب عنه ثمنه مسَّ الحروف الورقية فعرفه».

تثبُّته وتمحيصه عند النقل:

والزركلي في تراجمه لا ينقل من المصادر دون تثبُّتٍ وتمحيص، بل يتثبّت ويمحّص، ويناقش ويرجّح ويصحّح ما فيها، فمن المناقشة والترجيح

قوله في هامش ترجمة ابن ملك ٤/ ٥٩ : «. . . ولم يَرِد فيما تقدم من المصادر ذكرٌ لسنة وفاته، وانفرد ابن العماد في شذرات الذهب: ٧/ ٣٤٢ فجعله في وفيات سنة (٨٥٥هـ) وقال (تقريباً) وعنه أخذت في الطبعة الأولى من الأعلام وأخذ غيري، إلا أن صاحب هدية العارفين: ١/ ٦١٧ ظفر على ما يظهر بنص يعوّل عليه، وإن لم يذكر مصدره فقال: «كان يسكن ويدرس في بلدة تيرة من مضافات إزمير، وبها توفي سنة (٨٠١هـ)، وأرخوا وفاته ببرهان الأتقياء فرجحت روايته على رواية الشذرات التقريبية».

وقوله في هامش ترجمة أبي الحسن الجرجاني المتوفى عام (٣٩٢هـ) ٤/ ٣٠٠: «وفيات الأعيان: ١/ ٣٢٤ وفيه روايتان في وفاة الجرجاني إحداهما سنة (٣٦٦) ورجّحها ابن خلكان، وأخذت بترجيحه في الطبعة الأولى، ثم تبين خطؤه في هذا الترجيح بعد الاطلاع على قول الثعالبي: إنه تصرفت به الأحوال في حياة الصاحب بن عباد (بعد وفاته) والثعالبي معاصر لهما، والصاحب توفي سنة (٣٨٥هـ) فترجحت الرواية الثانية. وأول من نبه على هذا الخطأ الإمام الذهبي في سير النبلاء ـ خ. الطبقة الحادية والعشرون [١٧/ ١٩]، ولكنه ذكر وفاته سنة (٣٩٦)»[1] وقال: «ووهم ابن خلكان فصحح أنه توفي سنة (٣٦٦)، وإنما ذلك جرجاني آخر، وهو المحدث أبو الحسن علي بن أحمد بن عبد العزيز الجرجاني» ورجحت رواية ابن خلكان الثانية في وفاة الجرجاني سنة (٣٩٢) لأخذ السبكي بها في طبقات الشافعية: ٢/ ٣٠٨ـ ٣١٠ لاتفاقها مع رواية ياقوت في إرشاد الأديب: ٥/ ٢٤٩. أما تقدير عمره فأخذته من رواية ابن خلكان الثانية أنه دخل نيسابور مع أخيه محمد سنة (٣٣٧) وهو صغير بالغ. وانظر يتيمة الدهر: ٣/ ٢٣٨؛ والبداية والنهاية: ١١/ ٣٣١؛ وشذرات الذهب: ٣/ ٥٦».

وفي هامش ترجمة السَّرَخْسي ٧/ ٢٤ ـ ٢٥: «قلت: تناقلت المصادر

---

(١) قلتُ: وفي تاريخ الإسلام للذهبي وفاته سنة ٣٩٢هـ، كما ذكر الزركلي. انظر: سير أعلام النبلاء: ١٧/ ٢١؛ وانظر: تاريخ الإسلام (٣٨١ ـ ٤٠٠)، ص٢٧١ـ ٢٧٣.

وفاته سنة ٥٤٤، واستوقفني ما في الجواهر المضية: ٢/ ١٢٩ من أن فقهاء حلب تعصبوا عليه، وكان أشدهم افتخار الدين بن عبد المطلب بن الفضل الهاشمي المتوفَّى سنة ٦١٦، فرجعت إلى ترجمة هذا فوجدت ولادته سنة (٥٣٩) ولا يعقل أن تكون وفاة السرخسي بعدها بخمس سنوات، ثم رأيت في نهاية مخطوطة عن الجزء الأول من كتابه (الوسيط) أنه قرئ عليه سنة (٥٦٣) أو بعدها.. وأظفرني أخيراً أحد الأصدقاء بنص في كتاب نهر الذهب في تاريخ حلب: ٢/ ٢٢٢ يقول: «فتولى التدريس في المدرسة الحلاوية الإمام الفاضل رضي الدين محمد بن محمد أبو عبد الله السرخسي، كان قَدِم حلب فولاّه محمود زنكي التدريس، وكان في لسانه لُكْنَة، فتعصّب عليه جماعة من الفقهاء الحنفية، فصغَّروا أمره عند نور الدين، فمات يوم الجمعة آخر جمعة من رجب سنة (٥٧١)» وهذا يتفق مع سن افتخار الدين، ومع تاريخ قراءة الجزء الأول من الوسيط عليه، فليصحح ما في المصادر الأخرى».

وفي هامش ترجمة ابن طاهر المتوفَّى سنة (٥١٩) ٦/ ١٧٢: «بغية الوعاة (٤٩) وفيه أنه (ولد سنة (٥١٢) وقدم دمشق سنة (٥٥٤) ومات ببغداد سنة (٦١٩)» وعنه أخذت في الطبعة الأولى، ثم ظهر لي أن هذه التواريخ كلها خطأ، لقول ابن الأبار في التكملة (١٥٣)، الترجمة (٥٤٣) «وجدت سماعه لكتاب التقصي لأبي عمر بن عبد البر في سنة (٤٩٤) وقوله: «قال ابن عساكر: وقد رأيته يعنى بدمشق، وأنا صغير ولم أسمع منه شيئاً، وخرج إلى بغداد، فأقام فيها إلى أن توفي سنة (٥١٩)» وابن عساكر ولد سنة (٤٩٩) فمن المعقول أن يكون رأي ابن طاهر حوالي سنة (٥١٠)، ولا تتفق رؤيته له وهو صغير مع رواية السيوطي في بغية الوعاة بوجه من الوجوه».

وفي هامش ترجمة الزاهد المِيرُتُلي المتوفَّى سنة (٦٠٤هـ) ٧/ ٣٢٢: «ابن الأبار في تحفة القادم، والتكملة (٧٥٤) ت(٢١٤٧) وفيها وفاته سنة (٦٠٤)، وهو في المغرب في حلى المغرب: ١/ ٤٠٦ (موسى بن عمران) نسبة إلى جده، وعرفه بالمارْتُلي ـ براء ساكنة وتاء مضمومة ـ ومثله في صفة جزيرة الأندلس المنتخب من الروض المعطار (١٧٥)، وفيه خبر لطيف عنه مع

المنصـور الموحدي، وسماه صاحب الذخيرة السنية (٤٣) (موسى بن عمران) أيضاً، إلا أنه عرَّفه بـ(المارتلي) وأرَّخ وفاته في صفر (٦٠٣) وأراني أميل إلى ترجيحه، لانفراده بتعيين مكان الوفاة والدفن. وفي هذه المصادر نموذجات مختلفة من نظمه».

وفي هامش ترجمة البَليدي ٧/ ٦٨ : «قلت: سبقت الإشارة إلى (البليدي) (الاسم دون ترجمة) مضبوطاً بصيغة التصغير، ورأيت بعد ذلك ما نبَّه إليه تيمور باشـا في الخزانة: ٣/ ٣٩ من ورود نص في سلك الدرر: ٤/ ١٠٥، وهو: «البليدي بفتح الباء، ورجح تيمور أن يكون المقصود صاحب الترجمة، واطلع السيد حسن حسني عبد الوهاب التونسي على هذه الكلمة فكتب: الصواب ما قاله تيمور».

تنقية بعض كتب التراجم مما علق بها من أوهام:

وينقِّي الزركلي بعض كتب التراجم مما علق بها من وَهْم أو تصحيف أو تحريف، ومن ذلك: ولادة ابن الأحمر، إسماعيل بن فرج ووفاته (٦٧٧ ـ ٧٢٥هـ) ١/ ٣٢١: حيث قال في الهامش: «. . . والنجوم الزاهرة: ٩/ ٢٥٠ وفيه مولده سنة (٦٨٠) ووفاته (٧٢٠هـ). ومثله في الدرر الكامنة: ١/ ٣٧٥ وهو خطأ. وفي تاريخ دول الإسلام: ٣/ ٨ مقتله سنة (٧٢٧) خطأ أيضاً» فهو قد صحح ما جاء في النجوم الزاهرة، والدرر الكامنة، وتاريخ دول الإسلام.

ومن ذلك أيضاً تصحيحـه لكشف الظنون، وبروكلمان، وسركيـس والأزدي، حيث جعلوا ابن جَهْضَم: علي بن عبد الله المتوفَّى عام (٤١٤هـ) والشَّطَنوفي: علي بن يوسف المتوفَّى عام (٧١٣) شخصاً واحداً، وبينهما ثلاثة قرون، فقال في: ٤/ ٣٠٤: «قلت: كتاب (بهجة الأسرار) لابن جهضم هذا، غير كتاب (بهجة الأسرار ـ ط) للشطنوفي (علي بن يوسف) المتوفَّى سنة (٧١٣) [انظر ترجمته: ٥/ ٣٤] وقد جعلهما صاحب كشف الظنون، ص٢٥٦ شخصاً واحداً، وبينهما ثلاثمئة عام، وتابعه في خطأه بروكلمان Brock.I: 56I (435) وسركيس في معجم المطبوعات (١١٢٦)، ومشتبه النسبة للأزدي (٧٨ـ٧٩)».

وصحّح خطأً في (البداية والنهاية) فقال في هامش ترجمة الجزري، محمد بن إبراهيم ٥/٢٩٨: «...والبداية والنهاية: ١٤/ ١٨٦ وجاء فيه (الجوزي) وهو تصحيف».

وصحح خطأين في شذرات الذهب فقال في هامش ترجمة عبد الرحمن ابن جبلة الأبناوي أو الأنباري ٣/ ٣٠٢: «وفي شذرات الذهب: ١/ ٣٢٢ الأساوي تحريف الأبناوي» وقال في هامش ترجمة الخُوَيِّي محمد بن أحمد ٥/ ٣٢٤: «ووقع اسمه في الشذرات: ٥/ ٤٢٣ شهاب الدين أحمد، والصواب (محمد)».

وجاء في ترجمة العوَّام بن شَوْذَب ٥/ ٩٣: «...كان حياً يوم غبيط المروت» فعلَّق الزركلي في الهامش: «التاج: ٥/ ١٩٠ ووقع فيه اسم المكان (غبيط المدرة) كما في القاموس، كلاهما تصحيف، وفي معجم البلدان: ٦/ ٢٦٧ (غبيط الفردوس) تصحيف أيضاً، والصواب في الجميع (غبيط المَرُّوت) بفتح الميم وتشديد الراء. انظر معجم البلدان: ٨/ ٣١».

وقال في ترجمة ابن جَزْلَة المتوفَّى سنة (٤٩٣) ٧/ ١٦١: «..وتاريخ الحكماء للقفطي (٢٣٩) ووقعت فيه وفاته سنة (٤٧٣)، ومثله في مختصر ابن العبري، والتصحيح من خط ابن قاضي شهبة في الإعلام».

وعلّق على ترجمة أمين الجندي ٢/ ١٦: «..وفي الآداب العربية للأب لويس شيخو أنه: أمين بن خالد بن عبد الرزاق، والصحيح ما أثبتناه (أمين بن خالد بن محمد بن أحمد) أما عبد الرزاق فهو عمه لا جده».

وعلَّق على ترجمة أبي الليث السمرقندي: نصر بن محمد المتوفَّى سنة (٣٧٣هـ) ٨/ ٢٧: «..قلت: في بعض فهارس المكتبات: من تصنيفه (بحر العلوم ـ خ) بضعة مجلدات في التفسير والصواب أن (بحر العلوم) من تأليف سمرقندي آخر اسمه (علي) من أبناء المئة التاسعة، كما في كشف الظنون (٢٢٥)».

وقال في هامش ترجمة البيَّاسي: يوسف بن محمد المتوفَّى عام (٦٥٣هـ) ٨/ ٢٤٩: «..وخلط صاحب هدية العارفين: ٢/ ٥٥٤ ترجمة هذا بترجمة

البلوي، يوسف بن محمد المتوفى سنة (٦٠٤) فجعلهما واحداً».

وانظر حاشيته الطويلة على ترجمة ابن حَمُّويَه: ٨/ ٢٤٩ لتحقيق نسبة كتاب (تقويم النديم وعقبى النعيم المقيم ـ خ) إليه، وبيان أوهام المؤلفين التي علقت بصاحب الترجمة وكتابه.

قلتُ: وانظر تصحيحات الزركلي لكتاب (كشف الظنون) ١/ ١٩٧، ٢٠٣، ٢٣٠، ٢٧٢، ٣٢٤، و٢/ ١٣٢، ٢١٠، ٢١٦، ٢٥٦، ٣٠٧، و٣/ ١٠٣، و٦/ ٤٠، ١٠٠، ٢٠١، ٢٣٧، ٢٤٩، ٢٧٥، ٢٨٩، ٢٩٦، و٧/ ١٦٦، ١٨٢.

وإيضاح المكنون: ١/ ١٥٨، ٢٧٤، و٢/ ٣٨، و٦/ ١١٨، ٢٩٦، و٧/ ١٥٦.

وهدية العارفين: ١/ ١٥٨، ١٦٠، ١٧٣، ١٧٦، ١٧٧، ١٩١، ١٩٦، ٢١٢، ٢٣٠، ٢٥٤، ٣١٤، ٣٣٠، و٢/ ٦٢، ١٨٧، ٢٠٥، ٣٠٧، ٣١٨، ٣٢٣، و٦/ ٢٣٧، ٢٨٥، ٢٨٩، و٧/ ١٥٥، ١٧٧، ١٨٢، ٢٣٣، ٢٧١، ٣٤٨، و٨/ ١٤١، ١٥٥، ١٦٦، ٢١٦، ٢٢١، ٢٢٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٥٣.

رجوعه عن رأيه إذا اتضح غلطه:

وإذا ظهر للزركلي خطأٌ كتَبَه، فسرعان ما يتراجع عنه، ويشير إلى ذلك، ويشير أيضاً إلى مَنْ نبَّهه عليه، من ذلك ما جاء في ترجمة العادل نور الدين ٧/ ١٧٠: «قلت: وقع في الطبعة الأولى من الأعلام أنه دفن في مدرسته (العادلية) ونبهني الأستاذ محمد كردعلي إلى أن العادل المدفون في المدرسة (العادلية) هو أخو السلطان صلاح الدين، أما العادل نور الدين صاحب الترجمة، فدفن في مدرسته: النورية بالخياطين في دمشق».

ومنه ما جاء في ترجمة الأميرة حَبُوس الأرسلانية: ٢/ ١٦٤ من أنها (شهابية) وذلك في الطبعة الأولى فقال: «ما كادت تصدر الطبعة الأولى من هذا الكتاب وفيها ذكر الأميرة (حبوس) وأنها (شهابية) حتى تلقيت رسالتين: الأولى من الأمير عادل أرسلان من معقل الثورة على الفرنسيين ـ بسورية ـ

تاريخها (٧ رجب ١٣٤٦)، والثانية من شقيقه الأمير شكيب أرسلان من لوزان ـ بسويسرة ـ تاريخها (٢١ مارس ١٩٢٨م). ينفيان معاً نسبتها إلى آل شهاب، ويبرهنان على أنها أرسلانية، والقول ما ذهبا إليه، فإنها جدة والدهما لأمه، وفي الرسالتين فوائد للتاريخ: جاء في رسالة الأمير عادل: «وحبوس هي التي غضبت على وكيل أملاكها زيدان جد جرجي زيدان الشهير، فكان سبب نزوحه إلى بيروت، وكان نزوحه سبب ظهور المؤرخ الشهير..».

ومنه أيضاً ما جاء في ترجمة اليوسي: الحسن بن مسعود المتوفى سنة (١١٠٢هـ) ٢/ ٢٢٣: «الجبرتي: ١/ ٦٨ وفيه: قدم مكة حاجاً سنة (١١٠٢) وتوفي بالمغرب سنة (١١١١)» وعنه أخذنا وفاته في الطبعة الأولى، ثم صححناها برواية صفوة من انتشر (٢٠٦ ـ ٢١٠)، لقول صاحب فهرس الفهارس في ترجمته: ٢/ ٤٦٤ ـ ٤٦٩ «اليوسي المتوفى عام (١١٠٢) وما في عجائب الآثار للجبرتي من أنه مات عام (١١١١) غلط..».

ومنه ما جاء في ترجمة الشِّنْقيطي التُّركزي، محمد محمود ٧/ ٨٩: «سبق ضبط (الشنقيطي) بفتحة على الشين والصواب كسرها كما في التاج: ٥/ ١٧٠، فلتصحح حيث وجدت، والشنقيطي بالقاف المعقودة، وقد تكتب بالجيم (شنجيطي) و(تركز) اسم قبيلة».

إشارته إلى المتشابه من الأسماء والتفريق بينها، وذكره الكتب التي أُلِّفت في المترجم:

من عادة الزركلي أن يختم الترجمة بأمور أهمها:

١ ـ إشارته إلى وفاة المترجم ومدفنه.

٢ ـ ذكر مؤلفاته.

٣ ـ إشارته إلى مدائح ومراثي المترجم من معاصريه.

٤ ـ إشارته إلى التشابه بين المترجم وغيره في الاسم، والتفريق بينهما،

كقوله في ابن خروف الشاعر: علي بن محمد بن يوسف ٤/ ٣٣٠: «وهو غير معاصره وسميّه (ابن خروف) النحوي».

وقوله في ترجمة الرعيني: محمد بن سعيد (المتوفَّى سنة ٧٧٨) ٦/ ١٣٩: «وهو غير الرعيني محمد بن أبي القاسم (١١١٠) صاحب المؤنس، وغير الرعيني أحمد بن يوسف (٧٧٩) صاحب ابن جابر وهما الأعمى والبصير».

وقوله في ترجمة ابن معتوق (الشاعر) ٧/ ٣٢-٣٣: «وهو غير (ابن معتوق) صاحب الديوان المطبوع سنة (١٠٨٧هـ)» وقوله في ترجمة أبي عمر الكندي (المؤرخ) ٧/ ١٤٨: «وهو غير يعقوب الكندي الفيلسوف الآتية ترجمته».

٥ - إثباته الكتب التي أُلّفت في المترجم. كقوله في ترجمة عائشة أم المؤمنين ٣/ ٢٤٠: «ولسعيد الأفغاني» عائشة والسياسة - ط»، وقوله في ترجمة الحسن بن الهيثم: ٦/ ٨٤: «ولمصطفى نظيف كتاب (الحسن بن الهيثم - ط).

الإحالة على مصادر الترجمة بعد الفراغ منها:

وهو إذ يفرغ من الترجمة، يحيل على مصادرها ومراجعها في الهامش، وقد يطيل فيه، ليناقش ويصحح، ويتثبت ويشرح ويبيّن، انظر هامش ترجمة ابن القيم: ٢/ ٢٤٦؛ وابن عنين: ٧/ ١٢٥ - ١٢٦؛ وحمزة بن علي: ٢/ ٢٧٨؛ وماء العينين: ٧/ ٢٤٣ - ٢٤٤؛ والمعافر بن يعفر: ٧/ ٢٥٩؛ وحبوس الأرسلانية: ٢/ ١٦٤، والكندي ٨/ ١٩٥، وابن حَمُّويه ٨/ ٢٤٩.

بل قد يذكر في هامش الإحالة أشياء تتعلق بالمترجَم، وقد تكون غير مذكورة في ترجمته، كما في إحالة ابن المرحل: ٧/ ٢٠١؛ وابن ملوكة: ٧/ ٢٨٨؛ والمصري: حسين شفيق: ٧/ ٢٢٨؛ ومعتِّب الرومي: ٧/ ٢٦٤؛ وابن مَنْعَة: ٧/ ٣٠٨؛ وابن النقيب: الحسن بن شاور: ٨/ ٤٧؛ والهُمامي: أحمد بن ثَبَات: ٨/ ٩٤؛ يقول في هامش الإحالة الأخيرة: «ساورني شك في ضبط (ثبات) فأعدت النظر فيه فوجدته في مخطوطة (التكملة في وفيات النقلة)

للحافظ المنذري، بما موجزه: أحمد بن علي بن ثبات الواسطي الشافعي، مولده تقريباً في سنة (٥٥٥) كانت له معرفة بالفرائض والحساب، وصنف فيه، وثبات: بالتاء المثلثة المفتوحة، والباء الموحدة المخففة، وبعد الألف تاء مثناة. قلت: ولم يذكر الهمامي».

ويقول الزركلي في هامش إحالة الدُّكَّالي ٢/ ٣٤٠: «الدكالي سبق ضبطه بفتح الدال، اعتماداً على ما في شذرات الذهب: ٥/ ٤٣١ ونصه: «دكالة بفتح الدال وتشديد الكاف، بلد بالمغرب، ثم رأيت في شوارق الأنوار ـ خ، نصاً آخر، على أنها بضم الدال، ومثله في القاموس (دكالـة، كرمّانة) وعلق شارحه (التاج: ٧/ ٣٢٣): «وضبطـه الصاغاني بفتح الدال».

أما الشائع على ألسنة أهل المغرب اليوم، فهو الضم، وقد أصلحته في الطبعة الثالثة بالضم، على أن الفتح ليس بخطأ».

وقد توهَّم بعضهم فخطَّأ الزركلي على قوله بفتح الدال، والمخطِّئ مخطئ.

اختصاره اسم مصادره ومراجعه:

والزركلي عندما يحيل على مصادر الترجمة في الهامش، كثيراً ما يعمد إلى اختصار أسمائها، ومن ذلك: تاج العروس (التاج)[١]، وشذرات الذهب (الشذرات)[٢] أو (شذرات)، وفوات الوفيات (الفوات)[٣] وهدية العارفين (هدية)[٤]، ومصادر الدراسة الأدبية (الدراسة)[٥] أو يذكر أسماء مؤلفيها عوضاً عنها، ومن ذلك: تاريخ الأدب العربي[٦] (Brock) المستشرق الألماني كارل

---

(١) انظر الأعلام: ٦/ ٢٢٥؛ ٧/ ١٩٩، ١٩٩.
(٢) انظر: ٦/ ٦٠، ٨٣، ١٩٥؛ ٧/ ١٨٣.
(٣) انظر: ٣/ ٣٢٧، ٣٤٣.
(٤) انظر: ٢/ ٢٩٠، ٣٠٧؛ ٧/ ١٤٦.
(٥) انظر: ٢/ ٢٩، ٥٩، ٧٨، ٩٢، ٩٣.
(٦) انظر: ٦/ ٢٠٠، ٢٢٥، ٢٢٧ وهو لا يذكر كتابه إنما يذكر اسم مؤلفه دائماً.

بـروكلمان، ووفيات الأعيـان (ابن خلكان)[١]، وطبقـات فحول الشـعراء (الجمحي)[٢]، ومعجم المطبوعات العربية (سركيس)[٣] و(الإعلام بتاريخ أهل الإسلام (ابن قاضي شهبة)[٤].

وصفه بعض المخطوطات التي اطلع عليها:

ويصف بعض المخطوطات التي رجع إليها في (المصادر والمراجع) خصوصاً التي اقتناها، من ذلك ـ وهو كثير ـ حديثه عن مخطوطة (الأبحاث المسددة في فنون متعددة) للمقبلي: ٨/ ٢٧٥ و(أشراف مكة وأمراؤها) لمؤلف مجهول: ٨/ ٢٧٩ و(الإعلام بتاريخ الإسلام) لابن قاضي شهبة: ٨/ ٢٨٠ و(أعمار الأعيان) لابن الجوزي: ٨/ ٢٨١ و(أنباء الزمن في تاريخ اليمن) ليحيى بن الحسين بن الإمام القاسم: ٨/ ٢٨٣. و(التشوف إلى معرفة رجال التصوف) لابن الزيات المتادلي: ٨/ ٢٩٦ و(ضوء المشكاة): ٨/ ٣١٨ و(لقط الفرائد) لابن القاضي: ٨/ ٣٣٣ و(المصابيح) لأبي العباس أحمد بن إبراهيم الحسني: ٨/ ٣٣٨.

حُسن بيانه وصفاء عبارته:

وقد زان ذلك كله حسـن البيان، وصفاء العبارة، فالزركلي أديبٌ شاعرٌ، وقد كان الأدب ومازال خير سبيل لإيصال المعرفة، وسرعة انصبابها إلى السمع، واستيلائها على النفس، والبليغ يضع لسانه حيث أراد، وإنك لتجد كثيراً من الدراسات قد جمعت فأوعت لكنها لم تبلغ مبلغها من النفع والفائدة لجفافها وعسرها.

---

(١) انظر: ٢/ ٦١، ٧٥؛ ٦/ ٦، ١٤٩.
(٢) انظر: ٥/ ٦٩.
(٣) انظر: ٢/ ٢٨٥.
(٤) انظر: ٢/ ٦٩؛ ٦/ ٧١.

وهو يشدُّك ويأسرك إلى قراءة تراجمه، وكثيراً ما كنت أبحث عن ترجمة صفحة من صفحات الأعلام، فأجدني أقرأ صفحتين قبلها أو بعدها دون أن أشعر.

طبيعة تراجم الأعلام وأسس انتقائها:

١ ـ **العَلَمية**: ترجم الزركلي لمشاهير الأعلام في كل عصر على اختلاف اهتماماتهم ومِلَلِهم.

أما أسس الانتقاء أو الاختيار، فقد صرَّح بها الزركلي في مقدمة (الأعلام) فقال ص٢٠: «وجعلت ميزان الاختيار أن يكون لصاحب الترجمة **علم تشهد به تصانيفه، أو خلافة أو مُلك أو إمارة، أو منصب رفيع ـ كوزارة أو قضاء ـ كان له فيه أثر بارز، أو رياسة مذهب، أو فنٌّ تميَّز به، أو أثر في العمران يُذكَر له، أو شعر، أو مكان يتردد به اسمه، أو رواية كثيرة، أو أن يكون أصل نسب، أو مضرب مثل**. وضابط ذلك كله: **أن يكون ممن يتردد ذكرهم ويسأل عنهم**.

أما من أغدق عليه بعض مؤرخينا نُعوت التمجيد وصفات الثناء إغداقاً، كما صنع أصحاب (الريحانة) و(اليتيمة) و(السلافة) و(سلك الدرر) وعشرات أشباههم، من إطرائهم قائل بيتين واهيين من المنظوم بما لا يُطرى به صاحب ديوان من الشعر، ورصهم صفات الإمامة والعلم والهداية والتشريع لراوي حديث أو حديثين، أو لمتفقّه لم تسفر حياته عن أكثر من حلقة وعظ تغصّ المعابد بأمثالها كل يوم ـ فقد تعمدت إهمال ذكرهم اجتناباً للإطالة على غير جدوى، ورغبة في الوقوف عند الحد الذي رسمته لنفسي في وضع هذا الكتاب».

٢ ـ **الشمول النوعي**: لم يقتصر الزركلي في (الأعلام) على نوع معين من الأعلام ـ كما ذكرت في بداية التعريف ـ بل تنوعت تراجمه، فشملت كثيراً من فئات الناس من الخلفاء والملوك والأمراء والولاة ورؤساء الوزراء والوزراء والقضاة، والقرّاء والمفسّرين والمحدّثين، والفقهاء والأدباء واللغويين والنحاة والشعراء، والممثلين والمطربين والملحنين، وأرباب الملل والنِّحَل

والمتكلمين، والمستشرقين والمستعربين. .

٣ ـ الشمول المكاني: تغيّا الزركلي أن يكون كتابه شاملاً الأعلام في الوطن العربي والإسلامي من الأندلس غرباً إلى أقصى المشرق، وإذا أدخلنا تراجم المستشرقين والمستعربين وأدباء العرب في المهجر (الأميركيتين) فيكون قد شمل مختلف أقطار العالم.

٤ ـ الشمول الزماني: امتدت الفترة الزمنية التي غطّاها الزركلي في أعلامه: من العصر الجاهلي ـ عدا بضعة تراجم سبقت هذا العصر منها تراجم الأنبياء: أيوب، هود، إسماعيل ـ حتى عام (١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م).

وقد وجدت الزركلي يكثر من تراجم القرن الرابع عشر الهجري = آخر القرن التاسع عشر وأغلب القرن العشرين الميلادي، ولعل مردّ ذلك أمران:

الأول، ازدياد عدد الأنفس، وبالتالي ازدياد الأعلام منهم فمعروف أن أعداد الأنفس في ازدياد.

الثاني: معاصرة الزركلي لأحداث تلك السنوات وقربه منها، وصلته الكبيرة بأعلام عصره، فهو قد ولد بدمشق ونشأ فيها وتعلم، وعمل في عمّان سنتين، وأقام في السعودية سنوات، وأقام مثلها في القاهرة، وأقام في المغرب سنوات سفيراً للسعودية، واستقر به المقام في بيروت، وذلك ساعده في كثرة تراجمه لمعاصريه.

ترتيب الأعلام المترجمة: كتب التراجم لا تجري في ترتيب الأعلام على نهج واحد، فمن مؤلفيها من يرتبهم على الطبقات، كأن يذكر في كل طبقة عشر سنين أو عشرين سنة أو أربعين سنة. . وبعض المؤرخين كالذهبي استعمل الطبقة للدلالة على القوم المتشابهين من حيث اللقاء أي: في الشيوخ الذين أخذوا عنه، ثم تقاربهم في السن من حيث المولد والوفاة.

وقد اخترع المحدِّثون التنظيم على الطبقات لخدمة دراسة الحديث

النبوي الشريف، ومعرفة إسناد الحديث ونقده، فهو الذي يؤدي إلى معرفة فيما إذا كان الإسناد متصلاً، أو ما في السند من إرسال[١] أو انقطاع[٢] أو عضل[٣] أو تدليس[٤] أو اتفاق في الأسماء مع اختلاف في الطبقة[٥].

وكان نظام الطبقات على غاية من الأهمية في العصور الأولى التي لم يعتنِ المؤلفون فيها بضبط مواليد الرواة ووفياتهم، إنما كانت تحدد طبقاتهم بمعرفة شيوخهم والرواة عنهم.

على أن من أكبر عيوب التنظيم على الطبقات صعوبة العثور على الترجمة لغير المتمرسين بهذا الفن تمرُّساً جيداً، فضلاً عن عدم وجود تقسيم موحد للطبقة عند المؤلفين[٦] ومن تلك الكتب: (الطبقات) لخليفة بن خياط و(الطبقات الكبرى) لابن سعد و(سير أعلام النبلاء) للذهبي و(طبقات الشافعية الكبرى) للسبكي.

فمنهم من يرتّبها على السنين، فيذكر في أحداث كل سنة من توفي فيها من الأعلام، كالذهبي في (تاريخ الإسلام) وابن الأثير في (الكامل) وابن قاضي شُهْبَة في (الإعلام بتاريخ الإسلام). وعيوب هذه الطريقة صعوبة العثور على الترجمة لمن لا يعرف سنة وفاة المترجم، وتذلّل الصعوبة فهارس الأعلام.

ومنهم من يرتّبها على الأسماء كـ(وفيات الأعيان) لابن خلكان، و(فوات الوفيات) لابن شاكر الكتبي و(الوافي بالوفيات) لصلاح الدين الصفدي، وفي

---

(١) المُرسَل: ما رواه التابعي عن النبي ﷺ.
(٢) المُنْقَطِع: أن يسقط من السند رجل ليس بصحابي.
(٣) المُعْضَل: ما سقط من إسناده اثنان أو أكثر على التوالي.
(٤) المُدلِّس: هو الذي يروي عمن لقيه أحاديث لم يسمعها منه، أو عمن عاصره ولم يلقه موهماً أنه سمعه منه.
(٥) وذلك كثير فيعرف الشخص من طبقته وشيوخه.
(٦) انظر: مقدمة الدكتور بشار عواد معروف لسير أعلام النبلاء، ص١٠٦.

طريقة الترتيب هذه صعوبة يصادفها المترددون كثيراً على المراجع العربية، فإن الأعلام المترجمة مرتبة بحسب الأسماء لا بحسب شهرة أصحابها أو كناهم، فلابدَّ لطالب الكشف عن ترجمة أن يكون عالماً باسم المترجم، ولا تنفع معرفته بالشهرة أو الكنية أو اللقب، لأنها لم تدخل في حساب كُتَّاب التراجم. إلا في الفهارس المفصلة للكتاب حيث تنفع معرفة الشهرة واللقب.

أما الزركلي فإنه يذكر العلم بشهرته أو لقبه في بابه من حروف الهجاء، ثم يحيل على الاسم الحقيقي الذي تجيء الترجمة تحته، ففي البحث عن (الزمخشري) مثلاً يجيء به في حرف الزاي والميم والخاء - وهو ترتيبه بحسب الشهرة - ثم يحيلك على الترجمة في موضعها فيقول: (=) ويعني هذا الترقيم: (انظر) محمود بن عمر (٥٣٨) والرقم الذي يليه هو تاريخ الوفاة الهجري، وإذا اشترك في الشهرة أكثر من شخص، كان يفرق بينهم ففي شهرة ابن الفرات اشترك فيها ثمانية أعلام، كان يفرق بينهم بين قوسين: ابن الفرات (القاضي) = أسد بن الفرات (٢١٧)، ابن الفرات (المحدث) = أحمد بن الفرات (٢٥٨)، ابن الفرات (الكاتب) = أحمد بن محمد (٢٩١) وهكذا.

ويعتمد الزركلي الترتيب الألفبائي في ترتيب الأسماء فيذكر آمنة قبل إبراهيم لألفين في بدء الأول، وإبراهيم بن أحمد قبل إبراهيم بن أدهم، لتقدّم الحاء الداء في اسمي الأبوين، وهكذا، وأما ما كان مبدوءاً بلفظ (أب) أو (أم) أو (ابن) أو (بنت) كأبي بكر، وأم سلمة، وابن أبي داود، فعدَّ الأب والأم ونظائرهما لغواً، وجعل (أبا بكر) في حرف الباء مع الكاف ويثلثهما، و(أم سلمة) في حرف السين مع اللام، واتخذ رسم الحروف أساساً، فجعله (صدى) في حرف الصاد مع الدال والياء، ومؤمناً في حرف الميم مع الواو.

والزركلي لم يعتمد في الترتيب الألفبائي عدا الاسم الأول والثاني فقط، فكل أحمد بن محمد عنده (ألفبائياً) في نَسْقٍ واحد، ولكن يرتّب بينهم بحسب الوفاة معتمداً التاريخ الهجري، مثلاً: المرزوقي، أحمد بن محمد بن الحسن (٤٢١هـ): ١/ ٢١٢، قبل ترجمة العشاب: أحمد بن محمد بن إبراهيم

(٧٢٦هـ): ١/ ٢٢٣، ونجم الدين الغزي: محمد بن محمد بن محمد (١٠٦١هـ): ٧/ ٦٣، قبل ترجمة ابن ناصر الدرعي: محمد بن محمد بن أحمد (١٠٨٥هـ): ٧/ ٦٣.

وإذا كان الاسم مركباً مثل (محمد أمين) و(محمد تقي) اعتمد الجزء الأول اسماً للعلم والثاني بمنزلة اسم الأب. وهكذا ذلّل الزركلي صعوبة طالما شكا منها الباحثون في كتب التراجم وتاريخ الرجال.

التراجم بين الإنصاف والتحامل:

الإنصاف والتجرُّد عن الهوى جميل، وواجب أن يكون نصْبَ عيني مؤرخي السير والتراجم حين يكتبون، فإن الحقيقة العلمية تضيع متى تحيَّز المؤرخ أو تحامل. ومن الصعب على المترجِم المنصف النزيه أن يجرد نفسه تماماً من عوامل التحيّز والتجرّد والهوى، وهي آفة المرء دائماً فيما يأتي أو يدع.

وقد وجدت الزركلي منصفاً في التراجم، إلا في تراجم قليلة لبعض المعاصرين، منه ما تراه في ترجمة الملك عبد الله بن الحسين: ٤/ ٨٢، وهو لم يترك سانحة تسيء للملك عبد الله إلا ذكرها، والقارئ يجد ذلك في ترجمة الزركلي لرشيد طليع: ٣/ ٢٤؛ وعادل أرسلان: ٣/ ٣٤٣؛ وعودة أبي تايه: ٥/ ٩٤؛ وفؤاد الخطيب: ٥/ ١٦٠؛ وفؤاد سليم: ٥/ ١٦٢؛ ويوسف ياسين: ٨/ ٢٥٣؛ وفي ترجمة الزركلي نفسه: ٨/ ٢٦٨.

وأنبّه هنا على أن المترجم إذا كان معاصراً للزركلي، فغالباً ما يكون رأيه هو الأساس والمعتمد لاتصاله به وقربه منه ومعرفته له، ومعاصرته للأحداث التي شارك فيها المترجم.

التراجم بين المدح والذم:

كثيرة هي التراجم التي مدح الزركلي أصحابها، كقوله في ترجمة ابن عمار ٦/٥: «وكان عاقلاً حسن السيرة» وقوله في ترجمة فوزان السابق ٥/ ١٦٢:

«وكان من التقى والصدق والدعة وحسن التبصُّر في الأمور والتفهُّم لها على جانب عظيم».

وكثيرة أيضاً التراجم التي ذمَّ أصحابها، كقوله في ترجمة حسني الزعيم ٢/ ٢٢٩: «وكانت في الزعيم شدَّة وحدَّة، يخالطهما استهتار وعبث، وينقصه كثير من عفَّة اللسان إذا مزح أو سخط».

وقد يجمع المدح والذم في آنٍ واحد، كقوله في ترجمة الناصر بن قايتْباي: ٧/ ٩ نقلاً عن ابن إياس: «كان يوصف بالكرم الزائد والشجاعة، لكنه كان جاهلاً عسوفاً سفاكاً للدماء، سيء التدبير، كثير العشرة للأوباش».

وهذا كله من باب تقويم المترجم.

عنايته بـ(الأعلام):

كان الزركلي رحمه الله، يعدّ كتابه الأعلام أغلى من أولاده، وكان (الأعلام) دأبه وشغله الشاغل، وعمله فيه مستمر ما امتدت به الحياة، وقد عمل فيه أكثر من ستين سنة، وودَّ لو استطاع أن يعمل فيه وهو في المستشفى رهن مبضع الجرّاح، وقال: «لو أُحرق (الأعلام) ألقيت بنفسي في البحر أسفاً»[١].

وبلغ من حرصه على استمرار (الأعلام) أن رصد مبلغ خمسين ألف ليرة لبنانية (نحو ٢٥ ألف دولار في ذلك الزمان) في البنك العربي ببيروت باسم (مجمع اللغة العربية بدمشق) لينفق بعد وفاته على إنجاز هذا المشروع واستكماله[٢]، وإصداره للناس لعلهم ينتفعون به، ويدعون الله لصاحبه خير الدين الزركلي.

---

(١) علم الأعلام، ص٤١.

(٢) لقد أنعم الله علي وزاد فطبعت المجلد الأول في كتابي (ذيل الأعلام) عام ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م وفيه تصحيحات وتنبيهات على هذا الكتاب الجليل (الأعلام) وهو جهد استنفد مني جهد عشر سنوات، ثم طبعت المجلد الثاني منه عام ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م وفيه تصحيحات جديدة.

وقد طبع (الأعلام) في حياة المؤلف ثلاث طبعات، الأولى عام (١٣٤٧هـ/ ١٩٢٧م) وهي الهيكل العظمي للكتاب، بنى عليها العمل. فاستكمل الفراغات، وأعاد تحرير الترجمات، وأثراها بمصادر جديدة، وأضاف الخط والصورة، وتحرّى الدقة في ضبط الأسماء التي لم تكن متاحة في الطبعة الأولى، والثانية في القاهرة عام (١٣٧٣ ـ ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٤ ـ ١٩٥٩م)، في عشرة مجلدات، العاشر منها (المستدرك)، استدراك وتصحيح وإضافة، والثالثة ببيروت عام (١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م) في أحد عشر مجلداً، منها تسعة للتراجم، وواحد للاستدراك (وهو قسمان) للصور والخطوط، ثم أتبع المستدرك بـ(المستدرك الثاني) عام ١٣٩٠هـ = ١٩٧٠م.

وحكمة الزركلي من وضع هذه المستدركات، وعدم وضعها في صلب الكتاب ألاّ يُرهِق القارئ بشراء كل طبعة، فالذي عنده الطبعة الثانية لا يشتري الثالثة، إنما يشتري المستدرك(١).

ولما شعر الزركلي بدنوٍّ أجله عزم على طبعه طبعة رابعة، تشمل المستدركات، والتراجم الجديدة وهي في أربعة أو خمسة مجلدات (الإعلام بمن ليس في الأعلام) فتكون المجموعة كلها كتاباً واحداً، ولكن الأجل عاجله، فعهدت دار العلم للملايين إلى أستاذنا العلامة زهير فتح الله رحمه الله بالإشراف على طبعه، فأشرف على الطبعة الرابعة فقط.

التراجم بين الطول والإيجاز:

قد يطيل الزركلي في تراجمه وقد يقصر، وقد يفيض أو يغيض تبعاً

---

(١) رحم الله الزركلي وأحسن إليه، فأين هو من مؤلّفي اليوم الذين يزيدون في الكتاب، ويطبعونه المرة تلو الأخرى، كاتبين عليه (طبعة مزيدة ومنقحة) ولا يكون فيها ـ في الأغلب ـ إلا إضافات يسيرة، أو يضيفون إليه إضافات كثيرة، ويعيدون طبعه، مكلّفين القارئ شراءه من جديد، وأكثر ما يكون ذلك فيما يقرره الدكاترة على تلاميذهم من مؤلفاتهم.

لاعتبارات كثيرة، يرجع بعضها إلى الزركلي، وبعضها إلى المُترجم.

ومن الإطالة في الترجمة ما تراه في تراجم الخلفاء والملوك والأمراء ورجال السياسة، فترجمة أحدهم تعني التاريخ للبلاد التي حكمها، وسيرته في الحكم، وما رافق ذلك من أحداث واضطرابات وحروب وفتن وإصلاحات، وقتل وعفو.. على عكس ما تراه في جانب العلماء والأدباء والشعراء، فهؤلاء - في الأغلب - يقتصر في تراجمهم على ذكر الولادة والتعلّم، والمناصب التي تولاها في التعليم، ويذكر مؤلفاته.

والزركلي من ناحية أخرى قد يطيل في الترجمة مراعاة لجانب المترجم له إذا كان حياً معاصراً للزركلي وتوفي قبله. وبالإجمال: لم يتّبع الزركلي نسقاً واحداً في التعريف بالمترجم، فقد يوجز، وقد يتوسّط، وقد يُسْهِب.

موارد الكتاب:

أورد الزركلي مصادره ومراجعه في آخر كتابه (الأعلام) وهي موارد كتابه، وهناك موردان لم يذكرهما:

الأول: المشاهدة والملاحظة، ونرى ذلك واضحاً في أعلامه، خصوصاً في أقرانه أو الذين عمل معهم أو لهم، مما يشير إلى اتصاله بهم، والاطلاع على شؤونهم، ومعرفة أحوالهم وتَتَبُّع سيرهم، من ذلك ما تراه في ترجمة الملك عبد العزيز آل سعود، والملك عبد الله بن الحسين: ٤/ ٨٢؛ ويوسف ياسين: ٨/ ٢٥٣؛ ومحمد البزم: ٧/ ٩١؛ وسعيد الصباغ: ٣/ ١٠٠، ومن مصادر هذه التراجم أيضاً (مذكرات المؤلف) التي لم نعرف شيئاً عن مصيرها[1].

والآخر: المشافهة والمساءلة والمراسلة (والمراسلة نصف المشاهدة)، وهي تشمل الروايات والمعلومات والأخبار التي سمعها، أو قام هو بالسؤال

---

(١) انظر على سبيل المثال: ١/ ١٨٤، ١٩٢، ١٩٨، ٢٨٦، ٣٠١، ٣١٥.

عنها، أو حدّثه بعض الأعلام عن المترجم وما يتعلق به، والمشافهة سُنّة العلم ـ لاسيما علم أمتنا الشريف ـ تلقّيه من أفواه الشيوخ والمزاحمة عليه بالركب.

هذا والكتاب من قبلُ ومن بعدُ زادٌ تاريخي حافل، وثروة أدبية، وإذا كان اختيار المرء قطعة من عقله، فإن اختيار الزركلي في أعلامه سواء فيما يتعلق بالأعلام وأخبارهم أو الأدباء وأشعارهم، يبين ـ ولا ريب ـ عن فكره وشخصيته، وعلمه وثقافته.

شبكة المعلومات الخارجية التي استفاد منها الزركلي في كتابه (الأعلام):

عمل الزركلي في الأعلام لم يكن ليظهر في هذه الصورة من الجودة والإتقان والشمول لولا وجود أمرين ساعداه في ذلك:

الأول: **المساعدون**، الذين ساعدوه في الكتاب، مادة، ومراجعة، وتصحيحاً، وإضافة، ويمكن تقسيمهم على النحو الآتي:

١ ـ **المؤازرون**: الذين فتحوا له خزائن كتبهم، أخذ عنها ومنها ما هو بحاجة إليه (بعضهم يدخل في الفقرتين ٣ و٥) وهم: محمد كردعلي بدمشق، وأحمد عبيد بدمشق، وأحمد تيمور (باشا) وأحمد زكي (باشا) بالقاهرة، ومحمد حسين نصيف بجدة، وزهير الشاويش، وحمد الجاسر ببيروت.

٢ ـ **الزائرون**: كل عابر لمصر والمغرب تعامل معه الزركلي، وسأله عن علماء بلده أو غيرهم وخطوطهم، منهم: العلامة عبد العزيز الميمني.

٣ ـ **مرحلة مصر**: محمد رشاد عبد المطلب، فؤاد سيد، أحمد تيمور (باشا) وأحمد زكي (باشا)، وأحمد خيري، وإبراهيم شَبُّوح، وأمين مرسي قنديل.

٤ ـ **مرحلة المغرب**: محمد المختار السوسي، ومحمد إبراهيم الكتاني، وعبد الحفيظ الفاسي، وعبد الله الجراري، ومحمد العابد الفاسي، وإدريس

الماحي الإدريسي، وعبد السلام بن سودة، ومحمد المنوني، ومحمد المدني الحسني، وأبو بكر التطواني.

٥ ـ **مرحلة بيروت**: زهير الشاويش، وحمد الجاسر.

٦ ـ **المراسلات والزيارات**: أحمد عبيد، وحسن حسني عبد الوهاب، ومحمد الشاذلي النيفر، ومحمد الطاهر بن عاشور.

٧ ـ **المعلّقون والنّقّاد**: استفاد من تعليقات المعلّقين ونزهاءالنقاد عند إعادة طبع الكتاب. مثل: أحمد عبيد، وعبد الله البسّام، وأحمد خيري، والمستشرق كرنكو.

الأمر الآخر: أُتيح للزركلي التنقل بين الأقطار والعواصم والمدن، والمكاتبات والمجالس، ونال من المناصب ما عرَّفه بالرجال من كل صنف ولون، وسمع الأقاصيص، ورأى الوقائع، وكان من اليسار والثراء، بحيث لا يقف حائل دون حصوله على مصدر أو مرجع.

مآخذ على الكتاب:

بذل الزركلي ما وسعه من جهد، في جمع التراجم وتحريرها، بيد أن عمله ـ كأي عمل آخر ـ لا يخلو من مآخذ وهَنات، وإذا قيست مآخذه وهناته بعمله الجريء، كانت كأنها لم تكن، وبعض الأوهام التي وردت في الأعلام انفرد بها، وبعضها الآخر تابع عليها غيره، والزركلي في هذا استسلم للمراجع ووثق بها فلا يُنسَب الوهم إليه في (الجملة) فكم من مرة وجدنا الزركلي ينبّه ويتنبّه للأوهام الواردة في مصادره، ويحقّق ويدقّق، والزركلي يقيناً ليس معصوماً عن الخطأ وليس فوق النقد، ولكن هذا لا يمنع من أن أقول أيضاً: إنه بلغ القمة في الضبط والإتقان، وحسن الاختصار، وبراعة الاختيار، والدقة في الحكم على الرجال، ويبدو هذا لأول وهلة إذا قارنا عمله بعمل غيره الذين صنعوا معاجم للأعلام من المعاصرين.

ومـا في الأعـلام من المآخذ القليلـة رقيّة من عين الحسـد للكمال، ومحاسن الأعلام جمة، وبعض المآخذ ليس يضير. والحسنات يذهبن السيئات.

وأحسن من قال: «لكل جواد كبوة، ولكل صارم نبوة، ولكل عالم هفوة»

وقال الجاحظ: «من صنَّف فقد استهدف، فإن أحسن فقد استعطف، وإن أساء فقد استقذف»(١).

ومع هذا فإن المصيب في القول والفعل قليل بل عديم، ومن الذي يأمن من الغلط والسهو والزلل؟.

وقد أجملت المآخذ على الأعلام بما يلي:

١ ـ لم يترجم مشاهير، من قدماء وعصريين. فمن القدماء: أحمد بن هبة الله المدائني صاحب كتاب (أحكام الجدل والمناظرة)، والقاسم بن محمد بن علي الشاشي صاحب كتاب (التقريب) والشاعر البغدادي ابن زُريق، وابن المَكوْي، وأبو بكر بن محمد الداودي.

ومن العصريين: الدكتور محمد غنيمي هلال، ومصطفى السقا، وإبراهيم حمروش، وعبد الرحمن تاج.

٢ ـ الإيجاز المخل لبعض المشاهير (عدا ذكر مؤلفاتهم) كما في ترجمة ابن جني: ٤/ ٢٠٤؛ والهيثمي: ٤/ ٢٦٦؛ وابن عساكر: ٤/ ٢٧٣؛ والذهبي: ٥/ ٣٢٦؛ والنووي: ٨/ ١٤٩؛ والخَطَّابي: ٢/ ٢٧٣.

٣ ـ ترجم لمجاهيل، أو ممن هم ليسوا أحقَّاء بالترجمة، كترجمة محمد هادي: ٧/ ١٢٧؛ والحسيني: ٧/ ١٢٩؛ والحلاق: ٧/ ١٥٦؛ والكشميري: ٧/ ٣١٢؛ ومهدي الكاظمي: ٧/ ٣١٢؛ والنوري: ٧/ ٣١٤؛ وابن مالك ٦/ ٢٣٣.

---

(١) زهر الآداب: ١/ ١٤٢.

٤ ـ لم يترجم سلاطين الدولة العثمانية وخلفائها[١].

قالوا في (الأعلام):

«. . . الكتاب العظيم (الأعلام) أحد الكتب العشرة التي يفاخر بها هذا القرن القرون السابقات»[٢].

«لو سُئلتُ عن أعظم كتاب عربي صدر في القرن الرابع عشر الهجري، لقلتُ دونما تردد: إنه كتاب الأعلام للزركلي رحمه الله»[٣].

«عمل الزركلي في أعلامه عملٌ فذٌّ، لا قدرة لأحد على مجاراته، وطريقته في الترجمة عن السلف الصالح لا ترضي المعاصرين وأكثرهم طموح»[٤].

«والحق أن عمل الزركلي عليه رحمة الله من أدق الأعمال التي تمت في هذا العصر ومن أضبطها، ومن أنفعها، فهو بحق (علم يُنتفع به) جعله الله في ميزانه، وخالصاً لوجهه الكريم»[٥].

«أما الأعلام فهو خير كتاب أُلِّف في بابه، بل هو خير ما كتب كاتبٌ في تراجم الرجال والنساء في هذا العصر. . لا ينبغي أن تخلو مكتبة طالب علم من هذا الكتاب»[٦].

«كتاب (الأعلام) لأستاذنا أبي الغيث خير الدين الزركلي أوفى كتاب حديث في التراجم فيما أعلم، فهو عصارة فكر بحّاثة جليل، قلَّ أن يضاهيه أحد

---

(١) انظر كتابي (الإعلام بما وقع في أعلام الزركلي من أوهام) وهو وشيك الصدور.
(٢) علي الطنطاوي، ذكرياته: ١/ ١٢٥.
(٣) عبد العزيز الرفاعي، فوات الأعلام، ص٩.
(٤) الدكتور عدنان الخطيب، رسالة منه إلى المؤلف في غرة المحرم ١٤١١هـ.
(٥) الدكتور عبد العظيم الديب: رسالة منه إلى المؤلف سنة ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.
(٦) الدكتور محمود الطناحي: الموجز في مراجع التراجم، ص٨٢ ـ ٨٣.

في سعة اطلاعه على المؤلفات قديمها وحديثها، وهو خلاصة مئات من الكتب والمطبوعات أُلِّفت في التراجم، بحيث يصح القول بأن (الأعلام) من مفاخر عصرنا الثقافي»[1].

«ولا يملك متأمّل لـ(أعلامه) منصف، أو ناهل من عُباب تياره الزاخر مستفيد، إلا أن يستصغر عظيم الهمم بإزاء همته، ويحقِرَ جليل الصبر في جنب صبره ومطاولته، وأن يجد يسير غلطه، حين يجده، مغموراً في البليغ الثّرِّ من فوائده وصوابه»[2].

«. . . (الأعلام) مَفْزَع أهل العصر من الباحثين في التراجم خاصة»[3].

* * *

(١) حمد الجاسر: مجلة العرب س٥، ص٨٢ـ ٨٣.

(٢) عز الدين البدوي النجار ومحمد عدنان الجوهرجي: مجلة عالم الكتب: مجلد ٢٣ رجب ـ شوال ١٤٢٢هـ، ص١٠٠.

(٣) المصدر السابق: ص١٠١.

٢ً ـ ديوان الزركلي
(الأعمال الشعرية الكاملة)

مؤسسة الرسالة ـ بيروت (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م) ٤٠٠ صفحة ١٧× ٢٤سم،

الزركلي شاعر أديب مؤرخ، جمع بين الشعر والنثر فأجاد فيهما إجادة واضحة، وهي ظاهرة قلّ أن نجدها، فإذا قرأت نثر الجواهري (وهو شاعر العرب في العصور المتأخرة) كان نثره في الحضيض وشعره في القِمَّة، ومثل الزركلي: شفيق جبري، ومحمد بهجة الأثري، وإبراهيم السامرائي، وصبحي البصَّام.

فكيف يُسّر لهؤلاء ـ وأمثالهم ـ أن تكون لهم هذه القدرة المزدوجة، وأن يكون نتاجهم هذا الدينار المجلوّ المصقول الواضح، كتبوا على أحد وجهيه شعرهم، وكتبوا على وجهه الآخر نثرهم، فجاء هذه القطعة الواحدة التي لا تملك أن تفصل بين وجهيها، كلاهما يتعاون على صياغتها، وكلاهما يهبان قيمتها.

والزركلي كما وصفه الشاعر الكبير أنور العطار: «شاعر مجيد معاصر، من أكبر شعراء القومية العربية، ومن أرقّهم عاطفة، وأصفاهم أسلوباً»[١].

وهو شاعر الأناشيد الحماسية الأول في دنيا العروبة، فقد لمس تأثير الأناشيد في الشبيبة، وعلم أنها نفَسٌ يتردد في الرئة قبل أن تكون كلمات تتردَّد في

---

(١) علم الأعلام، ص٢٥٧.

الحناجر[1]، فنظم نحو عشرين نشيداً، كنشيد العرب، ص٢٠٨ من الديوان:

يـــــا ابــــنَ يَعْـــرِبِ   قُـــــمْ تَـــــأَهَّـــــبِ
مَـــــا لأجْنَبِـــــــي   فِــــي الحِمَـــى مَقَـــرّ

ونشيد الصباح، ص٢٣٢:

ابتسم الفجر فقل للنائم: حسبُك نَوْمْ
إن السَّـنا السَّـافرَ عـن معنى الحياة
جـــدَّد آمـــالاً وأحيـــا عَـــزَمـــات
أهـــاب بـــالنـــاس: أفيقـــوا يـــاغـــواة
ثِبـوا نِيـامَ الليـل صرعـى الغَفَـلات
أرسلـــتِ الشمـــس بشيـــرَ القـــادم
فقم وناجِ النفس نجوى واجم لهفاً ولَوْمْ
ابتسم الفجر فقل للنائم حسبك نوم

ونشيد بلادي، ص٢١٤:

أبكـــــــي بـــــــلادي   ومجـــــدَ قـــــومـــــي
لــــو كــــان يُجْــــدِي   نَــــدْبِــــي ولَــــوْمِــــي

فمتى: . . .

أحرار العرب تُفيق.   لسنا بَعْدُ نُطيقْ،   طول الرقاد

وأنشودة العامل، ص١٤٥:

إلـــى العمـــلْ إلـــى العمـــلْ   أي أمـــلْ بـــلا عمـــلْ

وأنشودة (يا أمة العرب)، ص٣١٦، وهي على نغم: الروزنا عالروزنا، كل الهنا فيها:

---

(١) النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين: ٣/ ١٣٥.

معاشـر العُـرْب أمُّـوا قِبْلَـةَ المجـدِ   وحَسْبُكـم غفلـةٌ عـن نهضـةٍ تُجـدي

وأنشودة (بلادي)، ص٣٢١ وهي على نغم: الحنة الحنة ياقطر الندى:

بـــلادي لِحبُّـــك فِـــي أضلُعـــي   هـوًى جُـزْتُ فيـه حـدود الهـوى[١]

وانظر بقية الأناشيد، ص٢٥، ٤١، ٦٥، ٧٥، ٩٤، ٩٧، ١٣٣، ٢٨٩، ٣١٠، ٣٤٨.

و(نشيد حطين)، ص٥٠ ومطلعه:

فـــي ذمَّـــةِ الأحقـــابْ   والفَلَـــكِ الـــدَّوَّارْ
شهـــابُ مجـــدٍ غـــابْ   فـــي حَلَـــكِ الأعْصـــارْ

وهو نشيد أُلقي في حفلة (ذكرى وقعة حطين) بحيفا[٢]، وقد تحدث فيها

---

(١) يقول الزركلي في ديوانه، ص٣٢١: «كان من الأغاني الشعبية في سورية سنة (١٣٢٨ ـ ١٣٣٢هـ/ ١٩١٠ ـ ١٩١٤م) أغاني (الحنة الحنة) و(بفتا هندي) و(الروزنا على الروزنا) و(هيا بنا هيا بنا) و(لولو بلولو، شلة حرير) و(الغصن إذا رآك مقبل سجدا) و(مرمر زماني مرمر، ما سقاني عنبر) و(أنت الممنع يارشا، عاشق جمالك) و(ياميمتي، ياميمتي) و(آه يايمه) و(يا ماريا، يا مسوسحة القفطان مع الصدرية) و(عود يازماني عود) و(غزالي غزالي، طاب جرحي طاب) و(القمر سلاني يايمه) و(نص الليل وغاب) وأمثالها.
ووضعتْ لأكثرها في ذلك الحين أناشيد تجري مجراها في النغم، وتُحوِّلها عما في جلّها أو كلّها من معانٍ غثَّة وكلمات رثَّة، إلى دعوة وطنية، نشر بعضها بتوقيعي في رسالة طبعت بدمشق سنة (١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م) باسم (مجموعة الأناشيد الوطنية) وأقبلت عليها المدارس الأهلية في دمشق وغيرها، فغنّى بها طلابها وتناشدوها».

(٢) انظر ما كتبه أستاذنا أكرم زعيتر عنها في المجلة العربية شعبان (١٣٩٧هـ/ تموز ـ آب ١٩٧٧م) ص٥٠.

شكيب أرسلان، وأكرم زعيتر، وإسعاف النشاشيبي، وعبد المحسن الكاظمي، وكان خير الدين الزركلي لوْلَبُها وعريفها، وراح يرنّح المشاعر، ويهزّ الأعطاف، وهاج الحضور وهو يشدو:

عيـــن الحِمـــى تبكيـــنْ؟ والسُحْـــب تَبْكينـــا
لكـــلِّ أمـــرٍ حيـــنْ خَلِّـــي البُكـــا حينـــا
هـــاتـــي صـــلاح الـــدينْ ثـــانيـــةً فينـــا
الشـــامِـــخَ العِـــرْنيـــنْ عِـــزّاً وتمْكينـــا
وَجَـــدّدي حِطيـــن أو شبـــه حِطِّينـــا

واغرورقت العيون بالدموع حين خاطب الزركلي صلاح الدين:

يـــاراقـــداً فـــي الشـــامْ يسقيـــك غـــاديهـــا
قـــد خَلَـــتِ الآجـــامْ مِـــنْ رابـــضٍ فيهـــا
تـــوالـــتِ الآلامْ وانقـــضَّ مُـــزجيهـــا
هـــل تـــرجـــع الأيـــامْ بيضـــاً ليـــاليهـــا
وتخْفُـــق الأعـــلامْ فَـــوْقَ رَوابيهـــا

ويقول أستاذنا أكرم زعيتر رحمه الله عن فِعْل أنشودة الزركلي في الناس: «ومما لازم هذه الذكرى أن خير الدين ألحَّ على إسعاف النشاشيبي بأن يخطب في الحفلة، وعهد إليّ في اصطحابه إلى حيفا لهذه الغاية، وقد كنت في الخطباء، وجعل إسعاف ـ وكان ثَملاً ـ ينشئ الخطبة فلا يواتيه قول إلا مُتَعْتَعاً، ولا يساعِفُه بيان يثبت على السبك، وعيَّ عن الخطاب، فترك الخمرة، وتناول صبح اليوم التالي فطوره، فاستطابه للمرة الأولى منذ أمد بعيد، ثم أنشأ يكتب، فبرع وسطع، وحلَّق وجوّد، وخطب فأقام وأقعد، حتى إن محب الدين الخطيب جعل عنوانها حين نشرها (أسطول النشاشيبي) وقد سمعت إسعافاً يقول لخير الدين بعد ذلك: «فكّرت في العودة إلى الخمرة، ولكني استحييت من صلاح الدين، إنني مدين بتركها لاثنين: صلاح الدين وخير الدين» وسمعته بعد ذلك ينكر أنه ذاقها، لأن عُمره بدأ يوم عافها».

ويقول الدكتور محمد رجب البيومي في كتابه (النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين: ٣/ ١٣٥): «وواضح أن النشيد الجماعي لا يُراد به الغوص على المعاني، بل يراد به مخاطبة النفوس الغضَّة، والتسلّل إلى العواطف النائمة في صدور الناشئة، وهو بذلك ذو تأثير يفوق تأثير القصائد الشعرية، لأن القصائد في كثير من منازعها ذات صقل فكري يرتفع عن مستوى العامة، وقد يطربون للجو العام حين يسمعون القصيدة في محفل أدبي أو سياسي، ولكن النشيد الذي يكتب ليتردد على الألسنة يصبح شعاراً واسع الانتشار، وقد أدرك الزركلي أثر أناشيده في الخاصة والعامة معاً، فجرى معها شوطاً طويلاً، إذ اخذت حيزاً فسيحاً في ديوانه الكبير».

وأضيف هنا إلى أن الزركلي انقطع عن نظم الأناشيد بعد الثلاثينيات من القرن العشرين، ولم ينظم بعد ذلك إلا نشيداً واحداً عام (١٩٤٨م) (اشهدي يادماء)، ص٩٧:

بيـــــن نُعْمـــــى الســـــرورْ ومـــــآســـــي الغُمـــــومْ

عاش الزركلي في فترة كان لمصر أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، وخليل مطران، وإسماعيل صبري، وكان للبنان شبلي الملاط وبشارة الخوري، وكان للعراق معروف الرصافي وجميل الزهاوي وعبد المحسن الكاظمي، وكان لمكة فؤاد الخطيب[1]، فأطلع الأفق الدمشقي شاعراً للشام: الزركلي.

كان حيناً أشهر شعراء دمشق الأربعة: محمد البزم، وخليل مردم بك، وشفيق جبري، والزركلي. وفي تلك السنوات التي سبقت دخول الفرنسيين والتي توالت بعدها، واتَّقدت فيها شاعرية الزركلي، وجاء بتلك الروائع، تدفق شعره غزيراً فياضاً نحو عشر سنين، ثم غاض. وقد حمل لواء الشعر في الشام في وقت كان عدد الشعراء فيه محدوداً. ولم يسطع نجمه ولم يزكُ شعره إلا

---

(١) فؤاد الخطيب لبناني كما هو معلوم. (الناشر)

حينما نزلت بوطنه النكبات: معركة ميسلون، ودخول الفرنسيين دمشق، والقضاء على الدولة العربية الناشئة[١].

والزركلي شاعر أصيل، تعلَّق بعمود الشعر العربي، والتزم به، وصاغ من الموشحات على منوال الشعراء الأندلسيين، ونحا في شعره منحى المتقدمين من حيث الجزالة والمتانة والأسلوب، وجمع إليه النمط المرغوب عند المتأخرين من حيث الوزن والوضع، فجاء شعره آية في الإجادة وغاية في الإبداع والبراعة.

ويقول الزركلي عن الجديد والقديم، ص٢٣٨ من ديوانه:

يقولُ الناسُ في شعري كثيراً ... وأهل (النقد) أنكأُ للكُلُوم
خذوا منه (الجديدَ) وإن رأيتُمْ ... (قَدِيماً) فالرِّعَايةُ للقَدِيْمِ

الزركلي الشاعر الذي عاش حياته كلها لأمته، فكان من شعراء القلب والروح واللسان.

الشاعر في قلبه المتفتّح أبداً للجمال المترع بالخير الممتلئ بالحب، وفي لسانه الذي يفيض أبداً بالبيان، وينفث السحر الحَلال، بكى الأحلام الضائعة كما بكى الأوراق المتناثرة في الخريف، وكان في شعره أثر الجد ومؤهّلات الخلود، لا كأشعار أصحاب المناسبات وطالبي إعجاب العوام. وفي شعره متانة التعبير، ودقة التصوير، وحسن الديباجة، وروعة الموسيقى.

ويصف البحّاثة الشاعر الدكتور محمد رجب البيومي شعره بقوله: «وشعر الزركلي حار العاطفة ملتهب الأداء، ولكنه من النمط السهل الواضح الذي يسلّم معانيه لقارئه لأول مرة فهو إلى طريقة حافظ إبراهيم أقرب منه إلى طريقة شوقي، وقد نظم في الشعر القصصي ما حلّق فيه فوق مستوى حافظ، لأنه

---

(١) مر قبل قليل ص(١٠٦) أن الزركلي وضع أناشيد وطنية نشر بعضها في رسالة طبعت بدمشق سنة ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٣م باسم (مجموعة الأناشيد الوطنية). (الناشر)

راعى التصوير الفني، ولم يأتِ بالحادث عارياً عن الإيحاء والتلوين، كما اختار بعض الشعر الغربي فساقه مُترجماً، واختياره هذا دليل حمّيته الوطنية، وأذكر أن قصيدة (الديدبان) التي ترجمها في نسق بياني رائع، تلقي دروساً في الوطنية الصادقة لا تبلغه عشرات الصحف الحماسية التي يمر بها الدارس دون التفات ينبئ عن تقديرها، وهي تذكّرنا بمترجمات أخرى حازت نصيبها من الإبداع»[1]

والزركلي من الشعراء الذين لم يرضوا لأنفسهم بالإقليمية الضيقة، وقارئ ديوانه يجد صدى ذلك في شعره الكثير الذي قيل في القضايا العربية العامة، فهو يذكر سورية كما يذكر مصر، وفلسطين، والجزائر، والمغرب والسعودية، فديوانه ـ بحق ـ ديوان الوفاء للعرب كافة.

حيّا الجزيرة (السعودية) بقصيدة مطلعها، الديوان: ٢١٦:

يا نَفْسُ بُلِّغْتِ قصْدا ... وعادَ أمرُكِ جِدَّا

ويذكر نجد، الديوان: ٢١٩:

شَفَى مِنْ لوعةِ الوَجْدِ ... عَبِيْرُ الرَّنْدِ مِنْ نَجْدِ

والرضوانية: نسبة إلى مكان يسمى (الرضوان) في القاهرة: ٢٢٤:

تعوَّدتِ، تَعْذِيبي فطالَ وَأَوْجَعَا ... فما ازدادَ رُكنُ الصَّبْرِ إلا تصَدُّعا

ويحيّي مصر: ٢٢٧:

أَضَأْتِ كالبَدْرِ في مُحْلَوِلكِ الغَسَقِ ... والشَّرقُ في مُدْلَهِمِّ الجَهْلِ لم يُفِقِ

وينظم قصيدة لمرور ألف عام على بناء الأزهر، ٢٧٠:

سَلِ الزمانَ مَتَى بنيانُ أزهرِهِ ... يُجبْكَ: أمسِ، وما بالأمسِ، من قِدَمِ

---

(١) النهضة الإسلامية: ٣/ ١٤٢ـ١٤٣.

ويذكر بيروت، ٢٢١:

سَقَى اللهُ أيّاماً ببيروتَ خَلَّفَتْ ... بِقَلْبِيَ شَوْقاً دائِماً وحَنِيْنَا
نَزَلْتُ بهَا في الأشْرَفِيَّةِ أَشْهُراً ... ويا ليتَه كانَ المقامُ سِنِينَا

ويذكر فلسطين أيام قدوم لجنة التحقيق عام ١٩٣٠م، ص٢٣٥:

أمَّا القلوبُ فلا يَرُعْكَ خُفُوقُها ... في الناسِ مَنْ يَحْلُو لَهُمْ تَمْزِيْقُهَا

ويذكر الجزائر إبّان ثورتها، ٢٩٠:

أما لدويِّ جلْجَلَة الرُّعودِ ... سميعٌ في التهائم والنُّجودِ

ويحيّي ذكرى إنشاء معهد القرويين بفاس، ٢٩٥:

مِنْ سَفْحِ (أَجْيَادَ) ومِنْ (يَثْرِبِ) ... تحيَّةُ المَشْرِقِ للمَغْرِبِ
عُلْويَّةُ النفحةِ قُدْسيَّةٌ ... من طيِّبٍ تُهْدَىٰ إلى طيِّبِ

ويحيّي (الرباط)، ٣٥٧:

لِزامٌ عليّ السُّهدُ إن لم يكن وَجْدي ... إلى جيرةٍ في الغرب ألزمني سُهْدِي

وقد أجاب بها محمد المختار السوسي الذي استطال غيبته، وكتب إليه متمثّلاً:

مَتَىٰ تتَجلَّى طَلْعَةُ العَلَمِ الفَرْدِ ... فإنِّي أَفْنَيْتُ الليالِيَ بِالْعَدِّ

ويخاطب أمة العرب من أنشودة:

سِيْرُوا إلى مجدِكُم رُوْحاً وأبداناً ... واسْعَوا إلى عِزِّكُمْ شِيباً وشُبَّانا
تُشيّدوا ذكرَكُمْ، تبنوا لكم شانا ... شاناً تَلُوحُ بهِ كواكبُ السعدِ
عطفاً على ذِكْر (بغداد) ومَن حلّوا ... رُبوعها، واذكروا (الشامَ) وما يتلو
وعهد (أندلسٍ) فالذكرُ قد يحلو ... وكفكفوا مَدْمعاً يجري على الخدِّ
قفوا على (تونُس) واستمطروا الدَّمْعَا ... وسائلوا عن بني (مرّاكش) الرَّبعا

عَسَى تُرى (عَدَن) تُصغِي لكم سَمْعَا   فتحْفُزُ الآل من (صنعاءَ) أو (نجدِ)
وفي (الحجاز) لنا شعبٌ نحيّيهِ   وعهدُ مجدٍ أصيلٍ في مغانيه
يا أمةَ العُرْبِ تيهي بالعُلا تيهي   زهواً وأكرِمْ بعهدِ القُرْبِ مِنْ عهدِ

ومثل ذلك رثاؤه، فقد رثى سعد زغلول وهو مصري، وأسعد داغر وهو لبناني، ورثى الملك فيصل وأباه عبد العزيز وهما سعوديان، ورثى محمداً الخامس وهو مغربي، ومحمد علي الهندي وهو من الهند كما رثى السوريين: طاهر الجزائري، ورفيق العظم، وفؤاد سليم، وفوزي الغزي وغيرهم، وسأعرض لذلك بالتفصيل.

الصدق في شعره:

ويبقى للزركلي عنصر الصدق في شعره، تحدث عن حاله وحال الناس فأنصفهم، وصدق في وصفه لهم، وديوانه مملوء بشواهد غاية في الكثرة وأنصف الفقير ورقَّ له، ونَفَحَه من نفسه كثيراً، انظر قصيدته (غريق بيروت، ص١٩٣) التي رثى فيها رجلاً ذا أُسرة مؤلّفة من ثمانية أشخاص، عَجَز عن إعاشتهم، فألقى بنفسه في البحر تخلّصاً من الحياة فمات، ورثاه الزركلي في الحال:

ما بالُ بيروتَ لا تَبْكِي العيونُ بها   دَماً وتَضْطَرِبُ الأكبادُ مِنْ أَلَمِ
قَضَى شهيدَ صِغَارٍ لا نصيرَ لهم   ولا مُغيثَ فأبكى مُقلةَ القلمِ

ثم قال:

غريقَ بيروتَ أبكيتَ القلوبَ أسَىً   لا عاشَ بعدَكَ في الأحياءِ ذو نِعَمِ

ويقول الزركلي مخاطباً إياه بأن البحر لم يقتله إنّما قتله طمع الأغنياء:

ما كانَ قاتِلَكَ البحرُ الخِضَمُّ وما   أودى بِشَخصِكَ مَوْجٌ شامِخُ القِمَمِ
لكنْ رَمَتْكَ بِشَرٍّ قدْ دُهِيتَ بهِ   أطماعُ مَعْشَرِ سوءٍ حائفٍ نهمِ
لَوْ أنَّ فِي مُوسِرِينا رَحْمَةً قَشَعوا   عن الفَقِيْرِ حِجَاباً دائمَ الظُّلَمِ

هـم أحْـرَزُوا قُـوتَـه مُستـأثِـرِيـنَ بِـهِ وخلّفـوه مِـنَ الإمـلاقِ فـي ضَـرَمِ
وكُلُّ نفسٍ ستُجزَىٰ بالذي كَسَبَتْ الحيفُ بـالحيفِ والأنـداءُ بـالدِّيَمِ

وقال من قصيدة نظمها في الحرب العالمية الأولى، ص١٧٨:

هِيَ الحربُ كانَتْ للدَّمَارِ وَلَمْ تَزَلْ مَثَارَ خُطُوبٍ تَبْعَثُ الضَّنْكَ والعُدْما
لعـاً لِمُلـوكٍ فـي البـلادِ وقـادةٍ علـى عَثَـرَاتٍ منهـمُ أُمَـمٌ تُـدْمَـىٰ
لَـوْ اجْتَنَبُوا خَوْضَ الحُرُوبِ لأسْعَدُوا مواطِنَهم بِالأمْنِ والرَّاحَةِ العُظْمَى
إذاً كنـتَ تَلْقَـىٰ النـاسَ أبنـاءَ واحـدٍ تسُوسُهُمُ الرُّحمى، وترعاهُمُ النُّعمى
فَـلا أمَّ تبكـي حظَّهـا وزمـانَهـا ولا أبَ يَشْكِي[1] ضَيْمَ رَاعِيْهِ والظُّلْما
ولا طِفْـلَ يَعْلـو نُـدبُـه وعـويلُـهُ وقَدْ أضمرَ الدَّهْرُ الخَؤونُ له اليُتْما

ومن عناصر الصدق في شعره أيضاً: صدقه في حماسته الوطنية وإحساسه بقومه، أو ما ندعوه في عصرنا بالعروبة والقومية، لقد كان شاعراً ينبض شعره بقومه، يذود عنهم، ويفخر بهم، ويشمخ بآثارهم ومكارمهم.

ويقول الشاعر الكبير أنور العطار: «هذا هو خير الدين الذي وصل إلى مصاف العظمة حين شعر أن حياته ملك قومه، وأنّ ما وهب الله له من عبقرية إنما كان في سبيل وطنه، وفي سبيل مواطنيه.

وهذا هو الشاعر الذي أشاع الحياة في ألفاظه، والقوة في معانيه، وسكب روحه أنغاماً يهدهد بها الوطن الجريح آونة، ويثير بها العزائم آونة، كل ذلك في أسلوب يتميز بالعمق والأصالة، ويحفل بالإشراق والوضوح، ويطفح برهافة الحس ولطافة الجرس، فشعره كما يقول (موسّيه Musset)، كالماسة واللؤلؤة، وقطرة الندى، ولكن فيها كل معاني النور والبحر والفجر.

هذا هو خير الدين الشاعر البطل الذي فاق الأبطال، حين أوحى إليهم ما يفعلون، أليس الشعراء والأبطال كما يقول (لامرتين) من سلالة واحدة، لأن

---

(١) هكذا، والصواب: يشكو، ولعله من خطأ الطبع.

الأبطال يفعلون أبداً ما يتصوره الشعراء»[1].

أول شعره وآخره:

أقدم تاريخ قصائد ديوانه ثلاث قصائد نظمت عام (١٩١١م)، وهي من شعر الصبا، الديوان ص١٦٣:

إذا شئتَ أنْ تَحيَا سَعيداً فلا تكنْ   طَلُوباً مِنَ العَلْياءِ غيرَ عُيُونِهَا

وهو تشطيرٌ للبيت:

إذا شئتَ أنْ تحيَا سَعيداً فلا تكنْ   على حالةٍ إلا رضيتَ بِدُونِهَا

وعام جديد، ص٢٠٤ ومطلعها:

عامٌ يَمُرُّ مُزَايِلاً ويَعُوْدُ   فَلَكٌ يَدورُ وليسَ ثَمَّ جَديْدُ

وأنشودة أيها الجندي ومطلعها:

أيُّهَا الجُنْديُّ دَافِعْ   عَنْ حِمَى الأَوْطَان

أما آخر شعر قاله فثلاث قصائد، الأولى نظمها في رثاء الملك فيصل بن عبد العزيز عام (١٩٧٥م) ومطلعها، الديوان ص٣٤٧:

باللَّطْمِ واللّدْمِ يُنْعَى (فيصلُ) الغالي   لا بالنَّحِيْبِ ولا إعوالِ مِثْكَالِ[2]

ويخاطبه:

يَا ثَانِيَ العُمَرَيْنِ انْظُرْ إلَى وَطَنٍ   مُفجَّعٍ بِكَ مَحْفُوفٍ بَأَوْجَالِ

وقصيدة قالها بعد إبْلاله من مرضه، ومغادرته المستشفى ببيروت عام (١٩٧٦م) في قنّاص حرب، وكانت الحرب الأهلية مضطربة، الديوان ص٣٦٧:

---

(١) علم الأعلام، ص٢٧٣.

اِضْـــرِبْ فَهَـــذَا أَخُـــوْكَـــا وَاطْعَـــنْ فَـــذَاكَ أَبُـــوكَـــا
أَلَسْـــتَ قَنَّـــاصَ حَـــيٍّ أَقَـــامَ فِيْـــهِ ذَوُوْكَـــا

والثالثة وهي آخر ما نظم وهي في ثلاثة أبيات نظمها في القاهرة قبيل وفاته بثلاثة أيام، وقد وُجدت إلى جانب سريره، وهي آخر شعره في الديوان ص٣٦٧ :

مَتَـــى تَتَبَـــرَّجِ الـــدُّنْيَـــا وَيَشْـــدُو هَـــزَارُ رَبِيعِهَـــا بَعْـــدَ النَّحِيْـــبِ؟
وَتَبْتَسِـــمُ الأَزَاهِـــرُ فـــي رُبَـــاهَـــا مُعَطَّـــرَةَ النَّـــدَى بِشَمِيـــمِ طِيـــبِ؟
أَمَـــا لِلكَـــارِثَـــاتِ مِـــنَ الـــرَّزَايَـــا خِتَـــامٌ بَيْـــنَ أَحْمَـــدَ وَالصَّلِيْـــبِ؟

قِلَّة شعره بعد ثلاثينيات القرن العشرين:

يلاحظ أنّ الزركلي رحمه الله قد قلَّ شعره بعد ثلاثينيات القرن العشرين، وتـواريخ قصائد ديوانه شاهدة على ذلك، ومردُّ ذلك اشـتغاله بكتابه الخالد (الأعلام) وقد سأله الدكتور بكري شيخ أمين عام (١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م) عن سبب تركه ساحة الشعر والقوافي فأجاب: « . . **أنا لم أترك الشعر، بل لم يتركني هو، فمازال بيننا وصال، فأنا إلى اليوم أنظم، وأترنّم بالقول الجميل، ولكني إلى الإعراض عنه أميل، هذا الإعراض ليس ابن الساعة، ولكنه ذو عمر طويل،** يكاد يمتد إلى خمسين سنة إلى وراء، ولولاه ما خرجت إلى الناس بكتابي (الأعلام) ويخيل إليَّ أني خدمت به بلادي وأمتي بمثل ما خدمتها بشعري.

لكني أرى أنَّ نَظْم قصيدة واحدة يستغرق زمناً، ويحتاج إلى تفرّغ وخيال، وابتعاد عن المشاغل، والعمل في (الأعلام) يستحوذ على ليلي ونهاري، ويغرقني في بحر من القراءة والكتابة والتأليف. لا أجد بعده سانحة أتفرغ فيها لعمل آخر. صدّقني أني عملت خمسين سنة في كتاب (الأعلام) وقضيت معظمها في الوقت الذي أرحت نفسي فيه من الشعر، **أنا ما تركت الشعر أبداً**[1]. **ولكن العمل في الأعلام كان يقتضي التفرغ الكامل لها، وعمل خمسين**

---

(١) هكذا وهو يريد قط. قلتُ: أبداً لنفي المستقبل، فلعل الصواب أن يقول (قط)=

سنة ليس بالقليل»[1].

ويقول: «.. وأظنك توافقني على أن هذا (العمل في الأعلام) خيرٌ من نظم قصيدة، أو الاشتغال بتدبيج أبيات أو مقطوعة غزلية، والوقت الذي أحتاجه لنظم قصيدة أوجّهه إلى مراجعة أربعة كتب أو خمسة، وكتابة سيرة رجل لم يكتب عنه أحدٌ قبلي»[2].

تأثُر الزركلي بالشعراء:

تأثر الزركلي في شعره بالشعراء القدماء والعصريين، فالزركلي في رثائه فؤاد سليم، الديوان، ص٩٥:

صَـــدَقْـــتَ واللهِ عَهْـــدَكْ   لا جَـــفَّ دَمْعِـــيَ بَعْـــدَكْ

قد عارض قول البهاء زهير:

إنْ تَنْـــسَ عَهْـــدِي فـــإنِّـــي   واللهِ لَـــمْ أَنْـــسَ عَهْـــدَكْ

وقول الزركلي الديوان، ص١٥٨:

إنَّمَـــا الشِّعْـــرُ سَلْسَبِيْـــلُ زُلالٍ   كيـفَ يَـدْرِي الـزُّلالَ مَـنْ مُـرَّ فُـوه؟

قد تأثر بقول المتنبي:

وَمَـــنْ يَـــكُ ذا فَـــمٍ مُـــرٍّ مَـــرِيْـــضٍ   يَجِـــدْ مُـــرّاً بِـــهِ المَـــاءَ الـــزُّلالا

وقول الزركلي في رثاء الملك عبد العزيز، الديوان، ص٢٩:

عِـشْ للعـروبـةِ والإسـلامِ معتصِمـاً   فـــإنَّمـــا بـــكَ بعـــدَ اللهِ يُعتَصَـــمُ

= وهي لنفي الماضي. ولعل الدكتور بكري نقل كلامه بالمعنى.

(١) علم الأعلام، ص١٥٠ ـ ١٥١

(٢) المصدر السابق، ص١٥٥.

تأثُّر ظاهرٌ بقول الزهاوي في تحية العَلَم:

عِشْ هكذا في عُلُوٍّ أيُّها العَلَمُ   فإنَّنا بِكَ بَعْدَ اللهِ نَعْتَصِمُ

الموضوعات التي طرقها في شعره:

١ ـ **النضال والوطنيات والسياسة**: عمل الزركلي في ساحات متعددة قبل الحرب العالمية الأولى، وخلالها وبعدها في ميادين الصحافة، وفي تنظيمات الأحزاب، وسار في صفوف الثوار في سبيل استقلال بلاده، ومن أجل الوحدة العربية الكبرى، وأحسّ في خلال الحرب العالمية الأولى بأنّ الغرب يسعى لتقسيم بلاده، وتفريق شملها والعدوان عليها، فقال عام (١٩١٩م)، ص١٢٥:

فِيمَ الوَنَىٰ ودِيَارُ الشَّام تُقْتَسَمُ   أينَ العُهُودُ الَّتي لَمْ تُرْعَ والذِّممُ؟
هَلْ صَحَّ مَا قِيْلَ مِنْ عَهْدٍ وَمِنْ عِدَةٍ   وَقَدْ رَأَيْتُ حُقُوقَ العَرَبِ تُهْتَضَمُ

وألقى قصيدة بين يدي الملك حسين بن علي (١٩٢٠م)، وفيها وصفٌ لآلام الأمة كلها، وما تحملته من عَنَتٍ وإرهاق وظلم، مطلعها، ص١٧٣:

يا ابنَ بِنْتِ النَّبِيِّ أَرْهَقَنَا العَسْفُ   فَجَرِّدْ لَهُ الحُسَامَ الرَّقِيْقَا

ويقول:

إنَّ فِي الشَّامِ أُمَّةً لا تطيقُ الضَّيْـ   ـمَ تَأْبَى لَهَا العُلا أنْ تُطِيقَا

ولما دخل الفرنسيون دمشق عام (١٩٢٠م) بعد وقعة ميسلون، وحلَّت الفاجعة، صوّر الزركلي هذه الفاجعة وسقوط ميسلون بشعر رائع، لا نكاد نجد له مثيلاً في شعر الشام، بل يكاد ينفرد بروعته وبيانه لوصف تلك الساعات الحرجة من حياة أمة، مدّت يدها إلى الحلفاء صادقة فأعطوها المواثيق باليمين، ورموها بالنار بالشمال، ففضّلت الموت على الحياة، وسقط أبناؤها في المعركة ليسقوا الأرض من نجيعهم الطاهر، ولِيُشْهِدوا العالم أجمع على غدر الحلفاء،

فقال الزركلي يصف المعركة الحربية غير المتكافئة وصفاً بليغاً، أرسله من قرارة نفسه دمعاً وأسًى وحُرْقة، وتدفَّق به على الغادرين حقداً ونيراناً مطلعها، ص١١٦ :

اللهَ لِلحَدَثانِ كَيْفَ تَكِيدُ بَرَدَى يَغِيْضُ وَقَاسِيُوْنُ يَمِيْدُ

ثم قال :

لَهْفِي عَلَى وَطَنٍ يَجُوسُ خِلالَهُ شُذَّاذُ آفَاقٍ شَرَاذِمُ سُوْدُ
أَبَرَابِرُ (السَّنِغَالِ) تَسلُبُ أُمَّتِي وَطَنِي وَلا يتصدَّع الجُلمودُ
شَرُّ البَلِيَّةِ وَالبلايَا جَمَّة أنْ تَستبيحَ حِمَى الكِرَامِ عبيدُ

وقد تصوّر الشاعر عظم الكارثة، فجعل بردى يغيض ماؤه، وجبل قاسيون يميد لهولها، فالوطن العربي تجوس أرضه شراذم سود من السنغال يسلبون العزة، ويختلسون الاستقلال، وهذه شرّ بَليّة يُصاب بها وطن، حين يهبُّ المستعبدون لنصرة المستعمرين في سلب وطن آخر.

ولا أطيلُ في ذكر بقية القصيدة وشرحها، فليس هذا هدفي، ويمكن القول: إنّ هذه القصيدة أصدق لوحة في وصف معركة ميسلون في الشعر السوري المعاصر.

وليس شعره كله سواء في حوادث بلاده ورزئها ونكبتها، فمنه بكاء وشكوى، ومنه نُصحٌ وحكمة وسياسة، من ذلك قصيدة ألقاها في عمان عام (١٩٢١م) أمام الملك عبد الله بن الحسين مطلعها الديوان ص١٥٣ :

تذكّرتُ والذكرى تفيضُ جراحُها دماً فجَّرتْهُ مكةٌ وبطاحُها

ويعرّج على الشّقاق، وهو داء مبعثه هؤلاء الحكام الذين كانوا يتقاسمون الحكم ويتنافسون من أجله، لا يعبؤون بما يعدْ الأجنبي وما يفعل، وكأنّه أدرك عصرنا هذا :

وَلَمْ أرَ قَبْلَ العُرْبِ فِي النَّاسِ أُمَّةً سواء عَليها خُسْرُها ورَباحُها

تُـرجّـي فـلاحـاً والشّقـاقُ حَليفُهـا ... وكيـفَ يُـرَجّى في الشّـقاقِ فلاحُها

ولما هاجر الزركلي إلى مصر، وهي ملجأ الأحرار، وملاذ اللاجئين من العرب، يجدون فيها الظلَّ الظليل والعيش الرغيد، أخذ يتغنّى بحرية بلده، ويناجي أهلها بشعرٍ سار في كل مكان، وأطرب الأحرار، وأعجب الأدباء، فأنشد قصيدته السائرة عام (١٩٢٤م) (نجوى) وهي من أروع ما قاله شاعر في الحنين إلى وطنه ومطلعها، الديوان ص٢١:

العيـنُ بعـدَ فِـراقِهـا الـوَطَنـا ... لا سـاكنـاً ألْفَـتْ ولا سَكَنـا

وحين ضرب الفرنسيون دمشق بالقنابل عام (١٩٢٥م) قال قصيدةً في وصف دمار دمشق، (بين الدم والنار) وهي من عيون شعره، مطلعها:

الأَهْـلُ أَهْلِـي وَالـدِّيَـارُ دِيَـارِي ... وَشِعَـارُ وَادِي النَّيْـرَبيْـنِ شِعَـارِي

وكانت قصيدته هذه قد رافقتها قصيدة لأحمد شوقي (نكبة دمشق)[١] سارت في كل مكان، مطلعها:

سَـلامٌ مِـنْ صَبَـا بَـرَدَى أرَقُّ ... ودَمْـعٌ لا يُكفْكَـفُ يـا دِمَشْـقُ

وقد طغت قصيدته هذه على قصيدة الزركلي، مع أنّه نَظَمَها على عَجَل، كما يقـول الطنطاوي في ذكرياته: ١/ ٢٢٧، ولكن شاعريته محت آثار عجلتـه، فجاءت فيها أبيات سارت في الناس مسير الأمثال، وخُلِّدت خلود أبيات المتنبي، وصارت مَدَداً لكل خطيبٍ يخطب، أو زعيمٍ يقود، حَوَتْ معاني تبقى جديدة، ولو مرت عليها السنون.

---

(١) وهي من محفوظاتي في المدرسة، ومازلت أحفظ بعض أبياتها، وكان شوقي (لسان العرب والمسلمين) يعبّر عن آمالهم وآلامهم، أفراحهم وأتراحهم، فما مرَّ بهم حَدَثٌ إلا كانت لشوقي قصيدة فيه، لذلك كان شعره ديوان العرب في هذا العصر.

ويقول الطنطاوي في ذكرياته: ١/ ٢٢٩: «ولكني أفضّل هنا قصيدة الزركلي على قصيدته، لا أفضّل الزركلي ولا غيره عليه هو. الزركلي ابن الشام، ومهما كان البعيد فإنه لا يشعر بمأساة البلد شعور ابن البلد، وأسلوب الزركلي هنا أسلس وألين، وإن كان أسلوب شوقي أقوى وأمتن، وقافية شوقي كأنها الطريق الوعر، فيه الحجارة والصخر، وقافية الزركلي كالسلسال الجاري والجادة المُعَبَّدة السهلة.. وقصيدة الزركلي مملوءةٌ بالصور، ولكنها ليست كالصورة في القصيدة العاطفية، المدار فيها على الجمال وحده، بل على الجمال والحقيقة، لأن هذه القصيدة وأمثالها تاريخ فني، أو فن تاريخي، أريد أن أقول: إنها لا تكمل إلا أن جمعت بين الصدق وبين الجمال، الصدق لأنها تاريخ ليست خيالاً، والجمال لأنها أدب ليست مجرد وثيقة».

٢ ـ الطبيعة والغزل:

أما شعره في وصف الطبيعة، فهو لا يتغلغل في وصف التفاصيل كما نقول اليوم، إنما يقف عند الأوصاف العامة، فلا يرسم تراقص الألوان والظلال، إنما يَعْمَد غالباً إلى رسم المدن والأنهار في الشام فيصف الشلال، ص٤٨:

وَيَـرُوقُنـي الشَّـلاَّلُ مُنْحَـدِراً هـوى ... نَحْـوَ البسيطـةِ مِـنْ أَشَـمَّ عـالِ
يَغْلِـي كـأَنَّ النَّـارَ بَيْـنَ ضُلُـوعِـهِ ... وَيَثُـورُ مُنْـدَفِعـاً إلـى الأدْغَـالِ
شَـابَـتْ غَـدَائِـرُه فَـأَرْسَلَهـا عَلَـى ... وَجْـهِ الـرِّمـالِ وَهَـمَّ بـالإعْـوالِ
وَلَقَــدْ دَنَــوْتُ مُقبِّــلاً قَطَــرَاتِــهِ ... فَـرُمِيْـتُ مـن قطـراتِـه بِنبـالِ

ويصف فيضان نهر بردى بدمشق عام (١٩١٩م) ويخاطبه، الديوان: ٢٠٥:

أتعيـدُ فينَـا عَهْـدَ (نـوحٍ) ثـانيـاً؟ ... أَمْ أنـتَ تَضْـرِبُـه لِقَـوْمـي مَـوْعِـدا
وَيْحِـي وَوَيْحَـكَ مَـا صَنَعْـتَ بِجِيْـرَةٍ ... قَدْ كُنْتَ تَرْوِيْها وَتُؤْمِنها الصَّدى

ويقول:

طَغَتِ المِيَاهُ فَلا سَبيلَ لِرَائحٍ سَهْلَ المَجازِ ولا سَبيلَ لِمَنْ غَدَا

ويقول:

كَالجَيْشِ لاحَ لَهُ فِرارُ عَدُوِّه فأغارَ يَقْحَمُ هاوياً ومُصَعِّدا
لاموكَ أنْ جُزْتَ الحُدودَ وَأكْثَرُوا لَوْ أَنْصَفُوا لَمْ يُحبِسوكَ مُصَفَّدا
هُم قَيَّدوكَ فَمَا أطقْتَ قُيودَهُمْ والحُرُّ يَأبى أنْ يَعِيشَ مُقَيَّدا

وقال يصف صيف مصر، ص١٦٢ :

أيُّهَا السَّائِلونَ عَنَّا بمصْرٍ كيفَ نُضْحِي بها وكيفَ نَبيتُ
نحنُ في هَذِهِ المَدينةِ نَحْيَا حينَ نُمْسِي وفِي النَّهارِ نَمُوْتُ

أما الغزل فهو في ديوانه قليل، كقوله ص١٣٨ :

هَتفَتْ واستبشرتْ لما رأتْ قمراً في حَلَكِ الليلِ ظَهَرْ
ورأتْهُ ضاحِكاً في وجْهها: قمراً يَضْحَكُ فِي وَجْهِ قَمَرْ

وهو يصف مفاتن الأنثى، فيقول في وصف الوجنتين في قصيدة (تفاح)، ص٤٧ :

أهدَتْ ليَ التفَّاحَ فاتِنَتي وشممتُ فيهِ عبيرَ نَفْحَتِها
وملأتُ بالتقبيلِ وجنَتَهُ لمَّا رأيتُ شبيه وجنتِها

٣ـ الشعر الاجتماعي:

تأثّر الزركلي بما أصاب قسماً من قومه من سوء الخلق، فعَمَد إلى الشعر يبثُّه شكاته، ودَلف إلى القوافي يصوّر بها مآسي شعبه في شعر قصصي برع فيه الزركلي، فأرسل قصيدة عنوانها (الفداء) رسم فيه امرأة عظيمة ضحَّت بنفسها في سبيل أهلها، وكانت تضحيتها بالغة العَظَمَة، فقضت ولكنها طُهِّرت بالموت.

انظر القصيدة في الديوان، ص٥٧ ومطلعها :

عِيلَ صبري والنفسُ ذاتُ لَجاجِ   وصباحي يضِنُّ بالإبلاجِ

وصوَّر في قصيدة أخرى صوراً من فجائع الحرب العظمى، أهمها الجوع الذي أصاب الناس، فقد ضاقت أُمٌّ شريفة بولديها، وسامها نذلٌ وضيع بيع أعزَّ ما تملك المرأة، فنزلت على كُرهٍ منها، وباعته بدراهم تقي ولديها الموت والعِلَّة، ولكنه سرق دراهمها وولّى، فلا درهماً نالت، ولا نفسها وقتْ، وما لقيت من الناس إلا الأذيّة، فقال من قصيدة (البائسة)، ص١٥٠ :

وَضَاقَ عَلَيْهَا الْعَيْشُ حَتّى إذَا مَضَتْ   صَبيحةَ يوم لا تَرَىٰ أينَ تَطرُقُ
تَصَدَّى لَهَا مَنْ سامَها السُّوءَ بَاذلاً   لَهَا مستجاداً النَّقْشِ يَزْهُو وَيَبْرُقُ
فَأَلْقَتْ عَلَى وَجْهِ السَّماواتِ نَظْرةً   تكادُ إذا تُلقى عَلَى الصَّخرِ تَخرقُ
ومدَّتْ لحابيها العطيَّة كفَّها   تتابِعُه والقلبُ كالريح يَخفُقُ
وطَالَ على ابنيْها التَّخلُّفُ عَنْهُمَا   فَباتَا وداءُ الجوع لا يترفَّقُ

وهذه القصص الشعرية تشبه ما خلف بشارة الخوري، وخليل مطران من قصص البؤس والمجاعة خلال الحرب.

وقد وُفِّق الزركلي إلى رسم الأخلاق في المجتمع بشعر بسيط، فرأى أنَّ الحق لا يُحترم، إنما تحترم القوة، وأن الكذب سائر مصدَّق، وأنّ الحرص على الجاه والمنصب والتاج عِلَّة الناس، فيقول، ص١٥٦ :

أيَّةُ نفسٍ من أسًى ناجِيَه   والناسُ في حالكةٍ داجيَهْ
هذا ينادي: مَنْصبي منصبي   وذاكَ: تاجي ويحكُم تاجِيَهْ
وإنَّما الفوزُ لِشَعْبٍ صَحَا   والخُسْرُ حَظُّ الأُمَّةِ السَّاجِيَهْ

ولعله تأثر في هذه الأوصاف الاجتماعية بشعر أبي العلاء المعري، فتناول المفاسد والأخلاق ورسمها في زمانه، فكأنّه المعري يصف زمانه، وكأن الأيام لم تتبدل والناس هم هم.

٤ ـ **الرثـاء:**

وقصائـد الرثاء من أطول قصائـد الديوان، وقـد وقف رثاءه على بعض الملوك، كالملك عبد العزيز، وابنه فيصل، ومحمد الخامس، فيقول في رثاء الأول، ص٣٠٢ من قصيدة في ثلاثة وخمسين بيتاً ومطلعها:

عبدُ العزيـز قضى، سَـلِمْتَ سُـعُودُ   مـا فـي الـرِّجـالِ كمَـنْ فقـدتَ فقيـدُ

ويقول في رثاء الثاني في قصيدة من عشرين بيتاً، ص٣٤٧ ومطلعها:

باللّطمِ واللّدمِ يُنعَى (فَيصلُ) الغَالي   لا بـالنَّحيـبِ ولا إعْـوالِ مثكـالِ

ويقول في رثاء الثالث في قصيدة من اثنين وثلاثين بيتاً، ص٣٤٠ مطلعها:

نطَقَـتْ مـآثـرُهُ فـلا خُطبـاؤُه   يُـوفُـونَـهُ حقّـاً ولا شعـراؤهُ

كما رثى شيخه طاهر الجزائري، ص٢٣ فيقول في المطلع:

يُشيِّـعُ بعضُنـا بعضـاً فيمضـي   ومـا فـي الخـالفِيـن بـذي بَقـاءِ

ويختمها بقوله:

وَلَـوْ نَفَـعَ البُكَـاءُ عَلَـى فَقِيـدٍ   وقَفْـتُ لَـهُ الجُفُـونَ عَلَـى البُكَـاءِ

ويرثي سعد زغلول، ص١٤٢ بقصيدة من واحد وأربعين بيتاً مطلعها:

خَـلِّ المـدامـعَ وَحْـدَهَـا تتكَلَّـمُ   أدْهَـى الفَجَـائِـعِ مَـا يُصِـمُّ ويُبْكِـمُ

ويرثي محمد علي الهندي، وهو من كبار رجالات المسلمين في الهند أيام نضالها مع محتليها البريطانيين، في قصيدة من أربعة وأربعين بيتاً، ص١٥٩ ومطلعها:

للهِ فـي عـالَمِـهِ آيتـانْ   سُبحـانَ مَـنْ كـوَّن هـذا الكيـانْ

ويقول في رثاء صديقيه محمد سليم الجندي ومحمد البزم، ص٢٧١ :

لِمَــــنْ خَلَّفْتُمَــــا المِيْــــدان فقيــــدَيْ لُغــــةِ القــــرآنْ
لِمَــــنْ خَلَّفْتُمَــــا الميــــدا ن، والميــــدان للفــــرســــانْ

وفي رثاء فوزي الغزي، ص٢٥٩ :

مَشَىٰ الوطنُ المبكيُّ مِشيَةَ مكْبولِ ... على الهامِ من أبنائِه أيُّ محمولِ

ويقول :

أَفَوزي بنُ إسماعيلَ ما غالَكَ الرَّدى ... ولكنَّـه قَـدْ غَـالَ قَسْـوَرة الغِيـلِ

وانظر رثاء : فؤاد سليم، أحمد مريود، عادل النكدي، رشيد طليع، ص٢٣٩ في قصيدة واحدة ميمية مطلعها :

يَـا عَيْـنُ أَسْهَـرَكِ الجُنـاةُ ونـامُـوا ... لا أنْـتِ هَـاجِعَـةٌ ولا الآلامُ

٥ ـ الوصف:

وأعني به وصف المُسْتحدثات أو الصناعات .

قال يصف طائرة، الديوان، ص٣٣٧ :

نَفَـرتْ فـي الفضـاءِ منْهَـا النُّسُـورُ ... واستقـرَّتْ عَلـى الـرِّيـاحِ تسيـرُ
ذات جُنْحَيْـنِ لا يـرِفَّـانِ كـالعينيـنِ ... إمّـا رَنـا الكفيـفُ الضـريـرُ
تنطـوي الأرض تحتَهـا كبسـاطٍ ... بِيَـدَيْ سـاحـرٍ تـراهُ يـدورُ

ثم يقول :

حَلَّقَتْ فِي سَمَائِهَا تَسْبِقُ الصوتَ ... وتُعيـي الـرِّيـاحَ حيـنَ تثـورُ
فكـأنَّ السَّمـاءَ بَحْـرٌ خِضَـمٌّ ... هـي مِـنْ فُلْكِـهِ عَلَيْـهِ تَطيـرُ

وقال يصف القطار، ص١٠٦ :

تَقَـدَّمَ زاحفاً كـالبـرقِ يجـري ويحسبُـهُ المُحَـدِّقُ فيـه طـارا
وَمَـدَّ دُخـانَـه فـي الأُفْـق ذَيْـلاً كـأنّـك إذ تـراهُ تـرى ستـارا
تلقَّتْـه العيـونُ فمـا تـراءى لهـا متسلّـلاً حتَّـى تَـوارى

وقال يصف ناطحات السحاب، ص٢٧٠ :

نواطِحُ السُّحب مَدَّتْ في الدُّجَى عُنقاً إلى السَّماءِ تجاري السُّحْبَ إصعادا
سَمَتْ إلـى الأُفُـق الأعلَىٰ تُجاورُه وَتَهْجُـرُ الأرْضَ أغْـواراً وأنجـادَا
ملَّتْ مُجَاوَرَةَ الأقْـوَامِ فـانْتَفَضَـتْ وَحَـاوَلَـتْ عَـنْ أثَـامِ الأرْضِ إبْعَـادَا
النَّجْمُ آنسُ فـي الأفلاكِ مُصطَحَباً والجـوُّ أرحـبُ في الباحـاتِ مُرتادَا

وقال يصف الرَّعْناء (الدرَّاجة)، ص٨٠ :

يَـا رَاكِـبَ الـرَّعْنَـاءِ تَعْـدُو بِـهِ عَـدْوَ الظِّبـا فِـي المَهْمَـةِ القَفْـرِ
يَنْتَهِـبُ الأرْضَ بِـدرَّاجَـةٍ يَعْجَـبُ مِنْهـا البـرْقُ إذ تَجْـرِي
كَـالـرِّيـح لا تُلْـوي عَلَـى نَـاظِـرٍ تَـرْجِـعُ عَنْهَـا العَيْـنُ فِـي خُسْـرِ
أو كَخَيـالٍ مَـرَّ فِـي خَـاطِـرٍ أو بَيْـتِ شِعْـرٍ جَـالَ فـي فِكْـرِ
لَـمْ أرَهَـا حَتَّـى اخْتَفَـى وَجْهُهَـا كـأَنَّهـا ضَـرْبٌ مِـنَ السِّحـرِ

٦ ـ الإخوانيات:

وهي القصائد التي أرسل بها إلى أصدقائه، وحيَّاهم بها، كقصيدة (الصحراوية) التي بعث بها إلى عادل أرسلان، بعد إيابه من زيارته ومَنْ معه من المجاهدين النازلين بوادي السرحان، ص٢٥٠ مطلعها :

وَلَيْـلٍ سَـرَيْنـاه ثَـلاثَـةَ ركبـانِ مَسَـاريعَ مِـنْ عَمَّـانَ بُعـداً لِعَمَّـانِ[١]

---

(١) الثلاثة هم : الزركلي، والحاج أديب خير، وأديب العسلي.

مَطيَّتُنَـا (أُمُّ الـرِّيَـاحِ) وَكَـرُّهَـا   كَمَا كرَّ فِي رُحْبِ الزَّمَانِ الجَدِيْدَان[1]

وهي قصيدة طويلة في (٥٦) بيتاً.

وردَّ عليها الأمير عادل بقصيدة (الأرسلانية)، ص٢٥٤ ومطلعها:

أَرَقْـتُ وَمَـا فِي النَّومِ خَيرٌ لِوَسْنانٍ   إذَا لَـمْ يَنَـمْ شَـرُّ المُغِيـرِ بِـأَوْطَـانِ
وَغَـالَبَنـي شَـوْقٌ يُعَـاوِدُ مُهْجَـةً   تقلَّبُ مِنْـهُ فِي الدُّجَـى فَـوقَ نِيـرَانِ

وكتب إليه الأستاذ أحمد عبيد معاتباً، ص٨٩:

مَا بَـالُ حَظِّي مِنْـكَ لا يَجْري بيُمْنٍ أو برُشْـدِ
أُزْجِي إليكَ الكُتْبَ أرجُـو أنْ أَفُوزَ بِحُسْنِ ردِّ
لا أنـتَ تكْتُـبُ لـي ولا عهـدُ اللقـاءِ بمستـرَدِّ
إنْ كُنْتَ أزْمَعْتَ الصُّدودَ وما إخالُ نَوَيْتَ صدِّي
فَـأنـاَ كَمـا يَـرْضَـى الـوَفـاءُ حَلِيْـفَ آمـالٍ وودِّ
مَا زِلتُ أقصِدُ أنْ أنالَ رِضَاكَ علَّ القَصْدَ يُجدي
فابعثْ إليَّ بما يُخفِّفُ مِنْ ضِرَامِ الشَّوقِ عِندي

فأجابه الزركلي:

قَسَماً بِعَهْدِكَ ما سَلَوْتُ ولا جَحدْتُ وَثيقَ عَهدي
أنا مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ خَبَرْتَ، وَودُّ أمسِ اليومَ ودّي
لكنَّهَـا الأيَّـامُ مَشْغَلَـةٌ بمـا تُخْفِـي وَتُبْـدِي
بَيني وبينَ الدَّهْـرِ حَربٌ فَلَّ فيها الدَّهْـرُ حَدِّي

ولمّا غاب الزركلي عن المغرب أيام سفارته فيه بضعة أشهر، طبع خلالها الجزء العاشر من (الأعلام) كتب إليه صديقه محمد المختار السوسي يستطيل غيبته، ويقول متمثلاً، ص٣٥٧:

---

(١) أم الرياح: السيارة. والجديدان: الليل والنهار.

مَتَىٰ تتجلَّى طَلعَةُ العَلَمِ الفردِ فإنِّي أفنيتُ الليالي بالعدِّ

فأجابه الزركلي:

لِزامٌ عليَّ السُّهْدُ إنْ لَمْ يَكُنْ وَجْدِي إلى جيرةٍ في (الغرب) ألزمني سُهْدِي

النَّفَحَات الدينية:

ومن ذلك قصيدته (تسبيحات) وهي دوبيت، ص١٣٠:

رَبِّ سُبْحَانَكَ مَا أَجْهَلَنِي حِيْنَ أَعْصِيْكَ وَلَكِنْ أَنَا مَنْ؟
وَمْضَةٌ فِي رَاعِدٍ أو ذرَّةٌ فِي هُبُوبِ الرِّيحِ أَوْ طَيْفُ وَسَنْ

ويقول في خاتمة قصيدته (الوجود)، ص٢٢:

سُبْحَانَ مَنْ دَلَّتْ عَلَىٰ تَوْحِيْدِهِ آلاؤُهُ وَتَعَدَّدَتْ أَسْمَاؤُهُ

ويقول في قصيدة (ليتني)، ص١٦٢:

ألا لَيْتَنِي حَوْلَ (المَقَام) حَمَامَةٌ يُرفْرِفُ بَيْنَ (المَرْوَتين) جَنَاحِي
أَرُوْحُ وَأَغْدُو حَيْثُ شَاءَ لِيَ الهَوىٰ طَلِيقاً غُدُوِّي فِي يَدي ورَوَاحِي
أَبِيْتُ قَرِيْرَ العَيْنِ أنْعَمُ بالكَرىٰ مَسَائِيَ مَمْسَى غبطةٍ وَصَبَاحِي
أَزِقُّ فِرَاخِي هَاتِفاً لِهُتَافِها وأُرْشِفُهَا مِنْ مَاءِ (زمزمَ) رَاحِي
وَآمِنُ، لا دَهْرِي يَرُوْعُ بِظُلْمِهِ وَلا أَهْلُهُ يَغْشُونَنِي بِسِلاحِ

لزوم ما لا يلزم:

ولمقدرته الشعرية، ولتمكُّنه من اللغة، كثيراً ما يلتزم في شعره ما لا يلزم على طريقة أبي العلاء المعري كقوله، ص١٥٨:

عَرفَ الشِّعرَ بعضُهم بالقَوَافِي وَفَرِيْقٌ بِوَزْنِهِ عَرفُوهُ
حَرَّفُوا نَعْتَهُ ولو عَرَفوه أو دَرَوْا كُنْهَهُ لما حَرَّفُوهُ
إنَّمَا الشِّعْرُ سلسبيلُ زُلالٍ كيفَ يَدْرِي الزّلالَ مَنْ مُرَّ فُوهُ؟

وكقوله[1]:

عجَـــائِـــبُ (...) لا تَنْقَضِـــي تَلْحَـــقُ أُخـــراهـــا بـــأُوْلاهـــا
مـــا كـــانَ إلاّ عَبْـــدَ طـــاغُـــوتِـــه مَـــــنْ حَسبـــــوهُ يَعْبُـــــدُ اللهَ

فقد التزم في الأبيات الثلاثة الأولى في القافية أربعة أحرف، وفي البيتين الأخيرين ثلاثة أحرف.

الفنون الشعرية:

المُوَشَّحات: نظم الزركلي ثلاثة موشحات، الأول (لم تفِ ياقمر) صنع فيه ألواحاً للبؤس مختلفة، ويبدو أنه قاله حين احترقت خزانة كتبه، فصبَّ في شعره ألوان المآسي التي كان يراها حوله، فمن فتاة حسناء أفقرها الزمـان، وجرّدها من الجمال، فتصرّف بها القدر ساخراً هازئاً، ومن نابغة طَوَتْهُ المنون، ومن غريب عاش كئيباً مضطرباً، ومن جريح يطوي الليالي مُسَهَّداً، ومن حروبٍ تقوم بين الناس فتفني منهم الكثير فيقول، ص١٩٧:

لـم تُبـقِ أيـدي الحادثـاتِ ولـم تَـذَرْ فَعَـلامَ تَضْحَـكُ في سَـمَائِكَ يا قَمَرْ؟

أرأيـتَ تائهـةً علـى أَتْـرَابِهَـا
فَتَّـانـةً بسُـفورِهـا وَحِجَابِها
خـلاَّبـةً بـدَلالِهـا وعِتَـابِهَـا
غَـلاَّبَــةً بِحَدِيْثِهَـا وَخِطَابِهـا
ذَهَبَ الزَّمَـانُ بِمَالِهَا وَشَبَابِهَا
وَتَفَـرَّدَتْ بِـأَنِيْنِهـا وَمُصَابِهَـا

نـاجتْـكَ شـاكيـةً تصـاريـفَ القـدَرْ وظللْتَ تَضْحَكُ في سَمَائِكَ يا قمرْ!

وهو موشّح طريفٌ عَذْبٌ، في معانٍ بسيطةٍ سلسةٍ ولغة سهلة، وقوافٍ ليّنةٍ تنسال إنسيالاً في الآذان كما تنسال الموسيقى الهادئة.

---

(١) مجلة العرب س١١، ص٦٣٧.

وموشح (العذراء) وهو موشح طويل، ص٣٤٩ ومطلعه:

سكَنَتْ ضَوْضاءَ مَنْ في الحَيّ لا حَيَّ تراه
وغَفَا الثَّائِرُ لا يَلْهَجُ إلا بِمُناه

ولهذا الموشح قصة: أرسلت سلطة الانتداب الفرنسي في سورية بلاغاً رسمياً إلى دار الزركلي تبلغه فيه أن الجمهورية الفرنسية قررت وقف تنفيذ الحكم الصادر بإعدامه. وكان الشاعر يومئذ يعمل في عاصمة الأردن ـ عمان ـ رئيساً لديوان رئاسة المستشارين ـ الوزراء ـ فأقبل على دمشق للعودة منها بأسرته، وأخلى حجرات بيته، وجمع أمتعته، وبعث بجواز سفره (العربي) إلى الموظف المختص في دار المندوب الفرنسي مستأذناً للخروج، وفوجئ بحجز الجواز، ولكن ما مضى أسبوعان أو ثلاثة أسابيع حتى صدرت مجلة (الرابطة) وفيها (العذراء) ورأى أحد المتفرنسين من قدماء معارفه يصيح به: ترجموها وفهموها! تعال خذ الجواز! وهذا الموشح عرض شعري رائع لما أصاب سورية عقب احتلال الفرنسيين لها.

ونَظَم موشحاً على الطراز القديم لأحد الملحنين، ص٦٩:

زِدْ نِفاراً في الهَوَىٰ أزددْ هُيامْ لَيْسَ فِي الحُبِّ عَلَى الحُبِّ مَلامْ

المعارضات:

عارض قصيدة:

يا ليلُ: الصَّبُّ متى غَدُه أقيامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ؟

بقصيدة، ص٦٧:

بفؤاديَ جُرْحٌ تَعْهَدُهُ ما غَيْرُ وِصَالِكَ يضمِدُهُ

وقد نظمها عام (١٩١٤م) وعمره واحد وعشرون عاماً، صبّ في معانيها وفي قوالبها، فجاء شعره فيها صورة للشعر القديم مبنًى ومعنًى.

المترجمات:

ترجم الزركلي عن الفرنسية قصيدة (الدَّيْدَبان)، ص٥٩ مطلعها:

فــي فَسِيْــحٍ مِــنَ الفَــلاةِ رَحِيْــبِ   كَــانَ جَيْشَــانِ فيهمــا الأُسْــدُ تَــزْأَرْ

وترجم عن (لامارتين) بيت الشعر، ص٢٦٥:

ومـا يَضِيْـرُ عُقـابَ الجَـوِّ أنْ عَلِقَـتْ   بِظِـلِّ جُنْحَيْـهِ أدرانٌ مِـنَ العُشْـبِ؟

الشعر القصصي:

له قصة شعرية واحدة هي (مَجْدُلين والشاعر) وهي خلاصة رواية (مجدلين) أو (ماجدولين) التي عرَّبها عن الفرنسية مصطفى لطفي المنفلوطي، والقصيدة في ثماني صفحات وهي في واحد وعشرين فصلاً: الغربة، الشاعر، الحب، العهد، الفراق، الفقر، الخدعة، العرس، الجنون، حاله، السلوان، النبوغ، الزيارة، الذكرى، الزوج، الإباء، الفاجعة، العزلة، اليأس، الموت، الخاتمة، وأولها الغربة:

مَـنْ لِدَامـي القَلْبِ مَكْسُـورِ الجنـاحْ   فَقَــــدَ الأُمَّ وجــــافــــاهُ الأبُ
أَلِــفَ الكــربَ: مســاءً وصبــاحْ   يسكــــنُ البَــثَّ بِــهِ أو يَثِــبُ
سَئِــمَ العَيْــشَ غُــدُوّاً ورواحْ   سُــدَّ فــي عينـيْ هُــداهُ المـذهـبُ

* * * *

عَبَسَ الدهرُ له فاضطربا
نـازحاً عن أهله مُغْتربـا
رابطَ الجأشِ، أبى يَلْوي لريب الحَدَثان العُنُقا

وقد طَبَعَ هذه القصيدة أولاً في كتاب مستقل سنة (١٣٣٩هـ)، وصدر عن المكتبة العربية بدمشق لأصحابها عبيد إخوان في (٣١) صفحة.

قال فيها خليل مردم، ص٥ من الكتاب المستقل: «ما قصيدة خير الدين

هذه إلا دمعة من دموعه، وجمرة شبَّت بين ضلوعه، فإن أبكت فالبكا يبعث البكا، وإن أشْجَتْ فكذلك الأسى يبعث الأسى».

وقال حليم دموس، ص٤ : قرأت (ماجدولين) نثراً، فأشجتني بما فيها، وقرأتها شعراً فأبكتني قوافيها، فأكرم بناثرٍ قلَّد نحرها بآيات بيانه، وشاعرٍ خلَّد نثرها بأنات جنانه.

السائرات:

لا تخلو قصيدة للزركلي من بيت سائر يُسْتشَهد به، تُلَخِّص فيه حكمة، وتُختصر تجربة، ويكون مسند حديث أو فَصْل خِطاب، من ذلك:

إنَّ الْغَـــرِيْـــبَ مُعَــذَّبٌ أبَـــداً	إنْ حــلَّ لَــمْ يَنْعَـمْ وإنْ ظَعَنـا(٢١)
يُشيِّــعُ بعضنـــا بعضـــاً فيمْضـــي	وما في الخالِفِيْنَ بِذِي بَقاءِ(٢٣)
وَلَــوْ نَفَــعَ البُكَـــاءُ عَلَـــى فَقِيْـــدٍ	وقَفْتُ لـه الجُفونَ عَلى البكاءِ(٢٣)
وإذا النُّفُــوسُ تَغلَّبَــتْ أهْــوَاؤُهـــا	عَصَتِ الحُلـومَ فما يُطاعُ نَصِيْحُ(٤١)
مَــدَحْتكُــمْ وَبِــودِّي لَــوْ هَجَــوْتُكُــمُ	لَوْ أُطلقَ الحُكْمُ لي في مَنْطِقِي وَيَدِي(٤٩)
وَمَــنْ تَكُــنْ خَلَصَــتْ لِلْمَجْــدِ نِيَّتُــهُ	أصابَ نُجْحاً على الأيامِ مَضْمُونَا(٨١)
وللعَــزَائِــمِ مــا تَــرْضَــى فَــإنْ وَهَنَــتْ	خَابَتْ وإنْ تَمْضِ آبَتْ في المُجَلِّينا(٨٤)
إنَّ الــزَّمَــانَ عَلَــى مَــا فيــهِ مِــنْ عِــوَجٍ	قَــدْ يَسْتَقِيـمُ بِــهِ أَمْـرُ الأبِيِّيْنَـا(٨٤)
وَمَــنْ أَعَــدَّ لضَبْـطِ المُلْـكِ عُــدَّتَــهُ	أَطَاعَهُ المُلْكُ واقْتادَ العَصِيِّينا(٨٥)
شَــرُّ البليَّــة والبــلايــا جَمَّـــةٌ	أَنْ تَسْتَبِيحَ حِمَىٰ الكِرَامِ عَبِيْدُ(١١٦)
كَــمْ رَدَّدُوا رَأْيــاً لَعَــلَّ بِــهِ الهُــدى	والـرَّأْيُ آفَةُ نُجْحِـهِ التَّـرديـدُ(١١٦)
إنَّمَـــا الشِّعْـــرُ سَلْسَبِيْـــلُ زُلالٍ	كَيفَ يَدْرِي الزُّلالَ مَنْ مُرَّ فُوهُ؟(١٥٨)
أَنْذَرُونَـا بِالمَوْتِ مَا أعذَبَ الموتَ	إذَا كَــانَ للحَيَــاةِ طَــرِيقَــا(١٧٣)
مَنْ كَـانَ يَحْسِـبُ ما يلي خُطُواتِـهِ	قَهَر الذي يَخْطُو بغيرِ حِسَابِ(١٨٣)
يَنْعَـمُ المَـرْءُ فِـي الْحَيَـاةِ وَيَشْقَـى	وَتَمَـامُ النَّعِيـمِ بَـدْءُ العَـذَابِ(١٩٠)
وَالنَّـاسُ مَـنْ يَلْهَمْ بالشَّـرِّ سَـادَهمُ	والشَّرُّ أَسْوَأُ مَصْنُوعٍ وَمَعْمُولِ(١٩٢)

إذَا الـرَّأيُ لَـمْ ينهـضْ بِـهِ نَـاصِـرٌ لَـهُ   يُؤَيِّدُهُ لَمْ تُجْدِ مَسْطُورَةُ الكُتُبِ(١٩٢)

إنَّ الشِّقَـــاقَ إذَا تَطَــاوَلَ عَهْـــدُه   آبَـتْ بِـهِ الأيَّـامُ شَـرَّ مَـآبِ(٢٤٧)

سَـاءَ التَّفَـرُّدُ فـي التَّـدْبيـرِ مُنْتَهِجـاً   والرَّأيُ للفَرْدِ غَيْرُ الرَّأيِ للآلِ(٢٤٨)

لا خَيْرَ في الحُكْمِ لا الشُّورى تُسَانِدُهُ   ولا حَصَافَـةُ أَقْوَالٍ وأَفْعَالِ(٢٤٨)[1]

وللسِّيـــاسَـــاتِ أَحَـــابيلُهَـــا   لا مُنْصِـفٌ فيهـا ولا مُسْعِـفُ(٣٣٤)

قلت من قبلُ: إن هذا الديوان هو ديوان الوفاء للعربية وأقطارها، وهو المرتبة الثانية من اهتمام الزركلي بعد الأعلام، وقد طبع طباعة فاخرة عام (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م) أي بعد وفاته بأربع سنوات، وقد ضم (٢٦٧) قصيدة أكثرها في القضايا الوطنية والسياسة والحكمة والحنين إلى الوطن، وتتميز بالقِصَر، فهي تتراوح بين خمسة أبيات وعشرين بيتاً، وقلَّما نجد قصيدة تجاوز الثلاثين بيتاً، وقد رأيت أطول قصيدة في الديوان هي (صقر قريش)، ص٨١ التي فازت بجائزة مجلة السياسة الأسبوعية وهي في (٨٩) بيتاً، إضافة إلى موشح (العذراء)، ص٣٤٩، والقصة الشعرية (مجدلين والشاعر)، ص٣٥٩، وفي بعضه دوبيت[2]، انظر ص٤٧ ففيها ثلاث قصائد دوبيت منها:

قـالَـتْ أمِـنْ بَطْحَـاءِ مَكَّـةَ جَـارُنَـا؟   قُلْـتُ: الهَنَـاءُ لِمَـنْ دَعَـوْتِ بِجَـارِكِ

أنَا مِنْ دِمَشْـقَ وَقَـدْ وُلِدْتُ بِغَيْرِهَا   وَسَكَنْـتُ أُخْـرَىٰ وَالحَنِيْـنُ لِـدَارِكِ

وفيه بيت مفرد، ص٨٦:

حَسِبْتُكُم مِنْ رُمَاةِ السَّهْمِ فَانْحَرِفُوا   فَمَا بِكُمْ عِنْدَ رَمْيِ السَّهْمِ مِنْ رَامِي!

---

(١) من قصيدة (لا خير في الحكم) ولعله يعني بها جمال عبد الناصر.

(٢) الدوبيت: أحد الفنون السبعة(المواليا، كان وكان، القوما، الدوبيت، السلسلة، الموشح، الزجل) وهو شعر مستعار وزنه من الفارسية، ويتكون اسمه من كلمة (دو) بمعنى اثنين و(بيت) عربية، وكل بيتين في القصيدة متفقان في الوزن والقافية، ويكونان وحدة مستقلة، هما دوبيت. انظر: معجم مصطلحات العربية، ص١٧٠، ٢٨.

ولم يسلك الزركلي نظاماً أو منهجاً في ترتيب القصائد، كما فعل بكتابه (شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز) فلا هو رتَّبها على الموضوعات: المراثي، الوطنيات، الإخوانيات، الوصف.. ولا هو رتبها بحسب تواريخ نظمها، فتجد مثلاً قصيدة نظمها عام (١٩٦٤م) يليها قصيدة نظمها عام (١٩٣٢م) كما في ص٣٤٤ ـ ٣٤٥، انظر ص٣٤٠ حيث نظم قصيدة في رثاء الملك محمد الخامس عام (١٩٦١م)، وتبعتها قصيدة (في وادي فاطمة) نظمها عام (١٩٣٠م)، ص٣٤٢[1].

وفي الديوان عشرات القصائد لم تؤرَّخ، وليته كان قيَّد زمن قول هذه القصائد جميعاً، ليكون عوناً للباحثين على دراسة شعره واتجاهاته، ونلمس مراحله وأطواره وفنونه.

وقصائد الديوان نظمها في أماكن كثيرة، ولم يقصرها على بلد معين أو بلاد معينة، فنظمها في دمشق، وعمّان، والطائف، والرباط، والقدس، وحيفا، ونابلس، وبيروت، وجدة، وطنجة، وبعلبك، ومكة، وفاس، وأثينة، وباريس، واستانبول.

وأغلب شعره نظمه ما بين عام (١٩١٩ ـ ١٩٣٩م) وقلَّ بعد ذلك.

ونشر بعض شعره بالاسم المستعار (محجوب) انظر ص١٤٤، ١٨٣، ٢٠٣، ٢٥٣، ٢٨١، ٢٩٢، ٣٦٦ ونشر قصيدة باسم (خير)، ص٢٨٤.

هذا وقد حرص الزركلي على طبع ديوانه قبل وفاته، فقدّمه إلى مجمع اللغة العربية بدمشق، فتأخر طبعه فاستعاده، واتفق مع أحد الناشرين في بيروت بوساطة صديقه أستاذنا أكرم زعيتر رحمه الله، فلم يتم الاتفاق، وقد نقحه وحذف منه قصائد ومقطوعات، لكي يروج في السعودية وفي غيرها من البلاد

---

(١) سبق أن ذكر المؤلف أن الديوان طبع بعد وفاة الزركلي بأربع سنوات. (الناشر)

العربية، على ما ذكر شيخنا حمد الجاسر رحمه الله في مجلة العرب س١١، ص٦٣٧.

وقد أُلحق بـالديوان، ص٣٦٩ ـ ٣٨٢ معارضات، وهي بعض ما نشـره أصدقـاء الزركلي من معارضات لقصائـده، كالأمير عـادل أرسـلان، ومحمد عبد الغني حســن، وعبد الكريم الكرمي أبي سلمى، وفؤاد شاكر، ومحمد البزم.

تبع ذلك فهرسان أحدهما للقوافي، والآخر لعناوين القصائد.

وما على القارئ إلا أن ينظر في الديوان بعينيه، ليرى ويقرأ ويستمتع.

تذييل: بلغ من عنايـة الزركلي بالشـعر أنه كان يجعل الأستاذ حسـن الكرمي[1] ـ عندما يحضر إلى بيروت ـ يقرأ من الشعر من الدواوين وكتب الأدب، بحضور الأستاذ ظافر القاسمي، وشخص من آل الأيوبي، ثم يعلّق هؤلاء على الشعر.



(١) صـاحب البرنـامج الإذاعـي الأدبـي (قـول على قـول)، وصاحـب المعاجم الإنكليزية العربية، والعربية الإنكليزية: المغني الكبير، المغني الأكبر، المغني الوسيط... ومعجم الهادي إلى اللغة العربية.

٣ ـ شبه الجزيرة
في عهد الملك عبد العزيز

دار العلم للملايين ـ بيروت، الطبعة السابعة آب ١٩٩٧ ، أربعة أجزاء صفحاتها ١٤٦٠ صفحة ١٧× ٢٤سم في مجلدين .

للملك عبد العزيز بن سعود فضل كبير على الزركلي، آواه بعد تشريدٍ وحكمٍ عليه بالإعدام من قبل الفرنسيين، وقدَّمه في مناصب الدولة، ومنحه الجنسية السعودية، فمثّل حكومته في عدة مؤتمرات دولية، وكان أحد المندوبَيْن السعوديين فيما سبق إنشاء جامعة الدول العربية من مداولات ثم التوقيع على ميثاقها، وانتُدِب لإدارة وزارة الخارجية بجدة، بالتناوب مع يوسف ياسين.

وسُمّي وزيراً مفوضاً ومندوباً دائماً لدى الجامعة العربية عام (١٩٥١م) وعين سفيراً في المغرب (٥٧ ـ ٦٣)، وهيأت له الدولة السعودية جميع وسائل الاستقرار في بيروت، وعكف على إصدار هذا الكتاب الذي هو وفاء للملك الذي استقرت حياته في ظلاله، وهو ضَرْبٌ من ضروب الوفاء للأسرة السعودية.

وقد أهداه إلى الملك فيصل بن عبد العزيز قائلاً: «إلى روح فقيد العرب والمسلمين، الشهيد الذي بكته كل عين، وهَلِع لمصرعه كل قلب فيصل ابن عبد العزيز بن عبد الرحمن، أسكنه الله فسيح جناته، وتولاه بموفور رحمته وغفرانه» كما أهداه إلى الملك عبد العزيز قائلاً: «وإلى روح الذي عرفته وأكبرته، وكان ديناً في عنقي أن أكتب تاريخه فكتبته، إلى روح عبد العزيز أهدي كتابي عن عبد العزيز».

وهذا الكتاب أوفى كتاب في موضوعه، جمع فيه مؤلفه خلاصة أخبار

الملك عبد العزيز، ووصف أحواله العامة والخاصة من جلّ المؤلفات عنه، ومن أفواه عارفيه، ومن ثنايا الأوراق الرسمية في دواوين الدولة، وجمع فيه خلاصة تاريخ قيام الدولة السعودية في الدور الأخير على يد الملك عبد العزيز، وما رافق ذلك من حروب وفتن، ومعاهدات ومراسلات. وفيه كثير من الصور الطريفة، وقد وضعه مؤلفه لأحداث الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز فوقف عند عهده، ويعدُّ نموذجاً للنثر العربي الوديع القوي في جمال الترجمة الشخصية.

ضم الكتاب (١٨٤) فصلاً تتراوح طولاً وقِصَراً ما بين صفحة واحدة وثمانٍ وثلاثين صفحة، حُلّي كل فصل منه باسم (الملك عبد العزيز) لأنه تاريخ ما وفّق الله له عبد العزيز، وعماد هذا الكتاب التتبُّع والاستقصاء.

وتبرز أهمية الكتاب أن مؤلفه مؤرخ ثبَت مُقتدر، وكتبه بعد أن أقام بالسعودية سنوات، وكان مقرباً من الملك عبد العزيز وأولاده ورجاله، واشتغل في السياسة السعودية الخارجية فرأى وسمع، **فجاء كتابه غاية في الدقة، يضاف إلى هذا أسلوب المؤلف السهل الواضح البليغ.**

افتتح كتابه بحديث عن الملك عبد العزيز ألقاه ابنه الملك فيصل، ثم شرع في الحديث عن الملك عبد العزيز، مقدّماً لذلك بخلاصة سيرة أسلافه مبتدياً بالأمير سعود بن محمد بن مقرن(١) جدّ آل سعود ومؤسس حكمهم، فابنه محمد بن سعود(٢)، وفي عهد هذا ابتدأ دور (الإمامة) في بيت آل سعود وكان رؤساؤهم ـ كما يذكر الزركلي ـ يُدعون بالشيوخ والأمراء، إنما دُعي بالإمامة بعد اصطباغ سياسته وحروبه بالصبغة الدينية الخالصة: حروبه (جهاد) وغاراته (غزوات) وانتصاراته (فتوحات) ورعاياه (المسلمون) والخروج عن طاعته (رِدّة) ومرجع أحكامه الكتاب والسنة، وفي أيامه ظهرت دعوة الشيخ

---

(١) انظر ترجمته في الأعلام: ٣/ ٩١.
(٢) المصدر السابق: ٦/ ١٣٨.

محمد بن عبد الوهاب، وناصرها الإمام محمد بن سعود، وعاهده على إقامة شرائع الإسلام. وانتهى إلى سعود الكبير بن عبد العزيز[١]، وتحدث عن قتال العثمانيين له الذين ضاقوا ذرعاً باتساع دولة آل سعود[٢]، واشتد حَنَقُهم حين ترامت إليهم أخبار (الإمامة) وهي صِنْو (الخلافة) التي كان يقوم عليها عرش آل عثمان، وجهزوا أربعة جيوش لقتال سعود، ونشبت معارك حالَفه الظَّفرُ في أكثرها، إلى أن تغلّب إبراهيم باشا[٣] بن محمد علي باشا على الديار النجدية بعد وفاة سعود ومبايعة ابنه عبد الله[٤] عام (١٣٢٣هـ = ١٨١٨م).

ثم انتقل للحديث عن مولد الملك عبد العزيز ـ ودولة آبائه في ضعف وانحلال ـ وصُحْبته أباه عبد الرحمن إلى البادية، يطارده ابن رشيد الذي احتل الرياض، واستقرار عبد العزيز في الكويت، وشنِّه الغارات على آل رشيد وأنصارهم، ومفاجأته عامل ابن رشيد في الرياض واستيلائه عليها، وهي حادثة كَثُرَ الكاتبون عنها، يزيد هذا ويُنْقِص ذاك، وحاول الزركلي الجمع بين مختلف الروايات، مراعياً التقيّد بما نُقل منها عن لسان الملك عبد العزيز في أحاديثه الخاصة، وعلى أثر هذه الحادثة جدَّد إمارة آل سعود وقاتل ابن رشيد.

وأسهب الزركلي في وصف وقعة البكيرية بين الملك عبد العزيز وابن رشيد ومعه بعض عساكر العثمانيين، جامعاً تفصيل المعركة بين رواية أمين الريحاني وخالد الفرج، موضّحاً الشرح بالخرائط، لينتقل بعد ذلك إلى وقعة الشِّنَانة عام (١٣٣٢هـ= ١٩٠٤م) وهي القسم الثاني من وقعة البكيرية التي وطَّدت قدم ابن سعود في نجد، وقضت على النفوذ التركي، وانهارت بها الصخرة الأولى من صرح آل الرشيد، وقتل ابن رشيد بُعَيْدها.

---

(١) انظر: الأعلام: ٣/ ٩٠.
(٢) وكانت دولته ممتدة من عُمان ووادي حضرموت ونجران وعسير إلى شواطئ الفرات، والبادية السورية إلى قرب دمشق، ومن الخليج إلى البحر الأحمر.
(٣) انظر الأعلام: ١/ ٧٠.
(٤) انظر الأعلام: ٤/ ٨٩.

ثم وصف الزركلي جيش ابن سعود قبل التنظيم الحديث، وضمّ ما هو قريب من الرياض كالخرج والمحمل والوشم والحوطة والأفلاج، واستيلائه على بلاد القصيم بعد معارك مع جبار آل رشيد: عبد العزيز بن متعب وقتله.

وعرّج على الفتن التي عالجها، والضغائن التي داواها عبد العزيز (١٣٢٥ ـ ١٣٣٠هـ=١٩٠٧-١٩١٢م) ولسان حاله يقول: كلما داويت جرحاً سال جرح.

وواصل حديثه عن اتساع دولة ابن سعود، فذكر ضمَّ الأحساء، وتطرّق إلى ما كان بينه وبين ابن رشيد، والشريف حسين بن علي، ومبارك بن الصباح قائلاً، ص٢١٥: «وهو دائب على محاربة عدو واحد في الشمال الغربي (ابن رشيد) ويجامل عدواً يلبس لُبس الصديق في الغرب (الشريف حسين) ويوالي صديقاً يعمل عمل العدو في الشمال مبارك بن الصباح».

(**الملك عبد العزيز والكويت بعد مبارك**) تحت هذا العنوان تحدث عن أخبارهما المليئة بالمفارقات والمتناقضات، وقال في نهاية حديثه، ص٢٢٨: «كان مبارك وعبد العزيز حظيظين: مات مبارك قبل أن يكتوي بحرب عبد العزيز، وخلت صفحة عبد العزيز من يُحصي عليه الزلات: قاتل من آواه في صباه، وكان يدعوه أباه».

وأورد نماذج من كتابات مبارك لعبد العزيز، وفيها ما يصحّ اتخاذُه نموذجاً للتفكير والتوجه السياسيين في ذلك العهد.

وانتقل للحديث عن الكويت بعد مبارك وتولي ابنه سالم، وتطرق لوقعة الجَهْراء بين جيش ابن سعود وجيش سالم التي انتهت بمئات القتلى بين الجانبين، وعرض لتولّي أحمد الجابر الذي صفت العلاقات في عهده بينه وبين آل سعود، وظهور النفط في الكويت، وانتعاش حركتها العمرانية.

وكتب فصلاً عن موقف الملك عبد العزيز لما كان بين العرب والترك، انتهى فيه إلى أنه لزم الحياد في الحرب العالمية الأولى، فلم يتعرض للشريف

حسين في قيامه على الترك العثمانيين، ولم يتعرض للعثمانيين فيما ظلّ موالياً لهم من بلاد العرب، ثم كتب عن إزالة إمارة آل عائض في أبها من بلاد عسير التي تمردت عليه، وإزالة إمارة آل رشيد في حائل التي استمرت واحداً وتسعين عاماً.

ويمضي في الحديث عن محاربة الملك عبد العزيز للبداوة، وتحويل كثير من أهل الخيام إلى سكان قرى أنشأها سميت (هجر) جمع هجرة التي بها يستعيضون عن انتجاع الكلأ والصراع في سبيله، وعن السَّلْب والنَّهْب.

وتحدث عن الفروسية في عهده وذكر أشهر الفرسان، وتحدث عن فروسيته وأسلوبه في القتال.

(الملك عبد العزيز والإنكليز) تحت هذا العنوان تكلم في العلاقة بينهما منذ اجتماع العُقير، بين الملك عبد العزيز وممثلي الحكومة البريطانية في الخليج عام (١٣٣٢هـ = ١٩١٤م) واتفاقهما على أمور ذكر بعضها الزركلي، وقال ص٢٨٢: «وليس بين يدي مما استطعت الوقوف عليه من الوثائق أو الكتب المصنفة في سيرة عبد العزيز خبرٌ ما عن هذا الاجتماع، وليس معنى ذلك هو الشك في وقوعه في العقير، وفي العام المذكور آنفاً، وإنما الشك في (نص) ما تقرر فيه».

ثم تحدث في (معاهدة دارِين) بين الملك عبد العزيز وبرسي كوكس، كبير الضباط السياسيين في الحملة البريطانية في العراق عام (١٣٣٤هـ/ ١٩١٥م) ويقال لها أيضاً معاهدة القَطيف، وهي على غِرار المعاهدات التي كان الإنكليز يعقدونها مع إمارات الخليج، إلى أن كان مؤتمر العُقَير عام (١٣٤١هـ= ١٩٢٢م) بين الملك عبد العزيز وكوكس، ونشأت عن اجتماعات المؤتمر أمور أهمها:

١ ـ الاعتراف بعبد العزيز سلطاناً على نجد وملحقاتها.

٢ ـ قبول مبدأ تخطيط خط للحدود على الأرض، بين بلاد عربية كانت ولا تزال منذ الخليقة بلاداً واحدة.

٣ـ تأسيس منطقتين محايدتين بين نجد والعراق، ونجد والكويت.

وأتبع هذا المؤتمر معاهدة جدة عام (١٣٤٥هـ =١٩٢٢م) التي محت معاهدة دارين، وبهذه المعاهدة أُقيمت العلاقات بين الحكومتين السعودية والبريطانية، على أُسس سليمة من الصداقة وحسن التفاهم، ومعاملة النِّد للنِّد.

(**الملك عبد العزيز والشريف ـ الملك ـ حسين**) تحت هذا العنوان كتب عن مصافاة الملك عبد العزيز وبُعْدِه عن الشر والعداء، وعن طموح الشريف واعتداده بنفسه، وأورد نص رسالة من عبد العزيز إلى الحسين وردَّ الحسين عليه.

وتكلم عن وقعة تُرَبَة والخُرْمة (وهما قريتان أو واحتان بين الحجاز ونجد) كان يرى الحسين فيهما أنهما من قرى الحجاز، وابن سعود يراهما من نجد، فزحف عبد الله بن الحسين بأكبر جيش تمكنت حكومة الشريف حسين من جمعه تحت لوائها، وكان مؤلفاً من سبعة آلاف مقاتل فاحتل تربة، ثم فاجأه جيش ابن سعود ومزّق جيشه واحتل تربة ليلة (٢٥ شعبان ١٣٣٧هـ=١٩١٩م)، وزحف إلى الحجاز واحتل الطائف عام (١٣٤٣هـ= ١٩٢٤م) واتفق أهل مكة على نُصْح الحسين بالتخلّي عن العرش لكبير أبنائه (علي) فقبل، ونُودي به ملكاً على الحجاز بجدة في (٥ ربيع الأول ١٣٤٣هـ) ودخل جيش ابن سعود مكة بغير سلاح في (١٧ ربيع الأول ١٣٤٣هـ= ١٩٢٤م) ثم زحف جيشه بقيادته إلى جدة التي تحصّن فيها علي بن الحسين، وعبّأ جيشاً أنفق عليه أموال أبيه وأمواله، وكان يقدّر بنحو ثلاثة آلاف مقاتل، كثير منهم من أهل فلسطين والأردن وسورية ولبنان، ومصر واليمن، أما جيش ابن سعود فكان نحو ستة آلاف مقاتل، واشتد ابن سعود في حصار جدة فنزل علي عن عرشها في ١٧/ ١٢/ ١٩٢٥م وانصرف إلى بغداد، وبذلك دانت الحجاز لابن سعود، وسمّي ملك الحجاز ونجد وملحقاتها.

ثم عرض الزركلي لدستور بلاد الملك عبد العزيز، وتشكيلات بلاطه

ووزاراته ووزرائه، وذكر أن أول وزارة أُحدِثت بالسعودية هي وزارة الخارجية عام (١٣٤٩هـ=١٩٣٠م) وتولاها الأمير فيصل، ومرجعها في الدقائق والجلائل الملك عبد العزيز، ويذكر أن ثانية الوزارات هي المالية التي أُنشئت عام (١٣٥١هـ= ١٩٣٢م) وتولاها عبد الله السليمان الحمدان، ورُبطت فيها إدارات (التموين) و(الحج) و(الزراعة) و(الأشغال العامة) و(إدارة المعادن) قبل أن تصبح وزارات.

ويتابع كلامه عن تشكيلات الدولة، فيتحدث عن التمثيل السياسي في عهد الملك سعود، ويذكر الدولة الممثَّلة في بلاده مع تاريخ إنشاء العلاقات مبدوءة بالأقدم فمن تلاه إلى سنة (١٣٦٧هـ =١٩٤٨م) فأنواع التمثيل الأجنبي في بلاده، وتمثيل حكومته في الخارج، ويورد المعاهدات الثنائية التي عقدتها الحكومة مع الدول الأجنبية مرتبة بحسب تواريخ توقيعها، فالاتفاقيات الدولية التي انضمت إليها حكومته.

ويمضي في الحديث عن عناية الملك بالصحة العامة ليختم الجزء الأول عن تعميم الهاتف اللاسلكي، حيث أشار إلى أن الملك ربط مملكته بشبكة لاسلكية أفادته كثيراً في حروبه، وكانت مِعواناً لحكومته على حفظ الأمن.

ويفتتح الجزء الثاني بالحديث في القضاء قبل عهد الاستقرار، فيذكر أنه كان ماضياً على ما كان عليه في العهود السابقة: في كل مدينة قاضٍ وأمير، يستعرض الأول ما بين المختصمين ويحكم، فإن رضيا بالحكم نُفِّذ دون عَناء، وإن أبياه أو أباه أحدهما، رُفع إلى الأمير فتولى إنفاذه، محكمة القاضي بيته أو المسجد أو أي مكان وُجد فيه، لا محاكم ولا محامون، هذا في المدن.

أما في العشائر فكان السائد هو حكم العارفة، والعارفة عندهم كالقاضي في الحواضر وأصل الكلمة (العارف) زيدت التاء للمبالغة كالراوية، وأحكامه مزيج من الشرع والعُرْف والعادات، ويذكر الزركلي أن هذه الأحكام مع ابتدائيتها، تشبه في بعض الأحيان طريقة الحكم في أرقى المحاكم البريطانية،

حيث لا قانون مسطور للعمل بمقتضاه، إنما هناك مجموعات للأحكام الصادرة، وإذا أراد القاضي إصدار حكم كان عليه أن يأتي ببعض الأمثلة من مجموعة الأحكام كسوابق قانونية، ويقيس عليها حكمه، أما الملك عبد العزيز فحينما كان يجلس للقضاء فهو القاضي الأول والقاضي الأخير.

أما القضاء بعد الاستقرار فقد عقد له الزركلي فصلاً تحدث فيه عن رئاسة القضاة أكبر منصب قضائي في الدولة، ومقرها مكة، وعن الدوائر المرتبطة برئاسة القضاة، وذكر أنواع المحاكم وتقسيماتها، وأورد محاضرة لقاضٍ مصري في نادي القضاة بالقاهرة عن القضاء في الحجاز، انتهى فيها إلى أن النظام القضائي في البلاد العربية السعودية صار واحداً في الحاضرة والبادية، وفي جميع درجات المحاكم، أساسه الشرع الشريف، وعُمْدَتُه الفقه الحنبلي، وهو مذهب الحكومة العربية السعودية.

وتحدث عن أنظمة الدولة في عهده، وأورد أهم تلك النُّظُم، وتواريخ موافقة الملك عليها، أو نشرها في جريدة أم القرى شبه الرسمية.

وعقد فصلاً للحديث عن الأمن في عهد الملك عبد العزيز، خَلُص فيه إلى أن الأمن في السعودية كان ولا يزال مضرب المثل، وعطَفَه بفصل آخر له صلة به، وهو الحديث عن عبد الله بن جلوي[1] الذي كان له دور في توطيد الأمن.

ثم خصّص فصلاً للحديث عن رؤساء الفتنة في نجد وقال في خروج فيصل الدَّويش[2] على الملك عبد العزيز ما مؤدّاه بإيجاز: فيصل الدويش آخر شيوخ مطير، وكان بدوياً قحّاً، فيه شراسة ودهاء واعتزاز بعدد رجاله، وصحب الملك عبد العزيز، وبرز اسم الدويش في معارك منها معركة الجهراء، وحصار حائل وحصار المدينة المنورة، وغزواته لعشائر من نجد، ورافق الرُّعبُ اسمَ فيصل الدويش، فكان يرى نفسه نِدّاً لعبد العزيز، وتزوج ببنت سلطان بن بجاد[3] من

(١) انظر ترجمته في الأعلام: ٤/ ٧٧.
(٢) انظر ترجمته في الأعلام: ٥/ ١٦٦.
(٣) انظر ترجمته في الأعلام: ٣/ ١٠٩.

شيوخ عُتيبة فازدادت عصبيّته قوة، فائتمر مع سلطان بن بجاد وضيدان ابن حثلين بالانتفاض على عبد العزيز، فقام عبد العزيز بزحف كبير عام (١٩٢٩م) ضرب به جموع الدويش، وجُرح الدويش وجيء به إلى عبد العزيز فعفا عنه، ولما اندملت جراحه، عاد يستنفر القبائل للقيام على عبد العزيز، ويقاتل مَن يتخلَّف عن نُصرته، وكانت له في ذلك معارك، وزحف إليه عبد العزيز، ولم تكن إلا مناوشات انفضَّت في خلالها جماعات الدويش، وضاقت في وجهه السُّبُل، فلجأ إلى الكويت واحتمى ببارجة بريطانية، وأَنذر عبد العزيز البريطانيين بالهجوم على الكويت، ودارت مفاوضات عاجلة، وجيء بالدويش على طائرة فأُرسل إلى سجن الأحساء، فمات بعد سبعة شهور في حبسه، وبعد ذلك ساد الأمنُ شبهَ الجزيرة، واستقرّ المُلك لعبد العزيز.

(الملك عبد العزيز ومقابلته للملك فيصل بن الحسين[١] في لوين) تحت هذا العنوان تحدث عمّا دار في مقابلتهما من مباحثات على ظهر الباخرة الإنكليزية (لوين) وكثير من هذا الفصل لم يُسبق نشره، ومداره على يوسف ياسين[٢] الذي رافق الملك عبد العزيز في رحلاته، وتناول البحث بصورة خاصة استعراض ما كان بين عبد العزيز والحسين بن علي وأولاده، ثم جرت محادثات عامة للقيام بمساعٍ مشتركة لتحرير سورية، والسير بالاتفاق والتفاهم إلى ما فيه مصلحة الوحدة العربية.

(الملك عبد العزيز والأدارسة في عسير) تحدث في هذا الفصل في دولة الأدارسة (نسبة إلى أحمد بن إدريس[٣]) في صبيا وعسير، وفي مؤسسها محمد ابن علي الإدريسي[٤] الذي كان بين عدوين قويين: الإمام يحيى في اليمن،

---

(١) انظر ترجمته في الأعلام: ٥/ ١٦٥.
(٢) انظر ترجمته في الأعلام: ٨/ ٢٥٣.
(٣) انظر ترجمته في الأعلام: ١/ ٩٥.
(٤) انظر ترجمته في الأعلام: ٦/ ٣٠٣.

والشريف حسين بن علي بالحجاز، واستمر في عزّ ومنَعَة إلى أن توفي عام (١٣٤١هـ= ١٩٢٣م) ثم تكلَّم عن التقلُّبات والأحداث التي تتابعت بعده إلى أن زالت إمارة الأدارسة من صفحة الوجود، وضمّ عسير إلى السعودية عام (١٣٥٣هـ= ١٩٣٤م).

وبعد إيراد ما تقدم ألحق به الزركلي أهم ما جاء في بحث ـ أو تقرير ـ عن بلاد عسير، وضعه أحد مستشاري الملك عبد العزيز إتماماً للفائدة، أكثره معلومات جغرافية وتاريخية وأنساب قبائل.

ثم تحدث عن خروج حامد بن رَفَادة[1] على الملك عبد العزيز، وكان هذا من رعايا الملك، ثم جَنَح إلى العصيان فضُرب، وفرَّ إلى مصر وشرقي الأردن وتوغّل في الحجاز مع جماعات كان على اتفاق معها، ونشبت معركة بينه وبين جيش عبد العزيز قرب (ضبا) انجلت عن مقتله ومن معه، وكان ذلك عام (١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م).

وانتقل للحديث عن توحيد أجزاء المملكة تحت اسم المملكة العربية السعودية بعد أن كان اسمها المملكة الحجازية النجدية وملحقاتها، وأعلن يوم ٢١ جمادى الأولى ١٣٥١ هـ = ٢٢/ ٩/ ١٩٣٢ يوماً لإعلان توحيد المملكة، وتحدث عن نظام توارث العرش من بعد الملك عبد العزيز ومبايعة سعود ولياً للعهد.

وأتى بفصل جديد تحدث فيه عن الشورى عند عبد العزيز، أبان فيه أنها دستوره في جلائل ما يُعرَض له من أمور سياسته الداخلية والخارجية، وأن مستشاريه يسمون (الرَّبْع)، وتحدث عن مجلس الشورى في أطواره واختصاصه.

وفي فصل آخر **(الملك عبد العزيز موفَّق)** تحدث فيه عن توفيق الله لعبد العزيز قائلاً: «التوفيق قوة من عالم الغيب، يؤمن بها من تتبّع أمثال سيرة

---

(١) انظر ترجمته في الأعلام: ٢/ ١٦١.

عبد العزيز.. والموفَّق: ذلك الذي تجري الأحداث أو تكاد تجري متتابعة متجانسة على وَفْق غرَضه وعلى مصلحته»، ص٥٨١، وأورد شواهد كثيرة لتوفيق الله لعبد العزيز من طفولته حتى وفاته.

وأتبعه بفصل تحدث فيه عن رحلة عبد العزيز بين المدينة والرياض، وهو مقتبس من كاتب الرحلة، الدكتور مدحت شيخ الأرض طبيب الملك الخاص، اقتصر منها الزركلي على ذكر المواضع وأهم التعليقات، للجمع بين الفائدة الجغرافية والإيجاز.

(الملك عبد العزيز والإمام يحيى حميد الدين)[١] في هذا الفصل تحدث عن العلاقة بين هذين الملكين، أبان في بدايته عن التشابه العجيب بين قيام الحركتين النجدية واليمانية، وفي أهداف عبد العزيز ويحيى حميد الدين، وأشار إلى أن الوِدّ كان بينهما إلى أن كان الخلاف بإعلان عبد العزيز حمايته لبلاد الأدارسة في عسير، وكان يحيى يطمع في الاستيلاء على هذا القسم رغماً عن إرادة أهله، وكلهم شوافع، فنقدم جيش الإمام يحيى إلى جبال جازان عام (١٣٥٢هـ =١٩٣٣م) وتجاوزها إلى نجران، فأنذر عبدُ العزيز يحيى بوجوب سحب قواته، فأبى، فتقدم الجيش السعودي بقيادة سعود وفيصل ابني عبد العزيز، وتوغّلا إلى أن انهار جيش الإمام، فكانت معاهدة الصلح التي سميت (معاهدة الطائف) والتي وصفها الزركلي بأنها «أشرف معاهدة عرفتها السياسة الدولية» وكانت في (٦ صفر ١٣٥٣هـ = ٢١/ ٥/ ١٩٣٤م) وهي تتألف من ثلاث وعشرين مادة[٢].

وقد أطال الزركلي تلخيص هذه المعاهدة لاستمرار الحاجة إلى الرجوع إليها فيما يتعلق بالحدود خاصة، وكان المتفاوِضان الملك خالد بن عبد العزيز[٣] وعبد الله بن الوزير[٤].

---

(١) انظر ترجمته في الأعلام: ٨/ ١٧٠.
(٢) انظر الأعلام: ٤/ ٧٠.
(٣) انظر ترجمته في ذيل الأعلام: ١/ ٧٧.
(٤) انظر ترجمته في الأعلام: ٤/ ٧٠.

وفصّل الحديث في **(حادث المطاف)** وهو محاولة اغتيال عبد العزيز من قبل ثلاثة يمنيين، في أثناء طواف الملك حول الكعبة، ونجاته منهم.

وتحدث بتفصيل عن التعليم في عهده، فتحدث في المدارس النظامية في المدن والقرى الكبيرة، والمطاوعة والمرشدين في الهجر والقبائل، والبعثات إلى الخارج والتعليم الأهلي، وتحدث في رعاية الملك للتعليم، وذكر الذين تولوا إدارة المعارف في عهده قبل أن تصبح وزارة عام (١٣٨٠هـ=١٩٦٠م).

(الملك عبد العزيز وحكومات العراق) بيَّن الزركلي في هذا الفصل أن عبد العزيز عاصر ثلاثة أدوار من تاريخ العراق الحديث: العثماني، والاحتلال البريطاني، والهاشمي بقيادة فيصل بن الحسين، وأن الأمر استقر مع الأخير بين الجارتين الشقيقتين، توحّدهما العروبة، وتُعْقَد على تآخيهما الآمال.

وانتقل إلى الحديث عن العلاقات بين عبد العزيز وحكّام المملكة المصرية بدأه بالحديث عن صفاء عبد العزيز تجاه مصر من خلال انقطاع الزركلي إلى تمثيل عبد العزيز في بلاد وادي النيل (١٣٥٣ ـ ١٣٧١هـ=١٩٣٤ ـ ١٩٥٢م) ثم تحدث عن القطيعة بين البلدين بعد حادثة المحمل، وهذا ذكر موجز للموضوع لتتم الفائدة: في اليوم الأول من عيد الأضحى (١٣٤٤هـ ـ ٢٢/ ٧/ ١٩٢٦م)، وحجاج العالم الإسلامي مجتمعون في مخيماتهم بمِنى، تلفَّت عُربان نجد، وكانوا أكثر الحجاج عدداً في ذلك العام، فرأوا أمامهم (المَحْمَل) القادم مع الحج المصري على جمل يتهادى بين الجموع[1]، تحيط به موسيقاه وعساكره، وتصايحوا: الصنم الصنم، وتهافتوا يرشقونه بالحجارة وهم بملابس الإحرام، واستولى الخوف على أمير الحج المصري، فأمر رجاله بإطلاق النار، ولما علم عبد العزيز بالخبر توسط بين العربان ونار الجند، وهو يصيح أنا عبد العزيز، فهدأ إطلاق النار، وتدخل الجند السعودي، وانكفَّ الناس، وأمر بحجز المحمل

---

(١) ما من حاجـة إلى القول بأن ذلك بدعة، ولم يكن له وجود في عصور الإسلام الأولى.

عن الأنظار، وترتب على هذا الحادث انقطاع العلاقات بين السعودية ومصر.

(**وتباشير الأدب في عهده**) يفتتح هذا الفصل بقوله: «ينتعش الأدب بانتعاش الأمة، ويكثر الإقبال عليه في أزمنة استقرارها، ويزدهر في أيام رخائها» ويشير إلى ضمور الأدب إبّان الأتراك، ويتحدث عن أدب الحجاز ونجد، ومن اشتهر فيهما من أدباء وشعراء، ويورد بعض أشعارهم ويجيب على سؤال: «لماذا جعلتُ الشعر ميزان الأدب.. ولم آتِ إلى جانب النماذج المنظومة بنماذج منثورة»، فيجيب: «الشعر أدلّ على (لون) العصر من النثر.. وإن قصيدة من شعر الأبيوردي مثلاً لأدل على (الأدب) في زمانه من جميع كتبه وكتب معاصريه»، ص٦٨٢.

ويتحدث عن العلاقة الدبلوماسية بين السعودية وأميركة، فيذكر أن الحلقة الأولى من حَلَق الاتصال بينهما كانت عام (١٣٤٩هـ= ١٩٣١م) حين زار كراين شبه الجزيرة، وأدركت أميركة تكاثر مصالحها فيها، فكان إنشاء العلاقات السياسية، ويقول الزركلي، ص٦٨٣: «وغلب شميم (البترول) بنجد على شميم عَراره، فتنادى (أبناء العم سام) هارعين إلى ينابيعه يفجّرونها» وأضحت العلاقات بين الدولتين قائمة على أرسخ الدعائم.

(**الملك عبد العزيز والنفط في بلاده**) أبان في بداية هذا الفصل أن للنفط أكبر الأثر في حركة العمران، بل في كل شيء، وأن النفط من وجهة النظر العامة هو آلة الحرب والسلم، أداة القوة والتدمير والغلَب، ومِعوان الحضارة والعمران. وتحدث في بداية البحث عن النفط، وأوجز قصة شركة الزيت العربية الأميركية (أرامكو) ونقل إحصاءً رسمياً لإنتاج الزيت سنة (١٣٥٥ ـ ١٣٦٨هـ= ١٩٣٦ ـ ١٩٤٩م)، وحصة المملكة من واردات النفط (١٣٥٨ ـ ١٣٧٢هـ= ١٩٣٩ ـ ١٩٥٣م).

وعقد فصلاً أورد فيه ما قاله السياسيون وكبار الكتّاب الأجانب في الملك عبد العزيز، وفصلاً آخر فيما قاله فريق من كبار العرب وكتّابهم فيه.

وأعقب الأخير منهما فصلاً هو: (الملك عبد العزيز، إكباره للعلماء

وأساليبه في الإقناع) أوضح فيه أنه كان لعلماء الدين المقام الأول عنده، يقدّمهم على إخوانه وأبنائه وكبار جُلَسائه، ويُصغي إلى آرائهم، ويبالغ في إكرامهم، وكان لكبارهم هيبةٌ في نفسه، لا يصطنعها ولا يتعمَّلها، ولاسيما آل الشيخ حفدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وذكر الزركلي أساليبه في الإقناع.

وختم الجزء الثاني والمجلد الأول بالحديث في خيول الملك عبد العزيز وعنايته بها، وحديث له عن الخيل.

ويفتتح الزركلي الجزء الثالث والمجلد الثاني بالحديث في عناية الملك بالطيران والمطارات، والموازنة المالية لبلاده، واصطناعه للرجال، فالحديث في سياسته في تعليماته السرية، ثم يورد مقتطفات من خطبه وكلامه، ويتكلم في سياسته ببعض برقياته، ثم ينتقل للحديث عن تخفيض وإعفاء الملك للضرائب، بين فيه أن بلاده من أقل ممالك العالم ضرائب.

(الملك عبد العزيز والوهَّابية) قال في هذا الفصل في الوهابية، ص٨٣١: **«الوهابية وَهْمٌ، أو اسم اخترعته الدعاية المفترية في عهدي السلطانين سليم الثالث ومحمود الثاني.. وما هناك إلا (الحَنْبَلِيّة) السُّـنِّـيّة والعقيدة السَّلَفِيّة.. والوهابية ليست وصْمَةً ولا هي سُبَّةٌ، ولكن العامة نفرت منها زمناً بما غرسته الدعاية العثمانية التركية من النفوس من تشويه لها ولأهدافها ولسيرتها وتاريخها. والنسبة إلى (محمد) ابن عبد الوهاب[1]، وهو من علماء الإسلام، نسبة إلى دعوة الإصلاح الديني والاجتماعي التي قام بها ابن عبد الوهاب في جزيرة العرب»** وزعم زاعمون أنه صاحب مذهب خامس، وسمَّوا أتباعه بالوهابيين.

---

(١) انظر ترجمته في الأعلام: ٦/ ٢٥٧، وكان يعدّه الزركلي الشعلة الأولى لليقظة الحديثة في العالم الإسلامي كله: تأثر بها رجال الإصلاح في الهند ومصر والعراق والشام وغيرها، فظهر الآلوسي الكبير في بغداد، وجمال الدين الأفغاني بأفغانستان، ومحمد عبده ورشيد رضا بمصر، وجمال الدين القاسمي في الشام، وخير الدين التونسي بتونس، وصديق حسن خان وأمير علي بالهند.

ويقول الزركلي في خاتمة الفصل، ص٨٣٤: «ويطول نفس القول إذا أردنا الإلمام بما أحاط بالدعوة من أحداث، وما اكتنفها من مصاعب، ولكن الذي نقف عنده هو أن دعوة آل سعود وعلى رأسها ابن عبد الوهاب نجحت وحالفها التوفيق، فقامت الدولة العربية المنشودة، وامتدت جذورها وثبتت قواعدها، وإذا سميناها أو سماها خصومها بالوهابية، فلتكن التسمية من باب المجاراة لما اصطلح عليه مؤرخو العصر الماضي، وتابعهم فيه بعض مؤرخي عصرنا الحاضر، ولا ضير، ولتكن التسمية تاريخية أو اصطلاحية. أما الإسلام فلا (وهابية) فيه مما كانوا يزعمون».

ثم تحدث في عناية الملك عبد العزيز بسكة الحديد وتوصيلها بين الدمام والرياض، وإنشاء ميناء جدة، وإيصال الكهرباء إلى الرياض، وتوسعة المسجد النبوي.

وخصَّ فصلاً طويلاً سمّاه (خُلاصات عن بلاده) للحديث في مساحة السعودية وعدد سكانها، ومدنها ومرتفعاتها وهضابها وصحاريها ومقاطعاتها وحرارها[1] وأطنب في الحديث عن الربع الخالي.

(الملك عبد العزيز موضوع خصيب للكتاب والمؤلفين) تحت هذا العنوان تطرّق لكثرة المؤلفات التي تناول أصحابها سيرة الملك عبد العزيز بين دارس يُلِمّ ببعض خِلاله، ومؤرخ يدوّن أحداث عصره، ومعجب يطري ويثني، ورحّالة يتتبّع ويستقصي، وذكر من المؤلفات العربية في ذلك (٥٦) كتاباً، ومن الأجنبيـة (٢٣) كتاباً.

وأتى على عناية الملك عبد العزيز بتوفير المياه للسعودية، ووصف ما كانت عليه البلاد من نقص المياه، وبدائية استخراجها، وتحدث عن استخراج المياه وإجرائها إلى المدن.

---

(١) وهي أراضٍ صخرية بركانية سوداء.

ثم عقد فصلاً للحديث عن المرأة في حياة الملك عبد العزيز، مقتصراً على ما يتصل بالتاريخ والأنساب، زواجاً ونسلاً ومصاهرة وطلاقاً ورجعة، وبنين وبنات، ولعله أول من كشف مخدرات بيت العزيز لتاريخ عبد العزيز، وترك لغيره أن يتحدث عن (العاطفة) في حياة عبد العزيز.

ومضى للحديث عن وزارة حربيته (الدفاع) التي أنشئت عام (١٣٦٥هـ = ١٩٤٦م)، وتعيين الأمير منصور بن عبد العزيز أول وزير لها، والحديث عن الإذاعة التي أنشئت عام (١٣٦٨هـ = ١٩٤٩م)، وإنشاء وزارة الداخلية والصحة عام (١٣٧٠هـ = ١٩٥١م) وتعيين الأمير عبد الله الفيصل أول وزير لهما، ومجلس الوزراء في آخر سنة في حياة عبد العزيز.

وتطرّق للحديث عن مستشاري الملك عبد العزيز وسفرائه ووزرائه المفوّضين، مع تعريف موجز بهم، ومنهم مؤلف هذا الكتاب خير الدين الزركلي: «وزير مفوض فمندوب دائم لدى جامعة الدول العربية، فسفير في المغرب، فسفير في وزارة الخارجية».

وعرض للزراعة في عهده واهتمامه بها، وإنشاء وزارة للزراعة بعد وفاته بشهر، وتعيين الأمير سلطان بن عبد العزيز أول وزير لها.

وعندما انتهى من ذلك، شرع في الحديث عن الطباعة والصحافة في عهده، وبيّن أن تقدمهما كان بطيئاً، لا يتناسب مع نواحي النشاط الأخرى في الدولة، ويعزو ذلك إلى أن عبد العزيز غالى في انصرافه عن القول إلى العمل، فلم يأخذ بيد الصحافة، وظلت في عهده تَحْبو. وأوجز الزركلي سَير الطباعة والصحافة منذ ميلادها بمكة في العهد العثماني، إلى أواخر أيام عبد العزيز.

ثم ذكر بعض كتب السَّلف والخَلَف التي أمر بطبعها وتوزيعها مجّاناً، والكتب التي ساعد ناشريها على طبعها، أو أمر بشراء مجموعات منها لتوزيعها مجاناً.

وتحدث عن خزائن الكتب في أيامه، سواء الخاصة منها أم العامة، وذكر أشهرها، ووصف بعضها.

وتحدث عن إنشاء مؤسسة النقد (النقد العربي السعودي) عام (١٣٧١هـ=١٩٥٢م).

وتكلّم عن الأوقاف في عهده وبعده، فأشار إلى أنها كانت في عهده إدارة، وتحولت بعده إلى وزارة الحج والأوقاف.

وعرض للقاء الملك عبد العزيز مع الرئيس الأميركي روزفلت على ظهر الطراد (كونيري) عام (١٣٦٤هـ =١٩٤٥م) في قناة السويس. ومع أنه ما زال الحديث عما دار بينهما غير معروض للنشر، فإن الزركلي حاول ألاّ يخلو كتابه من جديد عن ذلك الاجتماع على قاعدة: ما لا يدرك كله لا يترك قُلّه، واعتمد على الوثيقة الرسمية لما دار في حديثهما التي عملها الزركلي ويوسف ياسين. فذكر خلاصة حديثهما من تلك الوثيقة، ومن خلال ما ورد في بعض الكتب.

ثم ذكر بإيجاز لقاء الملك عبد العزيز وتشرشل في الفَيّوم بمصر، ولم يذكر شيئاً عما دار في لقائهما، إنما ذكر طرائف عن الرحلة، وأتبع الزركلي هذا الفصل برسالة مطولة من عبد العزيز إلى تشرشل بشأن فلسطين.

(الملك عبد العزيز والجامعة العربية) تحت هذا العنوان كتب المؤلف عن تاريخ فكرة إنشاء الجامعة العربية، وذكر أن الذي فتح الطريق أمام العرب في إنشاء الجامعة هو وزير الخارجية البريطاني إيدن، وأوضح أن الملك عبد العزيز كان في طليعة الداعين والساعين إلى جمع كلمة العرب وتوحيد خُطَطهم فيما يصون مصالحهم. وكان الزركلي ويوسف ياسين ممثِّلَين عن السعودية بتوقيع ميثاق جامعة الدول العربية في (٨ ربيع الآخر ١٣٦٤هـ= ٢٢/ ٣/ ١٩٤٥م).

ثم ينتقل للحديث عن التجاء رشيد عالي الكيلاني رئيس وزراء العراق[1] إلى الملك عبد العزيز وحمايته له، بعد إخفاق حركته عام (١٩٤١م)

---

(١) انظر ترجمته في الأعلام: ٣/ ٢٣.

وكاد يثور الشقاق بين السعودية والعراق من أجله، وبقي في السعودية حتى وفاة عبد العزيز، فغادرها إلى القاهرة.

ويسجل بعض وقائع زيارة عبد العزيز (الرسمية) إلى مصر عام (١٣٦٥هـ = ١٩٤٦م)، ويختتم الجزء الثالث بمقال لباحث نجدي عن الملك عبد العزيز.

ويبدأ الجزء الرابع وهو الأخير بالحديث في قضية فلسطين، وتسلسل الحوادث بشأنها (١٣٦٥ ـ ١٣٦٨هـ = ١٩٤٦ ـ ١٩٤٩م)، من خلال لجنة التحقيق البريطانية الأميركية، للوصول إلى حلٍّ مرضٍ لمشكلة فلسطين الحاضرة، ومن خلال مقابلة الملك عبد العزيز للجنة شارحاً لها أهمية فلسطين للمسلمين، والظلم الذي لحق بأهلها، وكانت توصيات اللجنة مُجْحِفة بالعرب، ويعرض الزركلي عناية الملك بفلسطين من خلال المكاتبات أو المراسلات الطويلة بينه وبين الرئيس الأميركي هاري ترومان، الملك يدافع عن حق الفلسطينيين ببلدهم، وترومان يرى أن اليهود (المساكين) شُرِّدوا من قِبَل النازيّة، ولهم الحق في الإقامة ببلدهم الروحي (فلسطين) من آلاف السنين، وأن الولايات المتحدة الأميركية والقوات المنتصرة في الحرب العالمية الثانية، اتخذت موقفاً بوجوب أن تكون فلسطين موضعاً للوطن القومي اليهودي، وأن هذا الشعب قدّم للعالم خدمات شهيرة، وأن الولايات المتحدة ترى أن اليهود ليس لهم مأرب في إقصاء الفلسطينيين، أو استعمال فلسطين قاعدة للعدوان على الحكومات العربية المجاورة.

ويذكر المؤلف أن عبد العزيز أصدر أمراً في عام (١٣٦٧هـ =١٩٤٧م) **إلى حكام نجد وشيوخ قبائلها بتسجيل (المتطوعين) في سبيل فلسطين من سن العشرين إلى الخمسين، كما أمر بجمع التبرعات لإسعاف المجاهدين في فلسطين.**

ويختم الزركلي ما كتبه من بداية الجزء الرابع، ص١٢٥١ ـ ١٢٩٣ بقوله: «أقف هنا بعد إيراد ما استطعت ادّخاره من (وثائق) و(رسائل) لم يُهيّأ لها النشر، على كثرة ما كُتب في الموضوع قبل اليوم، أثبّتها في خلال تسلسل الحوادث

بنصوصها الرسمية، وحفظت لها طابعها الديواني، ولاسيما المترجَم منها، مما تعذَّر عليّ الرجوع إلى أصوله المترجم عنها.

وما كان هدفي كما هو واضح، أن أؤرِّخ لقضية فلسطين، أو لجانب من جوانبها، في معرض الحديث عن واضع أسس الدولة السعودية الحديثة، وإنما أردت بها أن أعرض صفحة قائمة على الأرقام والتواريخ والنصوص، من صفحات ما بذله عبد العزيز من مجهود في هذه الناحية. وقُصاراي أن أكون قد نقلت إلى القارئ صورة صحيحة عن شعوري بأن عبد العزيز لم يترك سبيلاً اهتدى إليه إلا سلكه، لدفع الكارثة عن تلك البقعة العزيزة الغالية من بقاع العرب والإسلام: بذل المال والرجال، وقابل الأقطاب ممن بأيديهم زمام السياسة العالمية، وكاتبهم، ومتَّ إليهم بصداقات وعلاقات، وجال معهم في كل ميدان، وللسياسة أُذُن صمّاء، ولا يفلّ الحديدَ إلا الحديد».

(الملك عبد العزيز وخط الأنابيب) في هذا الفصل تحدّث الزركلي في خط أنابيب النفط (التبلاين) وهو اختصار للكلمات (Trans arabian pipe Line) وترجمتها (خط الأنابيب في البلاد العربية) وصفه الزركلي بأنه أطول خط من نوعه في العالم، طوله (١٧٢١كم)، يبدأ من بُقَيق على الخليج العربي، ويمر إلى الأردن فسورية، وينتهي في الزهراني بصيدا على ساحل البحر المتوسط، وكان معدل ما يمكن ضخ النفط فيه يومياً (٣٠٠,٠٠٠) برميل، وأشار إلى أن أول ناقلة عُبّئت من النفط فيه عام (١٣٧٠هـ= ١٩٥٠م).

(الملك عبد العزيز وموقفه من ابن الوزير) تطرق الزركلي في هذا الفصل لثورة ابن الوزير في اليمن، التي شكَّ الملك عبد العزيز في بدايتها، ورأى أنها جريمة وفتنة، والزركلي ليس هنا في معرض الإفاضة في بواعث ثورة ابن الوزير ونتائجها، فذلك من شأن مَنْ يؤرِّخ لليمن في قديمه وحديثه، ولكن المتعلّق بهذا الكتاب من تلك الثورة ـ كما يقول الزركلي ص١٣٠١ ـ هو موقف الملك عبد العزيز منها ومن القائمين بها. ويقول الزركلي: «وأصدق ما يمكن الركون إليه من أسانيد التاريخ في مثل هذا الحادثة (برقيات) تُبُودلت بين ابن الوزير

والملك عبد العزيز لا تزال أصولها محفوظة في متناول اليد، و(برقيات) تُبودلت في خلال ذلك بين الملك عبد العزيز وبعض ثِقاته، و(برقيات) أخرى تدخل في لب الموضوع» وأورد الزركلي نصوص تلك البرقيات ناطقةً بالحوادث، ومتسلسلةً بحسب تواريخها.

وفي فصل آخر تحت عنوان (**الملك عبد العزيز والحج في عهده**) تكلم عن عنايته بالحج، فذكر أنه بذل في سبيله وتأمين سُبُله كل ما كان يملك من جهد، ونقل إحصاءات ومعلومات عن الحجيج، وأحصى حجاج عام (١٣٧٠هـ/١٩٥١م) من غير السعوديين فكانوا (١٠٠٥٨٧) حاجاً، وذكر جنسياتهم، وذكر ص١٤١٩ أن الملك عبد العزيز أسقط عن الحجيج رسوم الحج عام (١٣٧١هـ/١٩٥٢م)، وكان يأتي الخزينة منها ثلاثون مليون ريال.

وانتقل إلى الحديث عن العمّال في بلاده، وأورد نص نظام العمل والعمال الصادر عام (١٣٦٦هـ/١٩٤٧م) وأتبعه بحديث عن (**فلبي في خدمة الملك عبد العزيز**) فتحدث عن صلته وعلاقته بعبد العزيز، ولم يذهب مع القائلين بجعل فلبي[1] عند عبد العزيز أكبر مما كان، وبيَّن أن فلبي اشتدّ في بعض كتبه على رجال ثقات عند الملك عبد العزيز همزاً ولمزاً، وفيهم أبرياء مما وَصَمهم به.

وعرَّج على العلاقة بين الملك عبد العزيز والملك عبد الله بن الحسين، فتكلم في كَدَر العلاقات بينهما إبّان وجود الملك عبد الله في شبه الجزيرة، ثم الأردن، ثم تحدث عن صفاء العلاقات بينهما، وزيارة الملك عبد الله للسعودية.

ثم خصَّص فصلاً فيه نُبَذٌ مما تُحدِّث به في عبد العزيز، في بعض الكتب مرتبة حسب سنيّ طبعها ـ وكان قد ذكر بعضها سابقاً ـ راعى فيها اتّقاء التكرار

---

(١) انظر ترجمته في الأعلام: ٨/ ٦٣ برسم هاري سانت جون فلبي، وفي كتاب (رحالة غربيون في بلادنا) لشيخنا حمد الجاسر، ص٢٦٩ ـ ٣٠٦.

في ذكر الحوادث كوقائعه مع آل رشيد وغيرهم، والاحتفاظ بالجديد من الخبر والرأي على قدر الإمكان.

وعقد فصلاً للتحدث عن إخوة الملك عبد العزيز وبَنيْه ومَنْ يليهم، مقتصراً في الأغلب على من عَرف منهم من الذكور وأبناء الذكور، ووضع صور بعضهم، ولم يتعرّض للبنات لتعذُّر استقصاء أخبارهن.

وختم الكتاب بإيراد بعض أخباره في الكرم، والحديث عنه بأواخر أيامه ووفاته، فذكر أنه توفي في مصيفه المعتاد في (الحَوِية) قرب الطائف ضحى الاثنين ٢ ربيع الأول ١٣٧٣هـ = ٩/ ١١/ ١٩٥٣م، وصُلِّي عليه في الحوية، ونقل في الحال بالطائرة إلى الرياض، فدفن في مقبرة أسلافه من آل سعود.

تبع ذلك فهارس الكتاب وهي: فهرس الأشخاص، وفهرس القبائل والبطون، وفهرس الأماكن والبلدان، وفهرس الموضوعات.

ملاحظات على الكتاب:

١ ـ مصادر كتابه: ما رآه وما سمعه من المقرَّبين من الملك عبد العزيز ومذكراته الخاصة، والمشافهة والمراسلة.

وكان يكثر من النقل عن يوسف ياسين (انظر الصفحات: ٧٩، ١٧٢، ٣٦٨، ٥٠٤، ٥٠٩، ٦٠١، ٦١٦، ٧٤٤، ٧٥٩، ٩٧٩، ٩٨١، ١١٦٢، وقلَّ أن ينقل عن أحد غيره، كالملك خالد بن عبد العزيز ص٥٧، وظافر القاسمي[1] ص٦١٨، وأمين رُوَيْحَة ٩٧٩، وعن أجانب ١٢٩، ١٣١.

أما الحوادث فكان يكثر النقل ممن حضروا الوقائع من الثقات. انظر ص٤٨٥.

وأما مصادره من الكتب، فقد كان له مرجعان منها، لا يفتأ ينقل منهما:

---

(١) انظر ترجمته في ذيل الأعلام: ١/ ١٠٩.

(تاريخ نجد) لأمين الريحاني[1]، ومخطوط أو مذكرات خالد الفرج[2] الذي اعتمد على كثير من فصوله، وقد أكثر من الرجوع إليه لمعاصرته الحوادث وقربه من أماكن حدوثها، انظر ص٣٣١، ٣٣٢، ٤٦٤، ٤٧٢، ٤٨٥، ٥١٤، ٥٥٧، ٦٧٨، إضافة إلى بعض الكتب الأخرى ككتاب (صقر الجزيرة) لأحمد عبد الغفور عطار[3]، و(جزيرة العرب في القرن العشرين) لحافظ وهبة[4].

أما جغرافي الجزيرة العربية ومؤرخها حمد الجاسر، فقد قرئ عليه الكتاب من قِبَل المؤلف، وانظر ص١٤٤، ١٥٥، ١٦٣، ١٧٢، ٣٣١، ٨٠٩، ١٠٤٢.

كان يُكثر من النقل والاقتباس، وإيراد المراسلات، وربما يكون ذلك نحو نصف الكتاب. انظر ص٢٦٣، ٢٦٤، ٢٨٨، ٣٧١، ٤٢٤، ٤٥٢، ٥٨٧، ٥٩١، ٦١٣، ٩١٣، ١٠٠١، ١٠٩٣، ١١٢١، ١١٤١، ١١٤٤، ١١٤٧، ١١٦٨، ١١٧٦، ١٢٥١، وهو فيما ينقل، يصحّح وينقد ويناقش الروايات التاريخية، انظر ص٥٢، ٥٣، ٥٦، ٦٤، ٨٨، ٩١، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٥، ٣٠٦، ٣١٤، ٨٣١، ٩٤٩، ١٠٢٥ (مهم).

وقارئ الكتاب لا يعدم أن يجد فيه فوائد لغوية، انظر ص٩١، ٩٣، ١٧٠، ٢٠١، ٦٠١، ٦٣٢، ٨١٥، ١٠٢٦، ١١٨٦، ١٣٦٠.

والكتاب متداخل الأخبار، غير مرتب، فالمؤلف يضع فصولاً في سيرة الملك عبد العزيز ومآثره بعد فصول تحدَّث فيها عن شبه الجزيرة في عهد الملك، وكأنها جُمَل معترضة، فمثلاً بعد الحديث في المعادن في بلاده

---

(١) انظر ترجمته في الأعلام: ٢/ ١٨.
(٢) انظر ترجمته في الأعلام: ٢/ ٢٩٨.
(٣) انظر ترجمته في ذيل الأعلام: ١/ ٢٩ ـ ٣٠.
(٤) انظر ترجمته في الأعلام: ٢/ ١٦٠.

ص٩٦٧ عقد فصلاً ص٩٧٣ (الملك عبد العزيز في دائرة المعارف التركية).

وعندما تحدث في وزارتي الداخلية والصحة العامة ص٩٩٩ نقل فصلاً عن الملك عبد العزيز من كتاب (عبد العزيز) للمؤرخ الألماني داكوبرت فون ميكوش ص١٠٠١، وبعد أن تحدث في الملك عبد العزيـز، وخزائن الكتب في أيامه ص١٠٣٥، خصَّ فصلاً في الملك عبد العزيز في كتاب (العرب والزيت والتاريخ) ص١٠٤٧ اقتبس منه أربع صفحات.

* * *

٤ ـ عامان في عمان
مذكرات عامين في عاصمة شرق الأردن

بقلم

خير الدين الزركلي

صفحة من التاريخ الحديث، شرق الأردن في العصر الحاضر، وثائق رسمية لم تنشر، عجائب أمير وحكومته، عُني بنشره يوسف توما البستاني، ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م، المطبعة العربية بمصر ٢٠٧ صفحة ١٧× ٢٤سم.

أقام الزركلي في عمان، قاعدة حكومة شرقي الأردن عامين ١٩٢١ ـ ١٩٢٣م، عمل خلالهما مفتشاً عاماً للمعارف، فرئيساً لديوان رئاسة الحكومة.

وهذا الكتاب سجل لحوادث أيام المؤلف في شرقي الأردن، وهو كتاب وثائقي يوضح كيفية إقامة إمارة شرقي الأردن بعد الحرب العالمية الأولى تنفيذاً لاتفاقية (سايكس بيكو) التي قسمت بلاد الشام إلى أربع دول: سورية، لبنان، فلسطين، شرقي الأردن.

بدأ الزركلي كتابه بذكر قدومه من مكة إلى عمان، ووَصَفَ عمان بقوله: «لم تكن عمان في ذلك الحين أكثر من قرية، قليلة السكان، ضئيلة المباني، مظلمة السُّبل، لا يصل بينها وبين تاريخ مجدها إلا ما شَخَص من آثارها، ولا يدل على إمكان الحياة فيها، غير توسّطها بين قبائل بني صخر وعبَّاد والعُدْوان، يَرِدون عليها بين الفترة والفترة، فيبيعون فيها بعض ما تنتجه ماشيتهم، ويبتاعون منها ما يكتسبون، فللتجارة فيها شبه سوق، ولولا ذلك لانفرد بسكناها

جماعات من الشراكسة نزحوا إليها حوالي سنة (١٢٩٠هـ)، كما انفردوا بكثير مما حولها من قرى ومزارع، هم أصحابها اليوم غير منازعين، ولكن ابتغاء الربح وطلب الكسب هما اللذان حملا إلى عمان تجاراً من دمشق ونابلس، افتتحوا فيها حوانيت صغيرة، فقصدها أهل الخيام والأكواخ من البُداة الضاربين حولها والمقيمين في ما جاورها من القرى، فأصبحت ولها شيء من الشأن»[١].

وقال في موضع آخر: «. . . وركبنا عربتين يجرّ كلاً منهما بغلان، وما كانت السيارات يومئذ لتستطيع بلوغ عمان»[٢].

وشرع في الحديث عن وصول الأمير عبد الله إلى معان من الحجاز، وتضارب الأقوال في سبب قدومه، وحديثه مع عودة أبي تايه، وأقواله للوطنيين، وجريدته (الحق يعلو) وقدومه إلى عمان، وقبل أن ينتقل من الكلام عن رحلة الأمير من معان إلى عمان، رأى الزركلي أن يسوق شيئاً عن (معان) في حاضرها وعشائرها، ثم وصف قدوم الأمير إلى عمان، وذكر الأماني التي تمنّاها الناس من الأمير، ووصف حال إمارة شرقي الأردن المتهلهل، وخَلُص إلى أنها في إدارتها ومعارفها وأمنها ريشةً في مهب الريح، لا تستقر على حال، واستمرت وذلك شأنها إلى أن بَدّلها الله من فوضاها شبه نظام.

وأورد خلاصة ما نقل إليه عن المفاوضات بين الأمير عبد الله وتشرشل وزير المستعمرات البريطاني مع أنهما تعاهدا على كتمان ما دار بينهما، ولا أدري من الذي نقل ذلك إلى الزركلي؟! وقد ذكر هو ص٥٠ أن رؤساء حكومة الأمير عبد الله الذين تعاقبوا واحداً بعد آخر، لم يستطيعوا أن يطّلعوا على موادّها، حتى ذهب الأكثرون إلى أنها كانت شفهية لم تُكتَب.

وأتى على تأسيس الحكومة الأولى في عهد الأمير وقُوامُها ثمانية أشخاص، منهم لبناني وهو رشيد طليع الذي تولى رئاسة الوزراء، وثلاثة سوريين.

---

(١) عامان في عمان، ص٦.

(٢) المصدر السابق، ص٥.

وقال تحت عنوان (رد الزيارة ـ صموئيل في عمان) واصفاً الإنكليز: «للإنكليز وَلَعٌ بالمجاملات، وإن تكن فارغة في ظاهرها، ولهم أسلوب خاص في الصداقة والموالاة، يُحسنون به استثمارها، فإن ابتسم الإنكليزي لك، فالله يعلم كم يستوفي منك ثمن ابتسامته، وإن زارك فقدّر كل خطوة من خطواته بما شئت من مال وعقار، وبالغ ما استطعت فما أنت بواهم».

وبعد هذا الكلام استرسل في الحديث في زيارة صموئيل إلى عمان لمقابلة الأمير عبد الله، ونقل خطبة المندوب السامي البريطاني في فلسطين صموئيل، أمام الأمير عبد الله والحاضرين.

(ألقاب مملكة) انتقد في هذا الفصل الأمير عبد الله لكثرة ما كان يُغدِق من ألقابٍ ورُتَبٍ على مَن يستحقها ومن لا يستحقها مثل: قائم مقام، أمير لواء، زعيم، باشا.. وأورد أسماء الفائزين بلقب (باشا) وهم ستة وثمانون شخصاً، واتبعه بنوادر وخواطر حول الألقاب[1].

ثم شرع في وصف رحلتين صغيرتين له، إحداهما من عمان إلى جرش، إلى إربد وبعض قراها، ومنها في القطار إلى حيفا وطولكرم ويافا والقدس، ثم في عجلة خيل (عربة) إلى الصلت (السلط) فعمان، وأُخراهما إلى قرى وادي السير، وناعور ومادبا، وصويلح والصلت، وهو لم يورد فيهما ما يُمِلّ القارئ من وصف سهول وجبال وخرائب وتلال، ربما ذكرها في بعض المناسبات، وإنما اكتفى بشَذَراتٍ قيّدها في مذكراته وهي لا تخلو من فائدة أو نكتة.

ثم عقد فصلاً للحديث عن لواء الكرك وهو (بيان رسمي عام وضعته قيادة القوة السيارة) وقُدمت نسخة منه للحكومة سنة (١٩٢٢م) قال الزركلي فيه: «لم أجد في ما كُتب حديثاً عن الكرك» بحثاً أوفى أو إحصاء أمتع من هذا البيان،

---

(١) انظر في هذا كتاب فخري البارودي (تاريخ يتكلم). (الناشر)

الذي اشترك في وضعه ضباط (القوة السيارة) الوطنيون، بعد أن أطالوا المُكْث في ذلك (اللواء) ودرسوا الموضوع حق دراسته، ولَيْتهم أضافوا إليه بيانين آخرين أحدهما عن لـواء البلقاء (الصلت[1] وعمـان وأطرافهما)، والثاني عن لـواء عجلون[2] (إربد وعجلون وما يليهما)، فلو فعلوا ذلك لخدموا تاريخ المنطقة الحاضر خدمة لا تنسى. . » ثم أورد نص البيان وهو في أربع وعشرين صفحة.

ويحوي التقرير معلومات عن عشـائر الكرك: مواضع سُـكْناها، وعدد منازلهم، وأصلهم، وعدد نفوسهم، ورؤسائهم، وأموالهم، وأقسام العشائر.

وأفرد فصلاً للحديث في حزب الاستقلال العربي، قصر فيه الحديث عن حاله في عمان وأطرافها، على ما كان فيها من تأسيس فرعه المركزي، وموقف أعضائه من الأمير عبد الله.

وتحدث بإيجاز في قوى الأمن قبل قدوم الأمير عبد الله وبعد قدومه.

ثم تناول حادثة الكورة، أسبابها ونتائجها، وقد وصفها الزركلي بقوله: «لم تُصب حكومة شرق الأردن بحادث كان أشد عليها وقعاً، وأبلغ فيها تأثيراً من هذه الحادثة التي فاجأتها في إبّان تسلّمها العمل، فكسرت من حدّة نشاطها، ولَـوَت من جِيد عزتها. وقد كتبت الصحف عنها حديثاً مشـوهاً محشـواً بالأغاليط، فرجعت عند كتابة (مذكراتي) هذه إلى أعرف الناس بخَفِيّها وجليّها، الصديق الفاضل المعروف (فؤاد بك سليم) وقد كان قائد القوة التي هاجمت العصاة، وأصيب بجرح شفاه الله من أثره، فكتب هذا الفصل الممتع مستنداً فيه إلى ما هو محفوظ لديه من وثائق وكتابات رسمية».

وخلاصة الحادثة أن أهل الكورة وعلى رأسهم آل الشريدي (الشريدة) يعارضون في انضمامهم إلى إربد، لما لقوه من عَنَت كثير على أيدي موظفي

---

(١) تلفظ الآن (السلط)، أما عمان فقد أصبحت العاصمة.

(٢) عجلون وإن أصبحت محافظة فهي لاتزال ترتبط بإربد.

حكومة إربد في العهدين العثماني والعربي، وحدث أن أُرسلت من إربد مفرزة من الدَّرَك وكان معهم حمادة السليمان، وكانت مهمة المفرزة تَعداد الأغنام، فلما جاء حمادة ليعدّ غنم عشيرة الشقيرات، وأخذ معهم بالمشادّة، استفزَّهم فأطلق أحدهم عليه رصاصة فقتله، وفرّ قائد المفرزة ومَن معه خوفاً من عشيرة الشقيرات والقرى المجاورة لها، فأُرسلت قوة من عمان بقيادة فؤاد بك سليم مؤلّفة من مئة وعشرين فارساً (وكان ذلك عام ١٩٢١م) ومهمتها القبض على المتهمين بقتل حمادة سليمان، والقبض على كليب الشريدة وولده عبد الله وابن أخيه رشيد، فهُوجمت القوة من قبل عشيرة الشقيرات وأهالي عشر من قرى الكُورَة، فقُتِل ربع جنود القوة وثلث خيلهم، وأوشك العتاد على النفاد فاستسلموا، وأُسروا سحابة نهار كامل، وقرر كليب الشريدة أن يتقي بعض شر الحكومة فأمر بتسريح الأسرى، وأصدر الأمير عبد الله عفواً عن كليب وجميع الثائرين من أهل الكورة، وكان لهذا العفو أثره المطلوب من تسكين الحالة مؤقتاً.

ثم عرَّج على الخلاف بين الأمير عبد الله ورئيس مشاوريه (رئيس الوزراء) رشيد طليع.

(فيصل في العراق) تحت هذا العنوان تكلم الزركلي عن صدمة الأمير عبد الله بوصول الملك فيصل إلى العراق، وسخطه على الإنكليز لغدرهم به، وسخطه على أهل العراق لنقضهم بيعة بعضهم له، فالأمير ـ كما يذكر الزركلي ـ كان يحلم بأن يمتلك العراق وشرقي الأردن، وكان يخشى أن يزاحمه على العراق مزاحم.

ثم انتقل إلى الحديث عن أطماع الأمير بسورية. وأعقب ذلك ببعض أخبار الأمير مع الإنكليز.

(ثالث الرؤساء) في هذا العنوان تحدث عن ثالث رؤساء المشاورين[١]

---

(١) جاهد الزركلي في سبيل الاستعاضة عن كلمَتي (مشاور) و(مشاورين) ـ وهما=

علي رضا الركابي ـ أما اللذان سبقاه فهما رشيد طليع، ومظهر الرسلان ـ وكيف قدم من سورية إلى شرقي الأردن، وتولى فيها رئاسة المستشارين، وأكثره نقد للركابي، وأعقب هذا العنوان عنواناً آخر (بدع الركابي) وفيه تحدث عما أحدثه الركابي من بدع جديدة في شرقي الأردن، ومن أسوأ ذلك تحريشه بين الأمير والوطنيين، وتجرئته الأمير على إيذاء الوطنيين، بل ارتكب ما هو أسوأ من هذا فأدخل في عقل الأمير أنّ رأي الأمة هو رأي زعمائها، وأن الأمر ما أمروا به.

وكان الزركلي قد ذكر ص١٧٩ احترام الأمير للوطنيين فقال: «ظل الأمير عبد الله مدة إقامته في معان ثم عمان، إلى أيام الركابي محتفظاً بمزية واحدة كانت تستر كثيراً من سيئاته، وتقيل غير القليل من عثراته، تلك هي عِرْفانه فضل أحرار العرب، وحفظه كرامتهم، واعترافه بما أسلفوه من خير ويد..»[1].

ثم أورد نموذجاً مطولاً بيّن فيه كيف كان يكتب الأمير عبد الله إلى المندوب السامي البريطاني في فلسطين.

وختم الكتاب بالحديث في رحلة الأمير عبد الله إلى لندن، وخطبته في عمان بعد أوبته من لندن.

وعقد فصلاً للحديث في أوبة الركابي من لندن، ولكنه لم يكتب إلاّ أسطراً، ووعد بإصدار جزء ثانٍ قريباً، سيجد القارئ فيه (نص كتاب الركابي وصور المفاوضات) و(نفقات الرحلة) نقلاً عن رسالة خاصة بعث بها الركابي إلى الأمير من دمشق، وأبحاثاً في (أسرار مقر الأمير) و(آثار شرق الأردن) و(قبائلها ونفوسها) و(المضحكات المبكيات) و(هجعة الثائر) و(ديوان التفتيش) وغير ذلك من مختلف الأخبار والأحاديث.

غير أن الأيام لم تمكِّن الزركلي من أن يفيَ بوعده، ولعله شعر بعدم رضاه

= مما يستعمله الأتراك وأصلهما عربي بلفظي (مستشار) و(مستشارين).

(١) وهذا الموضع الوحيد في الكتاب الذي مدح فيه الأمير عبد الله.

عن الجزء الأول، أو أُشعر بذلك.

ومهما يكن من أمر، فإن كتابه هذا يتَّسم بروح النقد، إلا أنه على درجة من الإمتاع والطرافة، يحمل القارئ على أن يستوعب قراءته بلذة وارتياح. وانظر ما كتبته (الزركلي مؤرخاً) في الفصل الأول من هذا الكتاب[١].

* * *

(١) الفقرة (١٩).

٥ ـ ما رأيت وما سمعت

تقديم وتعليق عبد الرزاق كمال، مكتبة المعارف ـ الطائف ٢٢٥ صفحة ١٧× ٢٤
+ مقدمة المقدم والمعلق ٣٤ صفحة.

الكتاب وصف لرحلة الزركلي من دمشق في ٢٦/ ٧/ ١٩٢٠م بعد وقعة ميسلون واحتلال دمشق من قِبَل الفرنسيين، والحكم عليه بالإعدام وهروبه من دمشق إلى حيفا فالقاهرة فمكة والطائف، والعودة إلى القاهرة في ٢٦/ ١/ ١٩٢١م. وبدأه بالشكوى من ضعف القادة والزعماء وغفلتهم وجهلهم، وقال ص٣٥: «رحماك الله ربي ورأفتك بأُمة أسلمت زمامها المقاديرُ إلى زعماء خبطوا بها خبط عشواء، وقادة كانوا حُطَّاب ليل، ونُذُرَ وَيْل، تقحّموا بها مجاهل الأمور على غير هدى، تسيّرهم الأهواء والنزغات، وتلعب بهم الأغراض والنزعات، طالب منصب، وعابد درهم، وعاشق تاج! لا يبالون من أية الطرق كان لهم ما يبتغون أو يكون».

وشرع في وصف هروبه من دمشق إلى حيفا فالقاهرة، وأرود أسماء من شملهم الإعدام في دمشق، مع التعريف بهم وهم ثمانية وخمسون رجلاً، وفيهم الزركلي: صاحب جريدة (المؤيد).

ومضى للحديث عن رحلته إلى الحجاز بدعوة من الملك حسين ابن علي، ووصف دار الحكم، والمخلوان حيث كان يخلو الملك بنفسه وزوّاره. وذكر عاداته في أكله وولائمه وراحته.

ثم استهلّ رحلته إلى الطائف ـ وكانت على بغلة ـ بوصف غار حراء، فذكر أنه لا يزيد عن مترين طولاً، ومترٍ واحدٍ عرضاً، وهو باقٍ على حاله. ووصف

مِنى ومُزْدَلِفة وعرفات في غير موسم الحج، ووادي نَعمان الذي أكثر الشعراء من ذكره، وجبل كبكب، وجبل كرا الذي كان يتسلقه طوراً، ويحبو عليه طوراً آخر، وذكر ما للشعراء والأدباء من لطائف في وصف كرا، منها قولهم: «صعود كرا يحرم من الكرى»، ووصف قرى الهدة حتى وصوله إلى الطائف.

واسترسل في سبب تسمية الطائف بهذا الاسم، وأورد بعض الأوهام في ذلك ومنها: أن جبريل انتزعها من الشام أو اليمن، وطاف بها على البيت الحرام، ثم ألقاها في هذه البقعة، بعد أن اقتلع البلدة التي كانت في موضعها، وقذفها إلى المكان المحمولة تلك منه، فذهبت الأولى بحرّها وجفائها، وأتت هذه بما كان لها من طيب المناخ وجمال المنظر.

ويرى الزركلي أن ذلك لا يمنعنا من أن نراه اليوم خيالاً شعرياً جميلاً مقبولاً، فآداب العرب والإفرنج مُفْعَمةٌ بأنواع المجاز الجاري مجرى الحقيقة، فليس على الخيال حَرَج، وللشاعر أن يشبه ما شاء بما شاء، بما اتفق له وجه الشبه، فلنقل معهم إن الطائف من غير أرض الحجاز، وأن الملائكة قد حملوها من أقاصي الديار لتكون جنة هذه الأقطار. ص٨١.

وأشار بإيجاز إلى مكانة الطائف في أمور ثلاثة:

موقعها العسكري والسياسي: فهي مصيف أمراء مكة وأشرافها، وهي أمنع ثغور الحجاز البرية، وهي مجتمع القبائل ومحتشد العشائر.

ومكانتها الاقتصادية: فهي أحد أبواب الحجاز التجارية الكبيرة، وأرضه أغنى أراضي الحجاز بعد وادي فاطمة.

ومكانتها التاريخية: فهي من أقدم البلاد العامرة في الحجاز، وأوجز في إيراد قصة وفود النبي ﷺ على ثقيف قبل استفحال شأن الإسلام، لما فيها من بيان ما عاناه النبي ﷺ في بدء ظهور دعوته، وختمها بما انتهت إليه حال ثقيف في الإسلام، وتحدث عن استيلاء الأمير عبد الله بن الحسين على الطائف وطرد الأتراك منها.

ثم تطرق لآثار الطائف، فبدأ بمساجدها القديمة، منها المسجد العباسي ومسجد عداس، قال فيها ص٩٢ : «وهي في شكلها وحجارتها وهندسة بنائها جديرة في أن تؤخذ رسومها، إلا أنني لم يكن معي ما أصورها به، كما أنه ليس في الطائف رسَّام ماهر اعتمد عليه في هذا الشأن» وعرَّج على الكتابات الأثرية على الأحجار والأنصاب، وفي صخور الجبال، وذكر أشهر الأصنام مع وصفها وموقعها وتاريخها.

ثم انتقل للحديث عن أعلام الطائف، ممن ولدوا في ديار الطائف أو دفنوا فيها مع ترجمتهم، وهم ممن توصّل إلى معرفتهم بالنقل أو الأثر، مبتدءاً بذكر الصحابة رضوان الله عليهم، الذين ثبت استشهادهم في الطائف، فاكتفى بذكر تسعة عشر صحابياً، وسكت عن الباقين طلباً للإيجاز، وذكر أشهر رجال ثقيف مع ترجمتهم، وهم سبعة وثلاثون رجلاً، أولهم زياد بن أبيه، وآخرهم أبو محجن الثقفي، وأورد خمسة من شهيرات نساء ثقيف.

واستوعب معالم الطائف وحالتها الاجتماعية، فذكر سورها وحاراتها ومنازلها وسكانها وقلعتها ومدارسها، وذكر علماء الطائف الذين لقيهم.

وعقد فصلاً صغيراً للحديث عن سوق (عكاظ)، عَطَفَه بفصلٍ طويل آخر أورد فيه ما حول الطائف من قرى وجبال وأودية وآبار وبساتين وحصون وعيون مرتبة على حروف المعجم، وأتى على ذكر قبائل الطائف: عتيبة، ثقيف، شبابة، خندف، وعرض لها بشيء من الإيجاز.

وعرض لمخطوطة الشيخ عثمان الراضي في نقد (الرحلة الحجازية) لمحمد لبيب بك البتنوني، لخص الزركلي ما ظفر به من الكتاب حرصاً على مادته من الضياع والانتشار، لأن مؤلفه توفي قبل إنجازه.

وختم حديثه في رحلته عن الطائف في وصف أيام رحلته، وحنينه إلى دمشق فيقول ص١٥٩ : «أمضينا نيفاً وعشرين يوماً في الطائف، نركب البغال عصر كل يوم، ونمضي إلى جهة من جهاته، فنبتعد مسيرة ساعة أو ساعتين أو

أكثر، ننقب عما نسترشد إليه من الآثار، وننظر في ما نمر به من القرى والديار، ونتربص في بعض الجنائن والبساتين ونعود بعد الغروب، وكثيراً ما كانت جماعتنا تتألف من أمير الطائف (الشريف شرف بن راجح) ووكيل حربية الحجاز (صبري باشا العزاوي) وقاضي الطائف (الشيخ عبد الله كمال) ومدير شرطته (الشيخ درويش الحدائي) وفريق من ضباط الجيش، فنجمع بين لِذَّتي الرياضة والاستقرار، والنزعة والاستطلاع، ولطالما كنا نعاني الصِّعاب في صعود الجبال والهضاب، غير أن اللذة في ما كان يلوح لنا من أثر أو منظر لم تَبْرَح تشجعنا على المضي في التصعيد والتطويف والتشريق والتغريب، وناهيك بما هنالك من صفاء في الأرض والسماء، وسكون في الطبيعة والفضاء، لولا ما كان ينتاب النفس ـ وللنفس حنين ـ من نزوع وتشوق، وتطلُّع وتشوّق إلى ديار، هي صبابتي ورباع أُنسي، ومهوى هواي ومنبت غرسي، هي ديار الشام المنكوبة، بلاد الآمال والآلام، سلام عليها وألف سلام».

ثم عقد فصلاً هو أطول فصول الكتاب (في ضيافة الملك) ويعني به الملك حسين بن علي، فتحدث عن قَصْرَيْه، ووصفهما وصف مُشاهدة، وتحدث عن الملك، وفصَّل الحديث عن نسبه وتاريخ حياته، وإمارته، وسيرته وأخلاقه، وعن رسائل مكماهون إليه، وعهود بريطانية إليه، وثورته على الترك عام (١٣٣٤هـ= ١٩١٦م) ومبايعته بالملك، وذكر أبناء الملك حسين الأربعة على ترتيب أسنانهم تبعاً لقاعدتهم في تقدم الأكبر فالذي يليه، وهم: علي، وعبد الله، وفيصل، وزيد، مع الترجمة لكل منهم.

وتحدث عن برنامج الملك حسين اليومي، وحياته الخاصة، وأسلوبه في الكتابة، وشعره، وقوته النظامية والبدوية، وقد وصف ذلك الزركلي بقوله ص١٦٤: «كان نصيبي منها أن أرى جلالته أكثر من ساعتين في كل ليلة من نيف وتسعين ليلة، أسمع حديثه مع المستمعين، وأكلمه مع المتكلمين، فعرفته في سروره ورضاه، كما عرفته في كدره وغضبه، ورأيته في جد الأمر، وقلَّ أن رأيته في لعبه، واجتمعت لي طائفة كبيرة مما يحرص على العلم به

الكثيرون، من سيرة الملك العربي الهاشمي وأخباره، وعاداته وأطواره، وإنما أنا ناقل ما سمعت وما رأيت، نقل المحدّث لا المؤرخ، والمصور لا الكاتب، متحرياً إيراد الحقيقة كما هي عارية مجرّدة، ولو استطعت لأخذت بيد القارئ أريه ما وقعت عليه عيناي، وأسمعه ما وعته أُذُناي. على أن الخبر قد يغني عن الاختيار، وفي الرواية ما يغني عن المشاهدة».

وختم كتابه الماتع بانطباعاته عن أهل البادية، وعاداتهم وتقاليدهم وما فيها غرابة وطرافة فقيدها، إن لم تكن للتاريخ فللفكاهة والمسامرة، ولم يرَ فائدة في التبويب والتنسيق، فأطلق الحديث مرسلاً، وميّز كل خبر بعنوانٍ يدلّ عليه، وأورد أربعين خبراً منها: الفراسة، قص الأثر، مواكبهم، صبرهم على الألم، اليد اليمنى، الأوهام، شجعانهم، القضاء، طريقة المحاكمة، ألوان إبلهم وأنواعها، بياطرة الهيام، من أمثالهم.

ومضى في حديثه الشائق عن أدب البادية، ويريد به الشعر المألوف نظمه عندهم اليوم، وما يتعلق به من معرفة أوزانه وتفسير كلماته، وطُرُق روايته، وأخبار قائليه، ولكلٍّ من هذه الأبحاث شواهد ذكرها الزركلي في مواضعها، والشعر من حيث هو شعور في النفس يترجم عنه اللسان، فإنه لم يزل مما تحافظ عليه البادية وتنفرد بالإبداع فيه عن الحواضر، فالشاعرية الفِطرية ما انفكت تصحب الكثيرين من البداة حتى اليوم.

والزركلي لا يرى ما قد يراه سواه من انتقاص هؤلاء، أو بَخْسهم أدبهم لشيوع العامية فيهم، أو لاعتمادهم عليها في شعرهم، فما كان ـ ولن يكون ـ من الإنصاف أن نطالب ابن هذه الصحراء القاحلة بالتعبير عما يجيش في صدره بلغة غير لغته التي تلقّاها عن أمه وأبيه وعشيرته وأهليه، فالبدوي الجاهلي قبل الإسلام والبدوي المعاصر من أبناء هذا العهد سواء من حيث الإفصاح والإبانة عن كوامن النفس بلغته المعروفة المألوفة، فما كان ذلك بالمتكلّف إعراباً غير إعرابه فنكلف هذا، وما كان ذلك بمتلقٍّ عروض الخليل أو نحو سيبويه فنعيب على هذا اجتنابهما.

وأبان الزركلي أن البدو يقسّمون الشعر إلى نوعين؛ الأول: الصحيح الأوزان واللغة ويسمونه (القريض) والآخر: الشعر المختلف في لغته وأوزانه عن الشعر الصحيح أو القريض ويسمونه (الحميني) - ولم يعلم الزركلي اشتقاق هذه اللفظة ولا أصلها - وأوضح أنهم يسمون المساجلة بين الشاعرين منهم (قصيداً) كما يسمون القصيدة الطويلة أو القصيرة (نشيداً) ويعرف عندهم اللغز باسم (الغبوة) وتطرق الزركلي للغة (الحميني) وأورد أمثلة منه، وعرض لأوزانه، وأوضح - في حديثه عن التمييز بين شعر الحميني الحضري والبدوي - أن البدوي أقوى على الارتجال. وأكثر شعره ينشده غير متكلّف ولا متصنّع خلافاً للحضري، فإنه يصنعه صنعاً، فينمّق ألفاظه، ويهذّب أبياته، ولا يقوى على ارتجاله في الغالب. والتمييز بينهما بملاحظة يسيرة هي أن شعر ابن الحواضر يبدو قريباً من لغة الحواضر.

وعرّج على اختلاف الأساليب بين البوادي، فأبان أن لكل بادية من بوادي الحجاز واليمن والشام والعراق أسلوباً خاصاً في شعرها، وأن هذا الفرق يظهر في أوزانها وفي لغتها أو بيانها، وذكر أشهر شعراء بادية الحجاز، ومنهم الملك حسين بن علي الذي أثبت قصيدتين له. وختم الخاتمة بوداع الملك وعودته إلى القاهرة.

وخلاصة الكتاب أنه وصف شامل لما أصاب سورية عقب معركة ميسلون، ودخول الفرنسيين دمشق، وهو تاريخ للطائف في ماضيها وحاضرها، وتاريخ الحسين بن علي بتصوير دقيق وفني وأمين سجّل في كتابه بعينَي العالم، وفكره وروح الشاعر تاريخاً صغيراً للطائف، وألحق به فصلاً طيباً عن البادية ضمَّنه جملة من الملاحظات النافذة أطلق الحديث منها رسلاً على حدّ وصفه هو.

إن بحثه هذا عن الطائف يؤلف معظم كتابه، ويشمل حديثه عن البادية نحواً من ربع الكتاب، وحين تشاء أن تدير وجهك عن السياسة، فأنت تجد نفسك قبالة كتاب عن الطائف والبادية، أما إذا أردت إلى السياسة سلم لك من الكتاب

ربعه الأول. كما يقول الدكتور شكري فيصل في علم الأعلام، ص٨٠

ويقول الدكتور شكري فيصل رحمه الله عن كتابي (ما رأيت وما سمعت) و(عامان في عمان):

«ولم يكن هذان الكتابان نثراً من النثر كما يبدو لنا. . كانا ـ في تقديري ـ النبعة الشعرية وراء قصائده آنذاك. . ما نشر منها في الديوان وما ادَّخر. . إن قصائد الديوان هي التعبير الشعري عن تجربة قاسية، وحكايات الكتابين وصفحاتهما هي التعبير النثري عن أحداث هذه التجربة. . وعلى نحو ما يختلط تفسير الشعر بالنثر، وتفسير النثر بالشعر، يختلط ما بين الديوان وما بين الكتابين. . الكتابان هما الخلفية الفكرية والتجربة الواقعية مشوبين[1] بكثير من الشعر، والديوان هو التجربة الفنية التي كانت تصعيداً للذي عانى من تجارب واجتمع لديه من هذه الخلفيات.

الديوان هو روح هذه الأحداث، تختفي فيه وتلوح، تتوارى وتبين على نحو ما تتوارى وتبين شمس يوم غائم منقطع الغيم، والكتابان هما الأحداث، يحملان بهذا الشعر ويبشران به، ويخيّل إليك أنك تسمعه كما تستمع إلى مزمار راعٍ في جبل قبل أن تراه، أو كما يدركك هدير الماء في الفيجة قبل أن تستريح له عيناك في يوم من أيام الربيع من سنة مثلجة.

إنه في صفحات الكتابين كان الحمل بهذا الشعر، وكان الوضع على أسطرهما، وبين أسطره الثورة والعتب، والجفاء والجفاف، والأمل والتطلع، والإقامة والهجرة، والنفحات واللفحات، والبَسَمات والصرخات، الدموع والدماء. . كلّ هذه التي في شعره هي في هذين الكتابين ومن هذين الكتابين»[2].

* * *

(١) هكذا بالنصب.

(٢) علم الأعلام، ص٧٧ ـ ٧٨.

٦ ـ الوجيز
في سيرة الملك عبد العزيز

دار العلم للملايين ـ بيروت، الطبعة العاشرة ١٩٩٩م، ٣٧٦ صفحة ١٧×٢٤

كنت قد ذكرتُ في تعريفي بكتاب شبه الجزيرة العربية أن مؤلفه كَتَبَه كما دخل في ذهنه، فجاء متداخل الأخبار غير مرتب.

ثم نظر فيه فجمع ما هو من أخبار الملك نفسه، فكان كتابه هذا الذي قال في مقدمته:

«أما وقد دوَّنت ما وقفت عليه، أو وُفِّقت إليه، من تاريخ (شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز) وجاء على شيء من الإسهاب لا يتسع وقت الطالب الدارس لاستيعابه، فكان عليّ أن أضع للناشئة الواعية موجزاً يتدارسونه، ويرجع إليه المُعْجَل منهم ومن غيرهم، يصوّر لهم حياة عبد العزيز صورة صحيحة كالأولى، لا زُلفى في وضعها ولا باعث إليها إلا خدمة التاريخ في شخص رجل من كبار رجاله، فاكتفيت عن الكثير بالقليل، وبالخلاصة عن التفصيل، وسميته (الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز) راجياً ألا أكون قد أخللت في الإيجاز، ولا أمللت في البسط، ومن الله وحده العون».

* * *

الخاتمة

ها أنا ذا أصل إلى نهاية الكتاب، وأنا فَرِحٌ بإتمامه، فقد استقصيت سيرة الزركلي، والتعريف بكتبه ما وسعني من جهد، مع طول التحرّي والاستقصاء والتتبّع، وتسقّط الأخبار من مواقعها، وتوخّي الحقيقة في الطلب، حتى لا يختلط باطل بحق.

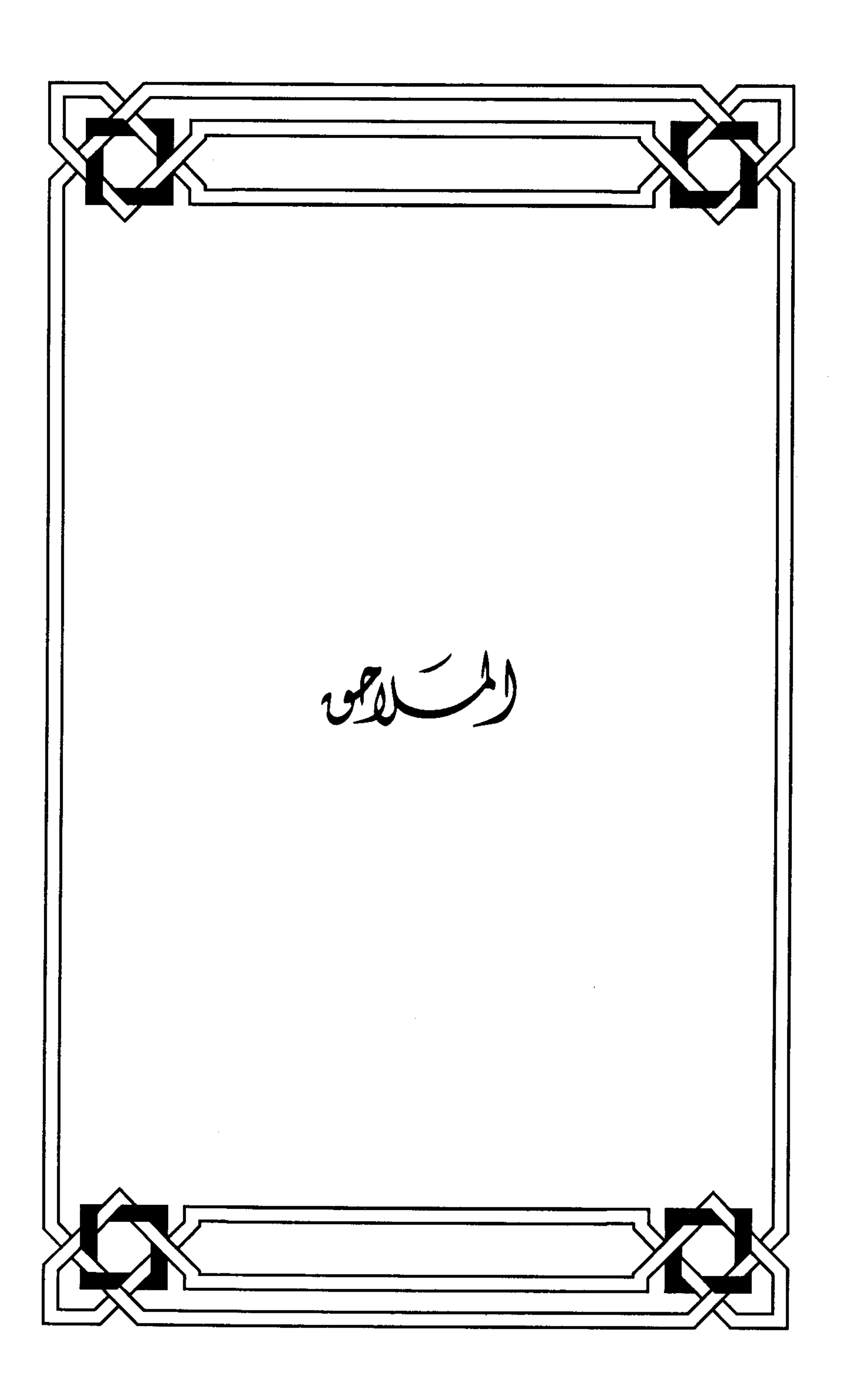
وآمل أن يكون ما كتبت أزاهير رحمة ووفاء نثرتها على العَلَم العظيم خير الدين الزركلي، فإن وُفِّقتُ في ذلك، فبها ونِعمّت، وإلاّ فليس على المستطيع المستغني إلا التجاوز إلى النبع، الذي هو كتبه وما كتب فيه الدارسون، وحسبي أني شرعت فيما كان ينبغي أن يُشرع فيه من قبل.

رحم الله الزركلي، وأثابه، على ما قدَّم وأحسن. والحمد لله على عونه وتوفيقه.

* * *

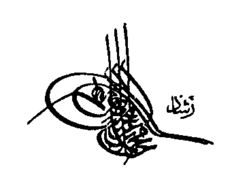
تذكرة: إذا رأى بعض أهل العلم رأياً في شيء مما ذكرت، أو نقداً لما كتبت، فأرجو أن يتفضَّل مشكوراً سلفاً بأن يرسل به إليَّ بعنواني:

(إربد ـ الطيبة، ص. ب ٢٥ الأردن).



الملاحق

الملحق (١)



المدرسة العثمانية الدمشقية

شهادة القسم العلمي

التفسير	العقائد	مصطلح الحديث	الفقه	تاريخ الاسلام	الصرف	النحو	الاشتقاق	المعاني	البيان	البديع
١٠	٨	٧	٩	١٠	١٠	١٠	١٠	٩	٩	١٠

العروض والقوافي	اللغة	الانشاء	المنطق	آداب البحث والمناظرة	الحساب	قرض الشعر	السلوك
١٠	١٠	١٠	٧	٨	٦	١٠	١٠

تلميذ محمد خير الدين افندي ابن السيد محمود الزركلي المولود في ١٠ ذي الحجة عام [illegible] قد اتم دراسة العلوم الثانوية في مدرستنا وحاز في فحص سنة [illegible] على الدرجات العليا فاستحق نيل هذه الشهادة الدالة على اقتداره واستعداده

دمشق في [illegible] عام [illegible]

مدير المدرسة

شهادة الزركلي من المدرسة العثمانية الدمشقية

الملحق (٢)

جيش الشرق
رئاسة أركان الحرب
المكتب الاول
للقضاء العسكري
رقم ٥٢٩

امــــر بتوقيف الحكم

ان الجنرال القائد العام لجيش الشرق
بناء على المادة رقم ١٥٠ من قانون القضاء العسكري

يــامر

بتوقيف تنفيذ الحكم الصادر في ٩ آب ٩٢٠ من قبل مجلس الحرب في دمشق الذي حكم على الـ...
ـ خير الدين زركلي ـ بالاعدام لتواطئه مع العدو بقصد تسهيل مشاريعه .

حرر في المقر العام بتاريخ ١١ تشرين ثاني ٩٢٠

التوقيع
غارنية دبيلمس
عنه رئيس مكتب القضاء العسكري

صورة عن توقيف حكم الإعدام الصادر في حق الزركلي

الملحق (٣)

نجوى ..

بخير الدين الزركلي

القصيدة التي كتبها خطاط ديار الشام الفنان

الأستاذ بدوي الديراني ١٩٥٢

العينُ بعد فراقِها الوطنا … لا ساكناً ألِفَتْ ولا سَكَنا

ريانةٌ بالدمعِ أقلقها … أن لا تُحِسَّ كرىً ولا وَسَنا

كانت ترى في كلِّ سانحةٍ … حُسْناً، وباتت لا ترى حَسَنا

والقلبُ لولا أنَّةٌ صعدت … أنكرتُهُ وشككتُ فيه أنا

ليتَ الذين أحبهم علموا … وهُمُ هنالك ما لقيتُ هنا

ما كنتُ أحسبني مفارقَهم … حتى تفارقَ روحيَ البَدَنا

…

يا موطناً عَبِثَ الزمانُ به … مَن ذا الذي أغرى بكَ الزمنا

قد كان لي بكَ عن سواكَ غنى … لا كان لي بسواكَ عنكَ غنى

ما كنتَ إلا روضةً أُنُفاً … كَرُمَتْ وطابت مَغرِساً وجنى

عطفوا عليكَ فأوسعوكَ أذى … وهُمُ يسمون الأذى مِنَنا

وحنوا عليكَ فجرّدوا قُضُباً … مسنونةً وتقدّموا بقنا

…

يا طائراً غنّى على غُصُنٍ … و(النيلُ) يسقي ذلكَ الغُصُنا

زِدْني وهِجْ ما شئتَ من شجني … إن كنتَ مثلي تعرف الشجنا

أذكرتني ما لستُ ناسيَهُ … ولرُبَّ ذكرى جدّدت حَزَنا

أذكرتني (بردى) وواديَه … والطيرَ آحاداً به وثُنى

وأحبّةً أسررتُ من كلفي … وهوايَ فيهم لاعجاً كَمَنا

كم ذا أُغالبه ويغلبني … دمعٌ إذا كفكفتُه هتنا

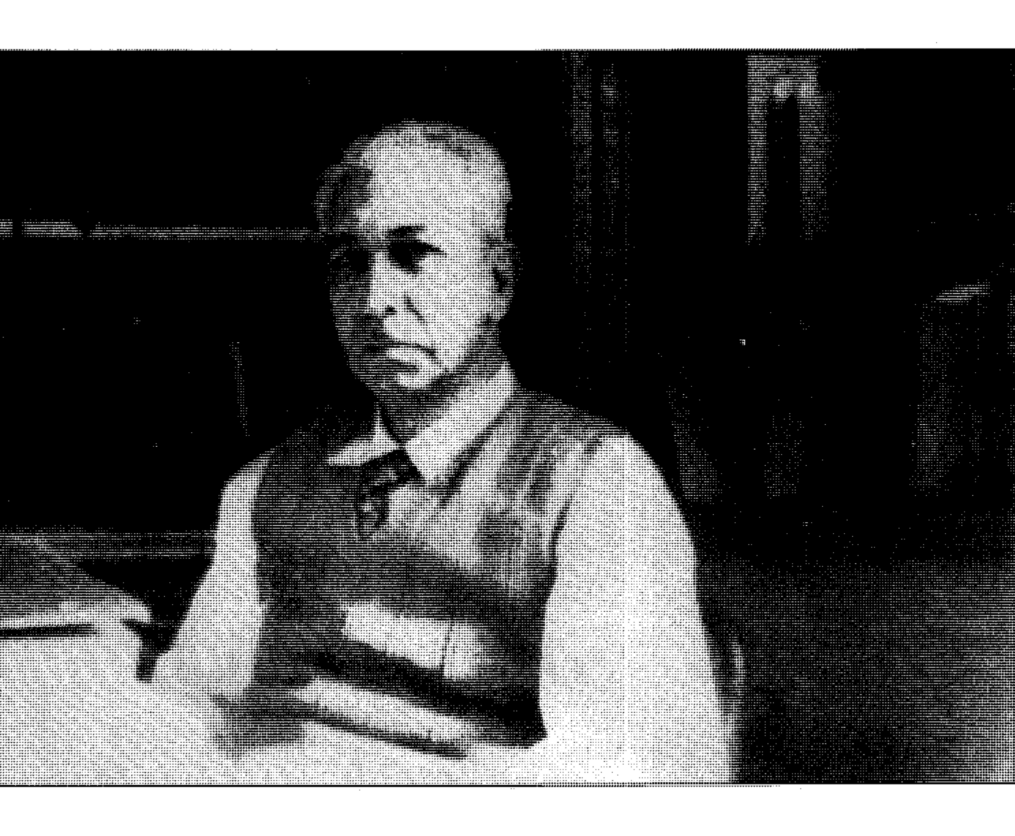
لي ذكرياتٌ في ربوعهم … هنّ الحياةُ تألّقاً وسنى!

…

إنّ الغريبَ معذّبٌ أبداً … إن حلَّ لم ينعم وإن ظعنا

. . . .

الملحق (٤)



الزركلي في مكتبته

الملحق (٥)



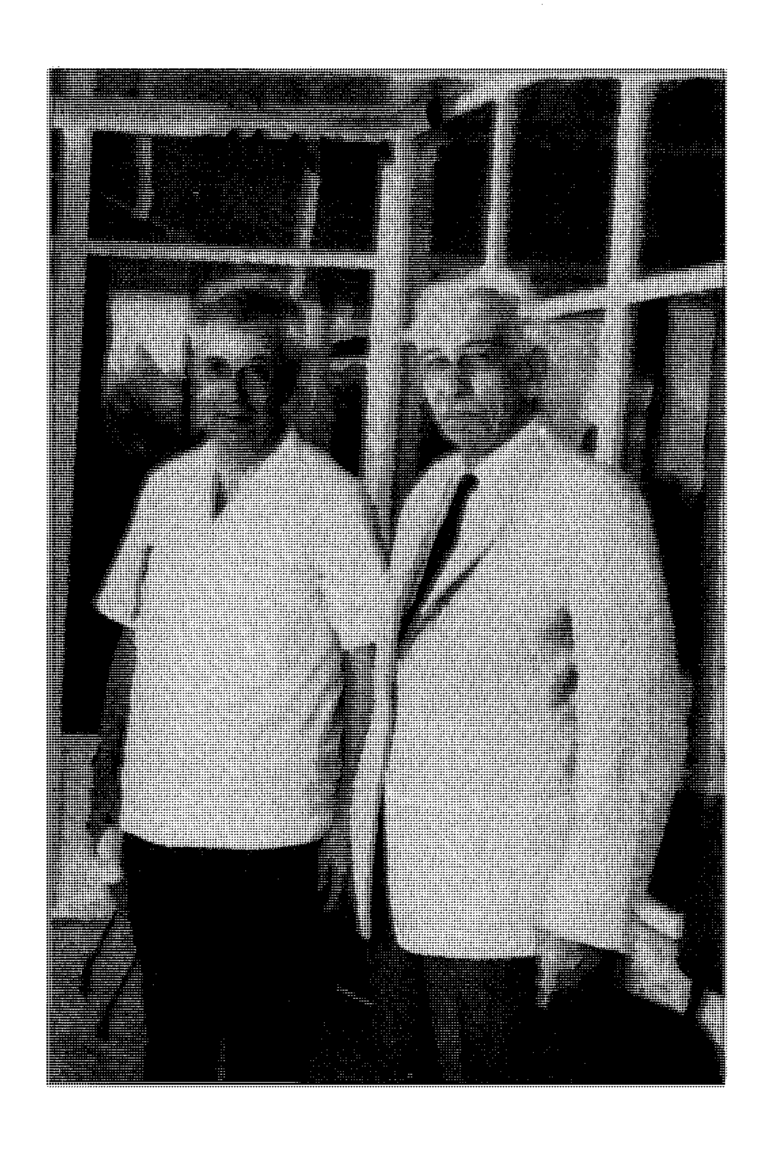
الملك فيصل بن عبد العزيز وإلى يساره الزركلي

الملحق (٦)



من اليمين: الزركلي، يوسف ياسين، عبد الرحمن عزام

الملحق رقم (٧)



الزركلي مع ظافر القاسمي



الفهرس

الفصل الثاني

التعريف بمؤلفاته

* * *